

أبو عمرو موسى الزياتي

حياته وأثاره

تأليف
عبد الحميد حاجيات
أستاذ التاريخ
في كلية الآداب بالجزائر



أبو
حمو موسى الزياتي

نجمي الحاج علي

عبد الحميد حاجيات
أستاذ التاريخ
في كلية الآداب بالجزائر

الأبوعمرو موسى الزياتي

حياته وأثاره

شبكة كتب الشيعة



المركز الوطني للتراث والتوثيق

shiabooks.net

رابطه يديل < mktba.net

جميع حقوق
الطبع والنشر والترجمة والاقتباس والتصوير
محفوظة

١٣٩٤ هجرية ١٩٧٤ ميلادي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

لا شك أن أبا حمزو الثاني يحتل مكانة خاصة في تاريخ الدولة العبد الوادية أو الزيتانية ، وهو ، في أن واحد ، أحد ملاطينها المشهورين ، وأديب ترك لنا آثارا شعرية ونثرية لا تخلو من أهمية ، وقد كان بلاطه ملتقى العلماء والشعراء ، كما كان عهده عهد ازدهار وتفتح في سائر الميادين .

ولهذا السلطان الاديب شخصية جذابة ، وهمة عالية ، وخصال سامية مكنته من احياء مجد اجداده ، بعد أن تقلص رطله مدة حوالي عشرين عاما ، وجملته يقف أمام الشدائد وتقلبات الدهر ، ويواجهها بثبات وعزم ، ويصمد لها صمودا لم يشاهد التاريخ مثله الا عند القليل من القادة ورجال الحكم .

والفرض من هذه الدراسة ، محاولة ابراز هذه الشخصية الفذة ، الشهيرة بين رجالات تاريخ المغرب العربي المجيد ، ومحاولة كشف مالا يزال يحوم حولها من غموض ، وقد وافق شروعا في عملنا هذا حلول الذكرى المئوية السادسة لوفاته . فكان مجهودنا مساهمة متواضعة في الاحتفال بهذه الذكرى والتعبير على ما تكن نفوسنا من احترام وتقدير لاحد اعلام بلادنا .

وإذا كان الباحث في تاريخ المغرب في العصر الوسيط يشكو عادة من قلة المصادر ، فالأمر يختلف عن ذلك بالنسبة لموضوعنا ، وذلك أن أبا حمو الثاني قد حظي بوفادة مؤرخين جليلين همسا عبد الرحمن بن خلدون ، صاحب كتاب «العبر» ، واخوه يحيى ، مؤلف كتاب «هغية الرواد» ، وقد أقاما مدة في بلادهم جعلتهما يطلعان عن كثر على جانب وافر من المعطيات السياسية والحضارية لدولته ، وبقومان بتدوين ذلك وتسجيله فيما ألفاه من الكتب .

ومن المصادر الهامة لموضوعنا هذا ، كتاب «زهر البستان» ، لمؤرخ مجهول ، وقد ألف في عهد أبي حمو الثاني ، فيكون مؤلفه شاهد عيان ، مما يجعل هذا المصدر وثيقة تاريخية لا يستغني عنها ، وقد عثرنا على السفر الثاني منه في إحدى مكتبات أوربا ، وهو يتناول السنوات الأربع الأولى ويحتوي على معلومات قيمة وتفصيل كثيرة حول هذه الفترة الحاسمة من حياة أبي حمو السياسية .

هذا وقد استعملنا أيضا كتاب «نظم الدر والعقيان» ، للتنسي ، الذي لم ينشر بعد ، وغيره من المصادر المطبوعة والمخطوطة لتاريخ المغرب في القرن الثامن الهجري .

غير أننا لم نجد دائما ، في غضون هذه المؤلفات ، ما يشفي الغليل فاضطررنا في كثير من المناسبات الى الاقتصار على ما ألفيناه فيها من الاخبار ، و حاولنا مرار كشف الغطاء عن مواقف غامضة ، فاجتهدنا في تفهم الأوضاع الاجتماعية ، والعوامل النفسية ، والدوافع الاقتصادية ، وغير ذلك من المؤثرات التي يحسب لها حسابها في دراسة التاريخ .

ثم اننا لم نكتف بالتعرض لحياة أبي حمو وسياسته بل تناولنا أيضا بالبحث

بعض النصوص المختارة من كتاب «واسطة السلوك» لأبي حمو ، ثم أضفنا الى ذلك جميع ماوصل إلينا من شعره .

وأملنا أننا نكون قد ألفتنا أنظار الباحثين من أبناء الجيل الصاعد الى الاقبال على دراسة هذه الفترة الهامة من تاريخ المغرب الحافل بالبطولات والأعجاد ، وإلى التنقيب عما حققته الأجيال الماضية من ازدهار حضاري ونشاط فكري .

القسم الأول

الدولة العبد الوادية قبل إمارة أبي حمّو الثاني

الباب الأول

الأوضاع السياسية

تأسيس الدولة العبد الوادية :

تعتبر معركة العقاب (1212/609) أهم العوامل التي أدت الى تفكك الدولة الموحدية ، وتصدّع الصرح الذي شيّده عبد المؤمن ومن خلفه من كبار أمراء هذه الدولة .

ومن العوامل الأخرى التي أضعفت شأنها ، ما حدث بعد ذلك من تازم الوضع بين السادة ، أمراء الأسرة المومنية ، والأشياخ ، ممثلي القبائل المناصرة للدعوة الموحدية ، واشتدّت هذه الأزمة السياسية بعد وفاة العادل ، سنة (624 هـ) ، وانتصاب ادريس المأمون على العرش ، فنتج عن ذلك صراع عنيف ، أدّى إلى قيام منافس للمأمون ، يدعى يحيى المعتصم ، بتأييد من الأشياخ ، ولم تنته الفتن التي نشأت بين الفريقين إلا بوفاة يحيى المعتصم ، حوالي سنة 633 هـ .

وفي تلك الأثناء ، كان نفوذ السلطة الموحدية قد ضعف في إفريقية والمغرب الأوسط ، وتلاشى شيئاً فشيئاً ، حتى لم يبق بها من المناطق الخاضعة لسلطتهم إلا تلمسان وما يليها .

وبينما كان الحفصيون يقدمون على إلغاء تبعيتهم للأسرة المومنية ، بإفريقية ، كانت مختلف القبائل الزناتية ، في المغرب الأوسط ، تقتطع أراضي التل الغنية ، فاستقلت مغراوة بناحية شلف ، واحتل بنونوجين جبل وانشريس ، وبنو راشد الجبل الذي أصبح يحمل اسمهم ، وبنو عبد الواد الأراضي التابعة لتلمسان .

ولم يستولِ بنو عبد الواد على تلمسان إلا بعد أن حدثت اضطرابات خطيرة بها ، وثار أحد رجال لمتونة المستخدمين آنذاك في الجند ، على الوالي ، واعتقله ، فكان دخول بني عبد الواد لتلمسان ، سنة (627 هـ) ، بقيادة جابر بن يوسف ، خطوة أولى نحو تأسيس دولتهم .

ثم آلت إمارة بني عبد الواد ، بعد وفاة جابر ، إلى ابنه الحسن (629 هـ) فأخيه عثمان (630 - 631 هـ) ثم إلى ابن عمه زيدان بن زيان (631 - 633) واصطدم زيدان بمعارضة قوية من بعض عناصر قبيلته ، فحاربهم ولكنه قتل أثناء معركة دارت رحاها خارج تلمسان (633 هـ) فخلفه أخوه يغمراسن .

وكان أول عمل سياسي قام به يغمراسن أن أعلن استقلال قبيلته

بالحكم ، مع الاعتراف الرمزي بالخلافة الموحدية ، فتأسست بذلك الامارة
العبد الوادية .

يغمراسن بن زيان :

وتمسك يغمراسن بالبيعة للرشيد بن المامون الموحدي ، ثم حاول
الاستيلاء على ناحية شلف ، فاستغاث أمراء مغراوة بأبي زكرياء
الحفصي ، ونهض هذا الأخير بجيوشه الى تلمسان ، فاحتلها ، سنة
(640 هـ) ، ثم رأى أن يعقد الصلح مع يغمراسن على أن تقام الخطبة
باسمه دون الرشيد ، وبعد ذلك زحف السعيد الموحدي (640 - 646 هـ)
بجيش قوي ، في اتجاه المغرب الأوسط ، فتصدى له يغمراسن واعتصم
بجبل جنوب وجدة ، وهناك وقع السعيد في كمين نصبه له جنود
يغمراسن فقتل وانهمزم جيشه ، وغنم بنو عبد الواد ذخائره
(646 هـ) .

ومن هنا بدأت الدولة العبد الوادية تشكل قوة يعتد بها ، في
المغرب ، وأصبحت تطمح الى الاستيلاء على المغرب الأوسط كله ،
وعلى الناحية الشرقية من المغرب الأقصى ، مما يلي نهر ملوية ، فكان
عهد يغمراسن ، بعد ذلك ، متجهاً نحو تحقيق هذه السياسة ، فخاض
الأمير العبد الوادي غماراً كثيراً من الحروب ، ضد بني مرين وأحلافهم
من العرب ، غرباً ، وضد بني توجين وأولاد منديل ، شرقاً ، وإذا كانت
جهود يغمراسن هذه لم تكفل بانتصارات باهرة ، فانها تمخضت عن اتساع

رقعة الامارة العبد الوادية على حساب الامارات المجاورة ، وسمحت بالصمود أمام هجمات بني مرين ، وإبعاد خطرهم عن المغرب الأوسط .

أبو سعيد عثمان الأول :

أما أبو سعيد 703 هـ فإنه بدأ حكمه بانتهاج سياسة مسالمة لبني مرين ، ومواصلة جهود أبيه في الجهة الشرقية ، وصادف ذلك حدوث فتن خطيرة بافريقية ، وذلك أن الأمير أبا زكرياء ابن السلطان أبي اسحاق الحفصي ، صهر أبي سعيد عثمان العبد الوادي ، كان قد زحف بمساعدة العرب الدواودة ، الى بجاية ، وانتزعها من يد السلطان الحفصي أبي حفص ، فاستنجد هذا الأخير بأبي سعيد بن يغمراسن ، الذي كان قد أرسل اليه ببيعته ، قبل ذلك .

وعندئذ ، رأى أبو سعيد أن بيعته لأبي حفص تحتّم عليه قطيعة صهره أبي زكرياء ، وتلبية استغاثة السلطان الحفصي ، ولا شك أنه كان يرمي ، من وراء ذلك ، الى انتهاز الفرصة لتنفيذ الخطة التي رسمها سياسته ، وهي التوسع شرقاً ، على حساب الامارات المجاورة .

وفي سنة (686 هـ) ، نهض بجيوشه في اتجاه بجاية وبدأ بغزو بلاد بني توجين ومغراوة ، وأغار على سهل متيجة ثم راح يحاصر بجاية ، ولكنها امتنعت عليه ، ولم يحقق الهدف الرئيسي من حركته هذه ، وعاد الى عاصمته ، فاستولى في طريقه على مازونة وتنس .

وواصل أبو سعيد غاراته على جبل وانثريس ومنطقة شلف ، في السنوات التالية ، ففرض على سلطة إمارتي بني توجين ومغراوة في تلك البلاد .

غير أنه تعرّض ، ابتداء من سنة (695 هـ) ، الى خطر بني مرين ، الذين أخذوا يقومون بحملات عديدة تجاه تلمسان وناحيتها ، وفي أواسط سنة (698 هـ) ، ضرب أبو يعقوب يوسف المريني الحصار حول تلمسان ، وبني خارجها مدينة المنصورة ، مؤكداً بذلك عزمه على تضيق الخناق على العاصمة العبد الوادية ، وإرغامها ، طال الأمد أم قصر ، على الاستسلام ، وتمادى الحصار سنين طويلة ، ذاق أهل تلمسان ، أثناءها ، الأمرين ، وعانوا من أخطار الحرب ، من قتل بالأسلحة والمجانيق ومن آلام الجوع والأمراض ، ما أهلك معظم سكانها ، وقضى على الكثير من عمرائها ، إلا أن المدينة لم تستسلم ، ولم يفتّ من عزيمتها أهلها ما لحق بهم من أذى ومحنة .

وفي غرة ذي القعدة من سنة (703 هـ) ، توفي السلطان أبو سعيد الأول ، فخلفه ابنه أبو زيان محمد .

أبو زيان محمد

وواصل أبو زيان وقومه الكفاح المرير ضد العدو المحاصر في صبر نادر ، وعزيمة فولاذية ، متحملين كل المشاق ، لئلا تقع عاصمتهم في

قبضة بني مرين ، وفي يوم من ذي الحجة سنة (706 هـ) ، جاء نبأ مقتل السلطان المريني ، فارتفعت معنويات المحصورين ، وعاد الأمل الى نفوسهم ، ودبّ الشقاق بين أفراد عشيرة السلطان المريني المقتول ، مما أدى الى رفع الحصار ، وعودة الجيش المريني الى وطنه ، فانفجرت بذلك الشدة ، وانتهت محنة دامت أكثر من ثماني سنوات .

وسرعان ما قام أبو زيان وأخوه أبو حمو ، باسترجاع نفوذ دولتهما في شرق البلاد ، فاعادا الى حظيرتها منطقة شلف ، وجبل وانشريس ، والمدينة وغيرها من المدن ، ثم قفل الأخوان راجعين الى تلمسان (رمضان 707 هـ) .

وحين وصوله الى عاصمته ، أمر أبو زيان بإصلاح ما أفسدته الحرب في المباني والقصور والأسوار والمزارع ، ولكنه مرض بعد ذلك بقليل وتوفي في (21 شوال 707 هـ) .

أبو حمو موسى الأول :

وعين بعده للامارة أخوه أبو حمو الأول ، وكان مشهوراً بالحزم والشجاعة والإقدام ، والتقوى ، وحب العلم ، وفي أيامه ، حظيت الدولة بمسألة بني مرين ، فأمنت من خطر الحروب والغارات ، واستعادت قوتها وبهجتها ، وتفرغ أبو حمو لتمهيد المنطقة الشرقية ، وإقرار سلطته في سائر جهاتها ، وراوده حلم أبيه بالاستيلاء على بجاية فوجّه الجيوش

اليها سنة (715 هـ ، ثم سنة 716 هـ) ، فحاصرت بجاية ، وجاست خلال ناحيتي قسنطينة وعنابة ، وأفسدت مزارعها وبعض عمرانها ، ولكن الشقاق دبّ بين قوّاد الجيوش العبد الوادية ، واختلفت كلمتهم ، وكاد يؤدي بهم ذلك إلى إشهار الأسلحة بين عساكرهم ، فكان لذلك أسوأ الأثر في سير عملياتهم الحربية ، وانتهت حملتهم من دون أن يحققوا هدفهم ، فعادوا الى تلمسان .

وكان أبو حمو ، الى ذلك فظاً غليظاً ، لا يتأخر عن معاملة أقربائه بشدة ، وكان ابنه تاشفين ينال من هذه المعاملة القاسية نصيباً وافراً ، ويستهدف مراراً إلى تعيير أبيه ، وإلى شتمه أمام الملا ، مما جعل شعور الأمير الشاب نحو والده يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى كره وحقد ، وأخيراً عرض عليه بعض الأعلاج من بطانته تدير مؤامرة لعزل أبيه عن الحكم وسجنه ، وقتل من يكون معه من بطانته ، فطاوعهم على ذلك ، واجتمعوا يوم (22 جمادى الأولى 718 هـ) ، وقصدوا قصر أبي حمو ، ودخلوا عليه وهو في مجلس أنس مع المقرّبين من بطانته ، فبدأ الأعلاج بقتل السلطان ، خلافاً لما اتفقوا عليه مع أبي تاشفين ، ثم قتلوا جميع جلسائه ، وانتصب أبو تاشفين على العرش العبد الوادي .

أبو تاشفين الأول :

وفي عهد أبي تاشفين الأول عرفت الدولة العبد الوادية أوج ازدهارها ، فنشطت فيها الفنون والصناعات ، واتسع العمران ، وأحرز

المغرب الأوسط على تقدم حضاري كبير ، ذلك أن أبا تاشفين كان شديد الميل الى الفنون والبناء ، وكثير الاقبال على الملذات واللهو ، مما جعله ينصرف إلى التشييد والتنميق .

وكانت سياسته ترمي أيضاً ، إلى متابعة التوسع في الناحية الشرقية ، على حساب الامارة الحفصية ، وبدأ بتوجيه غارات عديدة الى إفريقية ، وخاصة الى ناحية بجاية ، حيث كانت الجيوش العبد الوادية تقوم بمحملات كل سنة .

وفي سنة (726 هـ) ، اشتدت وطأة بني عبد الواد على بجاية وبني هؤلاء مدينة ، على بعد مرحلة منها ، وجعلوها قاعدة أمامية لعملياتهم الحربية ، وواصلوا حصار بجاية ، كما أغاروا على نواحي قسنطينة وعنابة .

وصادف ذلك خروج بني سليم عن طاعة السلطان أبي يحيى الحفصي ، وثورتهم عليه ، وبيعتهم لمنافسه في العرش الأمير ابن أبي عمران ، واتصلوا بأبي تاشفين ، راغبين منه المساعدة في مقاومتهم لأبي يحيى ، فوافقهم على ذلك .

الصراع بين أبو تاشفين الاول وأبو يحيى الحفصي :

بدأ الصراع بين السلطانين قبل ذلك بسنوات ، وذلك أن السلطان

أبا يحيى كان يسخر جيوشه لاغاثة بجاية ، ومدافعة بني عبد الواد عنها ،
أما أبو تاشفين ، فلم يترك فرصة لمساعدة الثائرين على أبي يحيى ، ولمدادهم
بالجنود والأموال .

وفي سنة (730 هـ) ، قدم أبو يحيى بجيش هامّ لصد الجيش العبد
الوادي عن بجاية ، ووقع اللقاء بين الفريقين بوادي شارف ، شرقي
القطاع القسنطيني ، فانهزم أبو يحيى شر هزيمة ، ولم يتمكن من صد
هجوم بني عبد الواد الذين انتصروا عليه في هذه المعركة « واستولوا فيها
على حرمه وذخائره ، وأفلت هو من الكائنة جريحاً الى قسنطينة ، ثم
دخلوا تونس ، فأقاموا فيها أربعين يوماً ، وأسلموها لابن أبي عمران
وحمة بن عمر السليمي ، وقفلوا راجعين . » (1)

وهكذا استطاع بنو عبد الواد أن ينتهزوا فرصة قيام الفتن
بإفريقية ، فتحالف أبو تاشفين مع أعداء السلطان الحفصي ونجحت
حركة جيوشه الى إفريقية كل النجاح .

استغاثة أبي يحيى الحفصي ببني مرين :

وأمام الفوضى التي أصبحت تسود بلاده ، لم يجد السلطان أبو
يحيى بداً من الاستغاثة ببني مرين ، فأرسل الى فاس وفداً ليطلب من

(1) بغية الرواد ، ج 1 ، ص 139 .

أبي سعيد المريني مساعدته على دفع خطر بني عبد الواد ، ويعرض عليه عقد زواج بين ابنه أبي الحسن وإحدى الأميرات الحفصيات ، فاستقبل السلطان المريني هذا الوفد أحسن استقبال ، ووافق على تلبية طلب أبي يحيى ، وعلى عقد الزواج .

وكان ذلك ، بدون شك ، فرصة نادرة ، أراد بنو مرين اغتنامها ، ليحققوا حلمًا كان يراود أذهانهم منذ عهد طويل ، وهو القضاء على دولة بني عبد الواد ، والاستيلاء على المغرب الأوسط .

فبعث أبو سعيد المريني رسلاً إلى أبي تاشفين الأول ، يطلب منه الكفّ عن مهاجمة بلاد إفريقية ، والإقلاع عن حصار بجاية ، فكان الجواب بالرفض ، وفي تلك الأثناء توفي السلطان المريني ، وخلفه ابنه أبو الحسن ، فأعاد الطلب الذي قدمه أبوه ، شافعاً للسلطان الحفصي ، فكان رد أبي تاشفين لشفاعته أسوأ من الأول .

وعندئذ لم يبق أمل في استمرار السلم بين الدولتين وشرع أبو الحسن يستعدّ للهجوم على المغرب الأوسط ، ويتأهب للحرب .

استيلاء أبو الحسن المريني على المغرب الأوسط:

وفي سنة (732 هـ) ، زحف أبو الحسن إلى نواحي تلمسان ، ونزل شمالها بتاسالة ، مهدداً العاصمة العبد الوادية ، ثم أرسل إلى صهره

الحفصي ، يدعوهُ الى مهاجمة العسكر العبد الوادي المتمركز قرب بجاية ،
فنهض أبو يحيى الحفصي متجهاً نحو بجاية ، وعندما علم جنود
العسكر العبد الوادي باقترابه ، فروا من مقرهم ، وأسلموه للحفصيين
(733 هـ) .

ثم حاصر أبو الحسن تلمسان ، سنة (735 هـ) ، وأحكم حصارها ،
واستعمل في حربها أحدث الآلات المعهودة آنذاك ، ولم يتمكن
المحصورون من حمل الجيش المريني على الإفراج عن المدينة ، وكان
أبو الحسن ، أثناء الحصار ، يبعث العساكر الى نواحي المغرب الأوسط ،
فاحتل جميعها ، كما أعاد تشييد مدينة المنصورة المحاذية لتلمسان .

وفي (22 رمضان 737 هـ - 24 ابريل 1337 م) اقتحم الجيش المريني
العاصمة العبد الوادية ، وملكها عنوة ، وانحاز أبو تاشفين وثلاثة من
أبنائه ووزيره موسى بن علي الغُزّي إلى باب القصر ، يقاثلون دون
الحرم والأولاد ، الى أن قتلوا جميعاً فكان ذلك أول انتصار هام
حققه بنو مرين في المغرب الأوسط ، عظم به نفوذ أبي الحسن المريني
وظهر بمظهر الملك القوي ، وذاع صيته في الآفاق ، وتأكد لدى الجميع
أن نجم بني عبد الواد قد أفل ، وأن دورهم التاريخي قد انتهى .

هذا وقد عامل السلطان المريني المنتصر أمراء بني عبد الواد ،
وفرسانهم معاملة حسنة ، فشملمهم بعطفه ، وأبقى لهم مناصبهم
وامتيازاتهم ، وكفل أبناء أبي تاشفين الصغار ، وأنزلهم في قصوره ،

واستعمل من توّسم فيه الكفاءة والشجاعة من الفرسان في جيشه وفي إدارته ، فحصلت له بذلك زعامة المغربين الأوسط والأقصى .

هركة أبو الحسن الو الأندلس :

ثم تفرغ أبو الحسن لشؤون الأندلس ، وعزم على تلبية استغاثة ابن الأحمر ، وصد عدوان النصارى على جنوب الجزيرة ، وانتصر الاسطول المريني، في أول الأمر، على الاسطول الاسباني (6 شوال 740هـ / 5 أبريل 1340 م) . ثم اتصل الجيش المريني بجيش ابن الأحمر ، وحاصروا مدينة طريف ، فامتنعت عليهم ، وفي تلك الأثناء قدم جيش أسباني لإغاثة المدينة ، فاصطدم بجيش المسلمين ، وعندئذ خرجت الحامية الأسبانية المحاصرة ، فوجد المسلمون أنفسهم بين نارين ، وانهزموا شر هزيمة ، وقتل أو أسر عدد كبير منهم (ربيع الثاني 741هـ / أكتوبر 1340 م) فكانت وقعة طريف أكبر انتصار أحرز عليه الأسبان بعد العقاب ، وعادت فلول الجيش المريني الى المغرب بالخيبة والفشل ، وقد حطت الهزيمة من معنوياتها ولم يفكر أبو الحسن ، بعد ذلك في النهوض الى الجزيرة ، فكانت هذه الحركة آخر محاولة قام بها المرينيون في الأندلس .

وعندئذ ، وجه أبو الحسن عنايته الى ممتلكاته في المغرب ، فواصل نشاطه العمراني ، مشيّد القصور والمساجد والأضرحة والمدارس ، ونالت تلمسان من هذه الانجازات حظاً وافراً ، كما لا تزال تشهد على

ذلك الآثار القائمة بالمنصورة وبقرية العُباد ، في ضاحيتها ، وتعدّ من أجمل نماذج الفن الإسلامي بالمغرب .

زهف أبو الحسن الو إفريقية :

ولم يتمكن السلطان أبو الحسن من تحقيق أطماعه في البلاد الحفصية طوال عهد صهره أبي يحيى الحفصي ، وبعد وفاة أبي يحيى (2 رجب 747 هـ) ، اصطدم ولي العهد أبو العباس ، بمنافسة أخيه أبي حفص عمر ، ولم يتأخر هذا الأخير عن قتل أبي العباس ، والاستيلاء على العرش الحفصي .

وأمام هذه الحوادث ، رأى أبو الحسن أن يتدخل في شؤون إفريقية ، فعزم على الزحف إليها بجيوشه ، ومحاربة الأمير أبي حفص عمر ، زاعماً أنه بذلك ينتقم لمقتل ولي العهد الشرعي أبي العباس .

وفي (صفر 748 هـ) ، غادر السلطان المريني تلمسان ، حيث كان مقبياً ، بعد أن عين عليها وعلى المغرب الأوسط ابنه أبا عنان ، وتوجه نحو إفريقية ، فاحتل بجاية ، وقسنطينة ، وعنابة ، ثم تونس (جمادى الأولى 748 هـ / سبتمبر 1347 م) وأقام بالعاصمة الحفصية ما يقرب من سنتين ، وفي تلك المدة اجتمع ، لأول مرة ، ملك المغرب ، لبني مرين ، وبلغوا أوج عظمتهم آنذاك .

الا أن أبا الحسن المريني واجه ، بعد استيلائه على تونس ، مشاكل خطيرة من جهة عدو لم يكن ينتظره ، وذلك أن قبائل العرب بإفريقية أثبت أن تخضع لاستبداده، وأر تسلّم في امتيازاتها بجنوب إفريقية، وصمم أبو الحسن على محاربتهم الى ان يذعنوا لطاعته ، واجتمعت كلمة قبائل العرب ، ، وتصدوا لمحاربتة ، فالتقوا بجيشه قرب القيروان، وهزموه، ثم حاصروه بالقيروان (محرم 749 هـ / أبريل 1348 م) .

ثم أفلت أبو الحسن من الحصار ، وعاد الى تونس ، فوجد بها عدوا أدهى وأمرّ من الذي لقيه بالقيروان ، الا وهو وباء الطاعون الذي مات منه خلق كثير من أتباعه ، من بينهم علماء مشهورون من بلاطه ، وساءت الحال في باقي المغرب ، بعد هزيمة القيروان ، وخصوصاً بتلمسان ، وفاس ، وشاع خبر وفاة أبي الحسن بالطاعون فخشي أبو عنان أن يؤول الملك الى غيره من الأمراء المرينيين، وكان ابن أخ له قد دعا لنفسه بالإمارة بفاس ، فغادر أبو عنان تلمسان بعد أن نصب عليها أبا يحيى عثمان بن جرار، المنتسب الى قبيلة بني عبد الواد ، واتجه الى فاس، حيث تغلب بسهولة على منافسه في الحكم، وانتصب على العرش المريني.

وهكذا ، كانت حركة أبي الحسن الى افريقية مغامرة فاشلة ، أدت الى تصدّع ذلك الصرح الشامخ الذي شيّده أسلافه بعد جهود شاقة ، وأصبح في موقف حرج بمقامه بإفريقية محفوف بالآخطار، وعرشه مهدد

من طرف ابنه أبي عنان ، ومن جهة أخرى ، فقد فطن لذلك أمراء بني عبد الواد وفرسانهم ، المنخرطون آنذاك في جيش أبي الحسن ، فالتفّوا حول أميرين من بينهم ، هما أبو سعيد بن عبد الرحمان بن يحيى ابن يغمراسن ، وأخوه أبو ثابت ، وغادروا بلاد إفريقية متجهين نحو عاصمة أجدادهم تلمسان لحياء الدولة العبد الوادية .

أحياء الدولة العبد الوادية على يد الأمازيغيين أبي سعيد وأبو ثابت :

واجتاز الأميران وجمعها إفريقية والمغرب الأوسط ، حتى وصلوا الى سكّاك في ملتقى وادي الصفصيف بوادي يستر ، قرب تلمسان ، وهناك اعترضت سبيلهم فرقة أرسلها ابن جرار لصدهم ، بقيادة أخيه ، ولكنها هزمت ، وتابع الأميران سيرهما ، فدخلتا تلمسان ، في 22 جمادى الآخرة 749 هـ ، وأعادتا لقبيلتهما ملكها .

وبادر الأميران بتنظيم شؤون الدولة ، فتقلّد أبو سعيد مراسيم الملك من سرير وخطبة وسكة ، بينما اختص أبو ثابت بقيادة الجيوش .

أما أبو عنان ؛ فإنه تظاهر بقبول الأمر الواقع ، وذلك أنه كان يريد أن يجعل من إمارة تلمسان سداً فاصلاً بينه وبين أبيه ، والظاهر أن كل واحد من الطرفين كان يحتاج الى تأييد الطرف الآخر ويرغب في عقد حلف معه لمواجهة عدو مشترك ، هو السلطان أبو الحسن المريني .

وبدأ أبو ثابت باسترجاع نفوذ الدولة العبد الوادية في المغرب الأوسط ،

فأخضع الساحل الواقع شمالي تلمسان واحتل مدينتي ندرومة وهنين ، ثم نهض الى وهران وكان يحكمها بنو أجانا، فحاصرها أياماً ، ثم خرجت اليه حامية وهران، وهاجمت جيشه بعنف ، فخذله بنو راشد ، آنذاك ، وانحازوا الى جانب بني أجانا ، فانهمزم بنو عبد الواد وأُفلت أبو ثابت من المعركة ونجا الى عاصمته (أواخر 749 هـ) .

وفي تلك الاثناء ، جاء نبأ قيام الناصر بن أبي الحسن بحركة معادية ، على رأس جيش معزز بقبائل عرب المغرب الأوسط ، مثل سُويْد والديّالْم والعَطَّاف وُحْصَيْن . فأرسل أبو ثابت الى أبي عنان يخبره بأمرهم ، ويطلب منه المساعدة .

وفي (محرم 750 هـ)، بعث أبو عنان جميع من كان في بلاده من فرسان بني عبد الواد ، لمؤازرة أبي ثابت في صدِّ هجوم الناصر فنهض أبو ثابت بقومه متّجها نحو الشرق ، ولقي الناصر في منطقة شلف ، بوادي ورك ، وانتصر عليه ، فراجع الناصر الى بلاد إفريقية .

وفي جمادى الأولى (750 هـ) ، غزا أبو ثابت وهران ، بعد أن أعدّها العدة ، وفتحها عنوة ، ثم غزا ناحية شلف في أواخر شوال (750 هـ) ، وهزم قبيلة مغراوة بوادي رهيو ، ثم بعثت مدينة مازونة ببيعتها للأميرين .

مثل هجوم أبي الحسن المريني على ناحية شلف :

وفي أوائل سنة (751 هـ) ، وصل الى تلمسان نبأ نزول أبي الحسن

الريفي الجزائر ، عن طريق البحر ، قادماً من بجاية ، وانضمام سويد إليه ، بقيادة ونزمار بن عريف ، وقبيلة توجين برئاسة عدي بن يوسف ، فبعث أبو عنان حصّة مريضة للمساهمة في مدافعة هذا الهجوم ، بينما قام أبو ثابت بعملية واسعة النطاق في الناحية الشرقية ففتح المدينة ، وعيّن عليها عمران بن موسى الحنبوني ، ثم اقتحم جبال تيطري ، جنوب المدينة ، وأخضع بها عرب حصين ، وتوغل الى فحص حمزة ، ثم عاد الى تلمسان (رجب 751 هـ) .

وبعد ذلك بقليل ، هاجم ابو الحسن الريفي وابنه الناصر المنطقة الشرقية ، فاستولى الناصر على المدينة ومليانة ، وقتل عمران الحنبوني ، فتوجّه أبو ثابت ، فوراً ، الى لقائه بعد أن جمع ما استطاع من الجيوش ، وانضمت إليه مغراوة برئاسة علي بن راشد ، وكان اللقاء بتعزيزين ، في ناحية شلف (10 شعبان 751 هـ) ، فانتصر أبو ثابت وانجلت المعركة عن مقتل الناصر وبعض كبار أنصار أبي الحسن ، ونجا هذا الأخير مع الشيخ ونزمار بن عريف ، زعيم سويد ، فتوجّها مع فلول الجيش الى الجنوب ، ثم قصدا المغرب الأقصى عن طريق الصحراء ، وعاد أبو ثابت الى تلمسان ، فدخلها في فاتح (شوال 751 هـ) .

وهكذا استطاع ابو ثابت أن يبعد خطر ابي الحسن وأحلافه عن المغرب الأوسط ، وأدرك السلطان أبو الحسن الريفي أن محاولة أخرى لاسترجاع هذه المنطقة قد تشغله لمدة عن هدفه الرئيسي ، وهو استرجاع عرشه وجعل حداً لتمرّد ابنه ابي عنان .

الصراع بين ابي الحسن وابنه ابي عنان :

وتابع ابو الحسن سيره نحو جنوب المغرب الأقصى ، فاستولى على سجلماسة ، بمساعدة سويد ، ولكنه سرعان ما اضطر الى مغادرتها ، لأن أبا عنان زحف إليها بجيشه ، مما سبب فرار سويد .

ثم احتل ابو الحسن مراکش ، وشرع يحاول استرجاع ممتلكاته في المغرب الأقصى ، غير ان أبا عنان لم يمhle ونهض الى محاربته ، فالتقى الفريقان على ضفاف وادي ام الربيع (ربيع 751 هـ / مايو 350 م) ، فهزم ابو الحسن شر هزيمة ، وافلت من ساحة القتال ، فالتجأ الى الجنوب حيث آوته قبيلة هنتاته .

وفاته ابي الحسن المريني :

ثم حاصره ابو عنان في تلك الناحية ، وضيق عليه الخناق الى ان نزل عن رغبته ، وتنازل له على العرش ، مقابل مبلغ مالي وبعض الثياب النفيسة ، ولم يتحمل ابو الحسن ما كلفه كل ذلك من متاعب ومشاق ، فرض اثناء ذلك ، واشتد به داؤه ، الى ان لقي حتفه بيجال هنتاته 27 الاول ربيع 752 هـ / 24 مايو 1351 هـ) ، ودفن بعد ذلك بمقبرة بني مرين بشالة ،

واصبح ابو عنان السلطان الشرعي للدولة المرينية ، إلا ان حكمه كان لا يتجاوز حدود المغرب الأقصى ومنطقة صغيرة في جنوب الأندلس ، اما بنو عبد الواد ، فانهم اغتتموا فرصة انشغال ابي عنان بمحاربة ابيه ، لمواصلة جهودهم في استرجاع المنطقة الشرقية .

وفي هذه المرة ، تصدى ابو ثابت لقبيلة مغراوة ، وكان سبب نهوضه إليهم ان احد امراء بني عبد الواد ، يدعى محمد بن عمر الجُمِّي ، اجتاز بمنطقة شلف آتيا من تونس ، وعندما مرّ بمازونة قتله بعض الناس من مغراوة ، فاهتبل ابو ثابت هذه الفرصة ، وقرر الزحف الى ناحية شلف للأخذ بالثأر، ونهض اليها في (محرم سنة 752 هـ)، فلم يحرز، في اول الأمر، على ما كان يأمله من النصر لأن مغراوة اعتصمت بالجبال القريبة من تنس ، فارتحل عنهم وراح يفتح مدن المنطقة ، فاحتل برشك وشرشال ، ثم مليانة فالمَدِيَّة ، ثم زحف الى سهل مَتَّيْجَة ، واستولى على الجزائر، وولى عليها القائد سعيد بن موسى بن علي الغزِّي (ربيع الثاني 752 هـ) .

ثم عاد ابو ثابت إلى ناحية تنس ، وحاصر الجبل المجاور لها ، الذي اعتصمت به مغراوة وشدّ عليهم الحصار ، الى ان ضاق بهم الامر ، فاستغاث اميرهم علي بن راشد ، بالسلطان ابي عنان المريني ، وطلب منه ان يكفّ عنه اذى بني عبد الواد ، فبعث ابو عنان الى ابي ثابت بالشفاعة في علي بن راشد وقومه، ولكن أبا ثابت لم يلب طلبه وتمادى في عملياته ، مواصلا الحصار ، الى أن اضطر الكثير من أنصار علي بن راشد الى التخلّي عنه ، والفرار بما شيتهم ، وعندئذ التجأ الأمير المغراوي الى مدينة تنس ، فحاصره بها أبو ثابت أياماً ، ثم اقتحمها عليه ، وفتحها

عنوة ، (16 شعبان 752هـ) ، وقبض عليه ، وسجنه ، ولم يتحمل علي بن راشد مذلة الهزيمة والأسر ، فذبح نفسه بسيفه ، وبموته انقرضت الامارة المغراوية بناحية شلف ، ثم عاد أبو ثابت الى تلمسان ، بعد أن ضمّ الى جيشه كثيراً من فرسان مغراوة .

واذا تأملنا في تسلسل هذه الحوادث ، وفي أهميتها بالنسبة لتطور الأوضاع السياسية في المغرب ، رأينا أن بني عبد الواد لم يفتؤوا ، منذ تأسيس دولتهم ، يسعون لجمع شتات قبائل المغرب الأوسط ، وتكوين قوة سياسية في هذا الإطار الجغرافي الواقع بين افريقية والمغرب الأقصى ، فكلما تمكنوا من ابعاد الخطر المريني عن قطرهم ، قوي نفوذهم في سائر نواحيه ، وفرضوا سلطتهم على مختلف المدن والقبائل القاطنة به ، ولكن ، اذا ما تغيرت الأحوال ، ومنى بنو عبد الواد بالفشل والهزيمة ، افترق الشمل ، وخلعت المنطقة الشرقية الطاعة ، مما كاد يؤدي الى فراغ سياسي في البلاد ، ينتج عنه حتماً احتلالها من طرف الدولة المرينية .

ويظهر من هذه الحوادث الأخيرة ، أن بني عبد الواد ، تمكنوا من استرجاع نفوذهم السابق في المغرب الأوسط وقطعوا شوطاً واسعاً في استعادة قوتهم السالفة ، أما علاقتهم ببني مرين ، فانها تحولت شيئاً فشيئاً من طور الولاء والتبعية ، الى طور الاستقلال السياسي ، كما يبدو ذلك في موقف أبي ثابت أثناء حوادث تنس ، وامتناعه من إجابة طلب أبي عنان في شأن علي بن راشد وقومه ، ولا شك أن أبا عنان كان يهدف ،

من خلال شفاعته في مغراوة ، الى التدخل في شؤون المغرب الاوسط ، وإثبات نفوذه في المنطقة الشرقية ، وبالتالي الى الحدّ من توسّع بني عبد الواد فيها .

ولذا ، فعندما اتصل أبو عنان بنجر موت علي بن راشد ، غضب لرّد شفاعته ، وعزم على التار لزعيم مغراوة ، فحشد جموعه ، وأخذ يستعدّ لغزو تلمسان ، أما أبو ثابت ، فانه توجه إلى المنطقة الشرقية في (ذي القعدة 752 هـ) ، لجمع الجيوش وتنظيم شؤون الناحية، وفي (ربيع الأول 753 هـ) ، احتل القائد العبد الوادي جابر الخراساني مدينة تدّلس ، الواقعة في حدود المغرب الأوسط الشرقية ، آنذاك ، وألحقها بالملكة العبد الوادية .

استيلا. ابو عنان علو المغرب الاوسط :

وفي تلك الأثناء ، وصل نبا زحف أبي عنان إلى أبي ثابت ، وهو معسكر في منطقة شلف ، فاقلع عنها فوراً ، وأغذ السير نحو عاصمته ، فدخلها في 13 ربيع الثاني ، وتشاور مع مشيخة بني عبد الواد في الأمر ، فوقع اتفاقهم على لقاء بني مرين بسهل أنجاد ، في ناحية وجدة .

ونفض أبو ثابت بالجيش في اتجاه الحدود الغربية ، ثم لحق به أخوه أبو سعيد ، وأقاما معسكرهما بوادي إيسيلي . وحينما حلت جموع أبي عنان بتلك الناحية ، لم يمهّلها أبو ثابت وحمل عليها بجيشه في حين غفلة

فكاد يهزمها لولا ثبات أبي عنان وصموده ، ثم اشتدت المعركة ، وحمي وطيسها ، وانتهت بهزيمة الجيش العبد الوادي ، وقبض ، إثر ذلك ، على الأمير أبي سعيد ، فأمر أبو عنان بقتله (11 جمادى الأولى 753 هـ / يونيو 1352 م) .

أما أبو ثابت ، فانه عاد الى تلمسان ، وغادرها في اتجاه المنطقة الشرقية ، متبوعاً بجيش مريني يرأسه القائد فارس بن ميمون ، وقد آزرته قبيلة سويد ، ولم يحجم أبو ثابت عن لقاءهم في ناحية شلف ، غير أنه هزم ثانية (21 رجب 753 هـ) ، فانصرف الى الجزائر ، ومنها توجه نحو الشرق ، فمر بناحية تدّلس ، حيث انفرد عن فلّ جيشه ، ولم يبق معه الا نفر قليل ، وتنكروا مرتدين أطمارا بالية ، وعندما بلغوا جبل ليزو ، قرب بجاية ، ألقى عليهم القبض ، وأتي بهم الى أميرها أبي عبد الله محمد بن أبي يحيى الحفصي ، وكان هذا الاخير يصانع أبا عنان ، خوفاً من سطوته ، فسلم اليه أبا ثابت ، وأبا زيان ابن أخيه أبي سعيد ، ووزيره يحيى بن داود ، فأمر بقتل أبي ثابت ووزيره ، وسجن أبا زيان .

وبذلك ، انتهى حكم الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت ، وغلب بنو عبد الواد على أمرهم ثانية ، واستولى بنو مرين من جديد على تلمسان وسائر المغرب الاوسط .

ولم يقف أبو عنان عند هذا الحد، بل تابع سيره نحو الشرق، وحصل على تنازل الأمير أبي عبدالله عن بجاية (أواخر 753 هـ) ، ثم بعد خمس سنوات ؛ عزم على مواصلة هجومه على نواحي افريقية واستولى على قسنطينة (أواسط 758 هـ) ثم وصل الأسطول المريني أمام تونس، وتمكن جنوده من احتلالها (رمضان 758 هـ) .

غير أن أبا عنان لم يتمكن ، بدوره من إخضاع عرب جنوب إفريقيا ، فطاردهم ، وتبعهم بجيشه إلى نواحي بسكرة ، بدون جدوى ، وأخيراً ، سئم جنوده الحرب ، لما أصابهم من التعب والعناء ونادوا بالرجوع الى الغرب ، وانفض الكثير منهم من حوله ، فاضطر إلى العودة الى بلاده .

أما السلطان الحفصي أبو اسحاق ، فإنه كان قد غادر تونس قبيل احتلال المرينيين لها ، واتجه صحبة حاجبه ابن تافراجين إلى الجنوب ، واستقر مدة بالجريد، ولما انصرف أبو عنان إلى بلاده ، عاد أبو اسحاق وحاجبه إلى تونس في (ذي القعدة 758 هـ) ، وأخذ أنصاره من عرب إفريقيا يشنون الغارات على الحاميات المرينية ، قصد استرجاع أراضيهم ونفوذهم .

وفي (رمضان 759 هـ) ، بعث أبو عنان أحد وزرائه لإخضاع عرب إفريقيا ، وإقامة السلطة المرينية على سائر القطر ، ولكنه لم يحصل على طائل ، وطارد الدواودة مدة ، فلم يظفر بهم ، ولم يحقق أي انتصار على

الحفصيين ، وبعد أن مهد منطقة أوراس ، قفل راجعاً إلى المغرب الأقصى .

وفاة أبي عنان

وهكذا أخفقت محاولات أبي عنان في الاستيلاء على إفريقية ، ولم تسفر هذه الحملات إلا على إرهاق جيوشه بالآتعاب والعناء ، وحملها على السخط ورفض مواصلة الحرب ، وبعد ذلك بقليل اشتد المرض بأبي عنان ، وتوفي في (27 ذي الحجة 759 هـ / 30 نوفمبر 1358 م) .

وكان لنبل وفاته أثر بليغ في سائر أقطار المغرب ، ولا شك أن فرسان بني عبد الواد تلقوه بارتياح كبير ، وأن أمل إحياء دولتهم من جديد أصبح يراودهم مرة أخرى ، فكان من نصيب أبي حمو موسى الثاني تحقيق هذه الأمنية .

الباب الثاني

الحياة الفكرية

التعليم :

كان التعليم منتشراً في شتى المدن والقرى ، وكان ينحصر ، في مرحلة أولى ، في تعلم الكتابة والقراءة ، وحفظ القرآن ، وذلك في الكتاتيب والزوايا والمساجد ، وفي مرحلة ثانية كان الطلبة يقبلون على النحو واللغة والفقه والأدب ، فينالون بضاعة وافرة تمكنهم من بلوغ مستوى لائق ، ومعرفة دينهم ، والإلمام بالعلوم الأدبية ، ثم كان الذين يريدون التخصص في العلم ، ينتقلون إلى المرحلة الأخيرة ، فيطرقون العلوم الدينية من قراءات وتفسير وحديث وفقه والعلوم العقلية والأدب وغيرها بمزيد من التعمق والتفصيل ، وذلك في المساجد المشهورة ، كالجامع الأعظم ببلسان ، وكان هذا الأخير شبه جامعة على النمط القديم ، مثل القرويين والزيتونة .

وكان طلبة العلم لا يكتفون بما يتلقونه من العلوم في مدينتهم ، بل

يطوفون البلاد ، ويجوبون الأقطار ، للقاء العلماء المشهورين ، وكان الكثير منهم يرتحل الى أقطار المغرب الأخرى والأندلس والشرق ، فتأثرت الحياة الفكرية إلى مدى بعيد بهذا الاحتكاك مع علماء الأقطار الإسلامية الأخرى .

وبعد تفكك دولة الموحدين وتأسيس دول المغرب الثلاث ، رأى أولو الأمر بها أن يؤسسوا مدارس عليا ، على غط المدارس النظامية وغيرها في المشرق ، لتكوين الموظفين في سائر المصالح الإدارية ، وكانت الأسبقية ، في هذا المجال ، للحفصيين ، فقد أمر أبو زكرياء الحفصي (المتوفى سنة 647 هـ) ببناء مدرسة ، وتلا ذلك بناء مدرستين بعده ، بإفريقية ، في القرن السابع ، ثم مدرستين آخرين في القرن الثامن ، وفي المغرب الأقصى بنى أبو يوسف يعقوب المريني مدرسة بفاس ، في أواخر سنة (679 هـ) ، ثم تلتها مدارس أخرى في معظم المدن أثناء القرن الثامن .

أما في المغرب الأوسط ، فأول مدرسة أمتسها بنو عبد الواد ، هي التي أمر ببنائها أبو حمو موسى الأول بتلمسان ، في أول عهده ، وعيّن للتدريس فيها الأخوين ابني الإمام ، ثم بنى ابنه أبو تاشفين الأول المدرسة التاشفينية ، بجانب الجامع الأعظم ، في تلمسان أيضاً ، فكانت أهم مدرسة في المغرب الأوسط ، ثم شيدت ، أيام الاحتلال المريني ، مدرسة بقرية العباد ، خارج تلمسان ، أمر ببنائها السلطان أبو الحسن

المريني ، سنة (748 هـ) ، ثم مدرسة أخرى ، بجانب ضريح الولي الصالح
أبي عبد الله الشاذلي الأشبيلي الملقب بالحلوي ، بناها أبو عنان المريني
حوالي سنة (754 هـ) .

وكان الأمراء يولون عناية خاصة بهذه المعاهد العلمية ، ويجرون
الأرزاق والمنح للأساتذة والطلبة والموظفين بها ، ويعهدون بالتدريس
فيها لأشهر العلماء .

أما طريقة التعليم ، الجاري العمل بها آنذاك ، فكانت طريقة
اللقاء والشرح ، يعهد لأحد الطلبة بقراءة نص من كتاب مشهور في
المادة المدروسة ، ويتولى الأستاذ بشرحه فقرة بعد فقرة ، حسب ما
يتيسر له من غزارة حفظه ، وسعة اطلاعه ، وسداد رأيه ، والطلبة
يقيّدون في كراريسهم ما يسترعي انتباههم من المعلومات .

واعتاد الطلبة ، آنذاك ، أن يدرسوا العلوم المختلفة بواسطة
المختصرات التي اشتهرت في عصرهم ، وكانوا يلجؤون أيضاً إلى مطالعة
الشروح التي ألفت عليها .

العلوم الدينية

لقد تأثرت الحياة الفكرية في المغرب بالنزعات السياسية والمذهبية
التي طبعتها بطابعها ، وغذّت الأجيال المتتالية بما كانت تحملها في طياتها

من قيم وأفكار ، وكانت الحياة الفكرية ، إلى عصر الموحدين ، تكاد تنحصر في العلوم الدينية ، من تفسير وحديث وفقه ، وكان المذهب السني قد طغى على غيره من المذاهب في المغرب ، بعد انفصال بني زيري عن دولة الفاطميين ، وفي أيام المرابطين ، كان المذهب المالكي يحتل أعلى منزلة في المغرب وأصبح الاشتغال بالمسائل الفقهية أهم ما يعنى به العلماء .

ثم قامت دعوة الموحدين ، فكانت مناهضة لهذا الوضع ودعت ، قبل كل شيء ، إلى الاعتناء بالأصول ، أي القرآن والحديث وإلى ترك الفروع وما ألف فيها من الكتب ، مثل المدونة ومختصر ابن الحاجب وغيرها ، وفي الميدان الاعتقادي دعا الموحدون إلى محاربة التجسيم ، وإلى الاعتماد على الحجج العقلية بجانب النصوص الشرعية ، فدخلوا إلى المغرب مذهب الاشاعرة ، وكثر اهتمام المغاربة بالقرآن والحديث والكلام .

غير أن موقف الموحدين من علم الفروع ، الذي كان ينحصر في تفضيل المذهب الظاهري على غيره من مذاهب أهل السنة ، أغضب كثيراً من فقهاء المالكية والأهالي ، ولم يزدحم إلا تعلقاً بالفقه المالكي ، وتشبثاً بعقيدة أهل السنة ، فما بدأت الدولة المومنية تتخبط في الفتن بين رجال الحكم ، وتتلأشى معنوياتها وقيمها ، حتى نبذت تعاليم المهدي ، وعاد الناس إلى الاشتغال بالفروع .

ولا شك أن الإصلاح الديني الذي حاول الموحّدون تطبيقه في المغرب ، قد ترك آثاراً هامّة في تطوّر الحياة الدينية ، ومن نتائجه البارزة للعيان ، ذبوع كتب الغزالي في سائر أقطار المغرب ، وكتب غيره من الأشاعرة كالباقلانيّ والجوينيّ ، وإقبال الناس على دراستها إقبالاً عظيماً ، وبهذا خرجت العلوم الدينية في المغرب ، من طور منابذة الرأي والعقل ، وانتقلت إلى طور عقائديّ أكثر توازناً واعتدالاً ، وأهم المؤلفات التي كانت تستعمل آنذاك ، بالمغرب الأوسط ، في تدريس العلوم الدينية ، هي التالية :

- في التفسير : لامية الشاطبيّ ، وتفسير ابن عطية ، وأنوار التنزيل للبيضاويّ ، والكشاف للزمخشريّ ، والتهديب للبيهقيّ ، والاستذكار للدارميّ .

- في الحديث : الصحاح الست ، وعمدة سير النبيّ لمحمد بن الحاوي ، والروضة للكُبّاريّ ، وأرجوزة الحديقة .

- في الأصول : المستصفى للغزاليّ ، ومختصر ابن الحاجب في الأصول .

- في الفقه المالكي : الموطأ ، والمدونة ، والتمهيد للبراذعيّ .

- في الكلام : الإرشاد للجوينيّ ، ومؤلفات الباقلانيّ ، وغيرها ،

ولنذكر الآن من اشتهر في العلوم الدينية ، بالمغرب الأوسط ، في القرن السابع وفي النصف الأول من القرن الثامن :

(1) - أبو عبدالله محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان التميمي ، ⁽¹⁾ ولد ببلقنت ، من عمل مرسية ، حوالي سنة (540 هـ) ، وأخذ بالأندلس عن القاضي أبي عبدالله بن عبد الرحيم ، وعن ابن بشكوال ، وعن أبي الحجاج يوسف بن ابراهيم العبدي وغيرهم ، ورحل إلى المشرق ، فحج ، وأخذ عن كثير من العلماء ، منهم بالاسكندرية أبو طاهر السلفي ، واختص به ، وعني برواية الحديث والتاريخ ، ثم عاد إلى المغرب ، فقدم إلى فاس ، سنة (594 هـ) ، ثم إلى سبتة ، ثم استقر بتلمسان ، وروى عنه كثيرون منهم أبو الحسن القلعي ، ومحمد بن ابراهيم الغساني ، وابن أبي العيش الخزرجي ، وأبو زيد الفازاني ، وغيرهم ، وله كتب في الوعظ والرقائق ، وتوفي في جمادى الأولى سنة (610 هـ) .

(2) - أبو عبدالله محمد بن عبد الحق بن سليمان اليعفري التلمساني (536 - 625) ⁽²⁾ أخذ عن أشهر علماء عصره بتلمسان ، كأبي الحسن بن أبي قنّون ، وأبي بكر بن عصفور ، وأبي علي الحسن بن الخراز ، ورحل إلى فاس ومراكش وسبتة وإشبيلية ، لطلب العلم ، ثم ولي

(1) عن أبي عبدالله التميمي ، أنظر : نفح الطيب ، ج 2 ، ص 360 ، فهرس الفهارس ، ج 1 ، ص 191 ، جذوة الاقتباس ، ص 171 ، 172 .

(2) عن أبي عبدالله بن عبد الحق ، أنظر : عنوان الدراية ، ص 149 - 152 و 225 ، بغية الرواد ، ج 1 ، ص 45 - 46 ، وفيات ابن قنفذ ، ص 310 .

القضاء بتمسان مرتين ، ودرس بها العلوم الدينية من حديث وفقه وكلام ، وتخرج عليه عدد كبير من العلماء بتمسان ، أمثال أبي زكرياء ابن عصفور ، وابن أبي العيش الخزرجي ، ومحمد بن إبراهيم الغساني ، وغيرهم ، وروي أنه صحب الوليتين أبا مدين شعيب بن الحسين وأبا عبدالله محمد بن يحيى الهواري .

وقد ألف في الحديث كتاب « المختار في الجمع بين المنتقى والاستذكار » ،⁽¹⁾

(3) - أبو العيش محمد بن أبي زيد بن محمد بن أبي العيش الخزرجي التلمساني⁽²⁾ كان إشبيلي الأصل ، روى عن أبي بكر بن يوسف بن مفرج بن سعادة الإشبيلي ، وأبي عبدالله بن عبد الحق وأبي عبدالله التجيبي ، وأبي محمد بن حوط الله ، وكان أديباً شاعراً ، أصولياً ، ألف كتباً في تفسير القرآن ، وفي العقائد ، وأصول الفقه ، ونظم في التصوف والتوحيد وتوفي بتمسان ، وتاريخ وفاته مجهول .

(4) - أبو زكريا يحيى بن أبي بكر محمد بن عصفور العبدي التلمساني روى عن أبي عبدالله بن عبد الحق وغيره ، وأخذ عنه أبو العباس أحمد بن خضر البجائي ، وأبو القاسم بن خضر ، ومحمد بن

(1) يوجد مخطوطاً في خزانة العرويين بفاس .

(2) أنظر : بغية الرواد ، ج 1 ، ص 29 - 31 .

مرزوق ، جد الجد ، وتاريخ وفاته مجهول .

(5) _ ابو اسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي⁽¹⁾ روى عن أبي علي ناصر الدين المشدائي ببجاية ، ورحل إلى المشرق ، فأخذ المنطق والجدل والكلام ، وغير ذلك من العلوم ، عن كثير من علماء تونس والقاهرة ، منهم القرافي ، وشمس الدين الأصبهاني ، وسيف الدين الحنفي ، وابن دقيق العيد ، ثم عاد إلى مسقط رأسه ، ولما استولى يغمراسن على تنس ، استقدمه إلى تلمسان ، وطلب منه أن يقيم فيها لتدريس العلوم الدينية ، فروى عنه كثيرون ، منهم أبو عبدالله بن الحاج العبدري صاحب المدخل ، وابن مرزوق ، جد الجد ، وغيرهما ، وألف شرحاً في عشرة أجزاء على كتاب « تلقين المبتدأ وتذكرة المنتهى » لأبي محمد عبد الوهاب المالكي ، في الفروع ، ولكنه ضاع أثناء الحصار الطويل ، وتوفي أبو إسحاق التنسي بتلمسان ، سنة (680 هـ) .

(6) _ أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن مرزوق بن الحاج التلمساني⁽²⁾ ، قدم جده مرزوق من القيروان ، واستوطن تلمسان ، وفيها ولد أبو عبدالله هذا سنة (629 هـ) ، ودرس بها على أبي زكرياء بن

(1) عن أبي اسحاق للتنسي ، أنظر : البستان ، ص 66 ، 68 ، نيل الابتهاج ، ص 35 - 37 .

(2) عن أبي عبدالله بن مرزوق « جد الجد » أنظر : بغية الرواد ، ج 1 ، ص 48 - 49 ، البستان ، ص 226 .

عصفور ، وأبي إسحاق التنسي وأبي زيد اليزناسني ، ومال إلى الزهد والتبتل ، فاشتهر بين العباد الصالحين ، وعندما توفي في أوائل رجب 681 هـ ، دفن بدار الراحة من الجامع الأعظم ، ثم لما توفي الأمير يغمراسن بن زيان ، دفن بازائه تبركاً بجواره .

(7) _ أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن خلف المري التلمساني (1) ، ولد بتلمسان سنة (609 هـ) ، ورحل لطلب العلم ، ثم استقر بسبته ، وبها توفي سنة (690 هـ) ، وأبو اسحاق هذا هو العالم الفرضي المشهور بأرجوزته في الفرائض ، التي ألفها سنة (630 هـ) ، عندما بلغ من العمر (21 سنة) .

(8) _ أبو الحسن التنسي ، أخو أبي اسحاق ، نال حظوة عند يغمراسن ، بعد وفاة أخيه ، ثم عند أبي سعيد الأول ، ودرس بتلمسان ، ومن تلاميذه الأبي ، ولما حاصر أبو يعقوب المريني تلمسان ، التحق به أبو الحسن التنسي (وكان قد خرج إليه برسالة من صاحب تلمسان المحصورة ، فلم يعد) (2) ومكث في بلاطه مكرماً إلى أن توفي قبيل انتهاء الحصار سنة (706 هـ) ، وشهد السلطان أبو يعقوب المريني جنازته بضريح الولي أبي مدين شعيب ، ولم يشهد جنازة أحد قبله .

(1) انظر الاحاطة ، ج 1 ، ص 181 ، بغية لرواد ، ج 1 ، ص 39

(2) نفح الطيب ، ج 7 ، ص 140 ، عن أبي الحسن التنسي أنظر أيضاً الرحلة المغربية للعبدري ص 16

9 (ابو عبدالله محمد السلاوي ⁽¹⁾) ورد تلمسان فاراً من بني مرين، ولم يكن له حظ كبير من العلم، فانكبَّ على الدرس وأخذ بها عن عمران المشدّالي وغيره، ثم عين للتدريس بالمدرسة التاشفينيّة، في عهد أبي تاشفين الأوّل. وروى عنه المقرّي الكبير وغيره، وتوفي سنة (737 هـ)، قتله المرينيون عند فتحهم لتلمسان .

10 - ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الامام، أكبر الأخوين ابني الإمام ⁽²⁾ وأصلها من برشك، رحلا إلى تونس لطلب العلم، حوالي سنة (700 هـ)، فدرس العلوم الدينية على تلامذة ابن زيتون، وأبي عبد الله بن شعيب الدكالي، ثم عادا إلى المغرب الأوسط وانتحلا مهنة التدريس بالجزائر، ثم بليانة، حيث اتصلا بأحد عمال بني مرين عليها، يدعى الكناني، وذلك أيام الحصار الطويل، ثم، عند انصراف بني مرين إلى بلادهم، عقب مقتل السلطان أبي يعقوب، قدما إلى تلمسان مع الكناني، فقدّمها إلى أبي حمو الأول، وأثنى عليها، فبني لها المدرسة المعروفة باسمها، وأقاما يدرسان بها، إلى أن استولى أبو الحسن على تلمسان، فصحباه، وحضرا معه معركة طريف، ثم عادا

(1) انظر التعريف بابن خلدون، ص 61 - 62

(2) لمن ابني الإمام، انظر التعريف بابن خلدون ص 29 - 32 : بغية الرواد، ج 1، ص 71 - 72، البستان ص 123 - 129، نيل الابتهاج، ص 166 - 168 و 190 - 193 المسند لابن مرزوق، مخطوط الرباط، ص 145 - 147 .

معه إلى تلمسان ، وتوفي أبو زيد بها ، بعد ذلك بقليل ، سنة (743 هـ) .

وكان لأبي زيد ابن الامام منزلة سامية عند أمراء تلمسان ، وعند أبي الحسن المريني ، وحظي برئاسة العلماء في مجلسهم ، وأخذ عنه كثير من العلماء المشهورين أمثال الآبلي ، والمقري الكبير ، وأبي عبدالله الشريف ، وسعيد العقباني ، وابن مرزوق الجد وغيرهم ، ومن تأليفه شرح على مختصر ابن الحاجب في الفروع .

(11) - أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المشدّالي⁽¹⁾ أصله من زواوة بجاية ، ولد سنة (670 هـ) . وأخذ على أبي علي ناصر الدين المشدّالي ببجاية ، وقدم تلمسان أيام أبي تاشفين الأول ، فاشتهر بغزارة علمه ، وبخاصة علم الفروع ، وأخذ عنه أبو عبدالله السلاوي ، وسعيد العقباني وأبو عبدالله الشريف ، وغيرهم من كبار علماء القرن الثامن الهجري ، وتوفي سنة 745 هـ ، حين عودته من مراكش ، أيام إمارة أبي الحسن المريني .

(12) - أبو عبدالله محمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو التميمي⁽²⁾ ، ينتمي إلى أسرة عريقة من أسر تونس ، وكان جده القاضي أبو الحسن

(1) أنظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 72 ، نيل الابتهاج . ص

(2) أنظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 73 - 74 ، البستان ، ص 291 ،

نفخ الطيب ، ج 7 ، ص 159 .

على قد شغل منصب العلامة والإنشاء في إمارة المستنصر الحفصي ،
أخذ أبو عبدالله التميمي بتونس على أبي الطاهر بن سرور وغيره ، ثم
قدم تلمسان ، وعين بها قاضياً ، ودرس العلوم الدينية ، وروى عنه أبو
عبدالله الشريف ، والمقرري الكبير وغيرهما ، ومن تأليفه ترتيب
كتاب اللخمي على المدونة ، في الفروع ، وتوفي سنة (745 هـ) .

(13) - أبو موسى عيسى ابن الامام ، وقد تقدم ذكر نشأته
واستقراره بتلمسان ، والتحاقه ببلاط أبي الحسن المريني ، وبعد وفاة
أخيه أبي زيد ، كانت له الصدارة بين العلماء في مجلس السلطان ،
وصحبه إلى تونس ، وأذن له أبو الحسن في الرجوع إلى تلمسان حين
انتشار الطاعون بإفريقية ، ولكنه توفي بعد عودته بقليل ، سنة
(749 هـ) ، وكان يميل إلى الاشتغال بالتعاليم ، أي العلوم العقلية والطبيعية ،
وتخرج عنه كثير من العلماء ، أشهرهم الآبلي .

(14) - أبو عبدالله محمد بن محمد المقرري (1) ، ولد بتلمسان في
عهد أبي حمو الأول ، ونشأ بها ، ودرس على علمائها ، أمثال الأخوين
ابني الإمام ، وأبي موسى عمران المشدالي ، والقاضي ابن عبد النور ،
وأبي محمد المجاصي ، وأبي عبد الله منصور بن هدية ، وأبي عبد الله

(1) انظر البستان ، ص 154 ، نفح الطيب ، ج 7 ص 129 - 261 ،

نيل الابتهاج ، ص 249 - 255 ، التعريف بابن خلدون ، ص

التميمي ، وابن النجار ، ولما احتل أبو الحسن المريني تلمسان ، سنة (737 هـ) ، قدم معه علماء فاس ، فدرس عليهم المقرئ ، واستفاد من أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي في الحديث والعربية ، ومن السطّي في الفقه والفرائض ، ومن الآبلي في التعاليم ، وغيرهم ، ثم رحل إلى بجاية ، فلقي بها من العلماء أبا عبد الله محمد بن يحيى الباهلي المعروف بابن المسفر وغيره ، ثم سار إلى تونس ، فأخذ بها عن القاضي أبي عبد الله بن عبد السلام ، والفقيه عبد الله بن هارون ، والشيخ الصوفي أبي الحسن المنتصر ، والكاتب أبي عبد الله بن الجيّاب وغيرهم .

وعاد المقرئ إلى تلمسان ، ثم ما لبث أن غادرها في اتجاه المغرب الأقصى ، فأقام مدة بفاس ، ودرس على علمائها ، مثل الشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي ، وأبي العباس المكناسي ، وغيرهما ، ثم رحل إلى أغمت ، وانتقل بعد ذلك إلى شمال البلاد ، ماراً بسبّطة .

ثم عاد إلى تلمسان ، فأقام بها مدة ، ثم توجه نحو المشرق ، فلقي بمصر أبا حيان النحوي ، وشمس الدين الاصبهاني وشمس الدين بن عدلان ، والشيخ الصوفي أبا محمد المنوفي .

ثم قام بفريضة الحج ، (سنة 744 هـ) ، ولقي بمكة أبا عبد الله بن عبد الرحمن التوزري ، وبالمدينة أبا محمد عبد الوهاب الجبرتي ، ثم رحل إلى الشام ، فلقي بدمشق شمس الدين بن قيم الجوزية ، وصدر الدين الغماري المالكي ، وغيرهما ، وببيت المقدس أبا عبد الله بن مثبت ، وشمس الدين بن سالم ، وغيرهما

ورجع قافلا إلى المغرب ، فنزل بسلمجاسة ودرعة ، ثم جاز إلى الأندلس ، فأقام مدة بغرناطة ثم عاد إلى تلمسان ، وصحب أبا عنان ، سنة (749 هـ) ، إلى فاس ، فولي القضاء بها وتابع التدريس بها إلى أن توفي فيها سنة (759 هـ) ، فحمل إلى تلمسان ودفن بها .

ومن أشهر تلامذته لسان الدين بن الخطيب ، وعبد الرحمان بن خلدون ، والشاطبي وابن زمرك وغيرهم ، وقد ترك بعض التأليف : منها : كتاب الحقائق والرقائق ، في التصوف ، وكتاب المحاضرات ، وكتاب عمل من طب لمن حب ، وكتاب القواعد .

وانتشر التصوف في المغرب الأوسط بعد وفاة الولي أبي مدين شعيب بن الحسين (594 هـ) ، ومن اشتهر بتلمسان في هذه الفترة : (15) - أبو علي عمرو بن العباس الحبّاك⁽¹⁾ ، وتوفي سنة 613 هـ .

(16) - أبو عبدالله محمد بن عيسى⁽²⁾ ، من أهل أجادير ، بتلمسان ، وكان يغمراسن يزوره ويلتمس منه الدعاء والبركة ، وتاريخ وفاته مجهول .

(17) - أبو اسحاق الطيار⁽³⁾ ، المتوفى حوالي سنة (700 هـ) .

(1) أنظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 37 .

(2) أنظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 44 .

(3) أنظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 33 .

(18) - ابو محمد عبدالله بن عبد الواحد المجاسي ⁽¹⁾ الملقب بالبكاء ، لكثرة بكائه خشية وتقوى ، رحل إلى الشرق لطلب العلم ، وانتصب بثلمسان للتدريس والوعظ ، ومن تلامذته أبو عبدالله الشريف وابن مرزوق الجدد والمقري الكبير ، وتاريخ وفاته مجهول .

19 - الشيخ ابو العلاء ⁽²⁾ المتوفي في جمادى الأولى (سنة 735) ، ودفن بمسجد الرحمة من العباد .

وقد ظل التصوف منتشراً في المغرب الأوسط ، في القرون التالية فتغلغل في سائر النواحي والأوساط ، وتمسك الكثير من الناس بالقيم التي كان يدعو إليها من زهد في الدنيا ، ورضى ، وتوكل ، وتبتل .

العلوم اللسانية والاجتماعية :

وهي اللغة والنحو والأدب والبلاغة والتاريخ والجغرافيا ، ويكثر ، في ذلك العصر استعمال التأليف التالية ، في هذه العلوم :

الكتاب لسيبويه ، والإيضاح لأبي علي الفارسي ، والجل للزجاجي والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والأمالي للقالبي ، وديوان الحماسة ، والمعلقات السبع ، والأغاني ، وزهر الآداب للحصري ، والعمدة لابن رشيق ،

(1) أنظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 33 - 35 ، نيل الابتهاج ، ص

142 ، نفع الطيب ، ج 7 ، ص 154 - 156 .

(2) - أنظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 36

ومقامات الحريري وديوان المتنبي ، وتأليف المعري ، والجعرافي -
للزهرى ، وكتاب المسالك والممالك للبكري وغيرها .

وكانت العلوم اللسانية تحظى بإقبال كبير ، وخاصة من طرف
الكتّاب والشعراء ، واهتمّ علماء الدين ، أيضاً باللغة ، لما لها من اتصال
وثيق بعلمي القرآن والحديث .

وقد برع في هذه العلوم كثير من الكتّاب والشعراء والأدباء ، نخصّ
بالتذكر أبرزهم :

(20) - أبو بكر محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي
المريسي⁽¹⁾ ، نزيل تلمسان ، نشأ بمريسية ، فقرأ العربية والنحو على أبي
بكر محمد بن محمد المعافري القرشي ، ودرس الأدب على أبي علي الحسن
بن عبد الرحمن الكنانى الرفاء ، والحديث والفقه على أبي بكر محمد بن
محرز الزهرى ، والأصول على أبي المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة
الحزومي ، ولقي غيرهم من العلماء والصلحاء ، ثم ارتحل إلى غرناطة وبها
عين كاتباً للسلطان ، ثم عاد إلى مسقط رأسه إلا أن الفتن كانت ضاربة
أطنابها هناك ، فأجاز البحر ، واستقر بتلمسان ، حيث شغل منصب
كاتب في بلاط يغمراسن إلى أن توفي في عاشوراء سنة (636 هـ) ، وكان
بارع الكتابة ، شاعراً ، أديباً .

(1) أنظر الرحلة المغربية للمبدري ، ص 15 - 16

(21) - أبو عبد الله محمد بن عمر بن خميس التلمساني (1) ، ولد بتلمسان سنة (650 هـ) ، فدرس على علمائها العلوم الدينية واللسانية وغيرها ، وأشرف مدة على ديوان الإنشاء أيام السلطان أبي سعيد الأول بتلمسان ، ثم غادر المدينة أثناء الحصار الطويل ، ونزل سبتة ، يريد التدريس بها ، ولكن مقامه لم يطل بها ، فانتقل إلى غرناطة ، وذلك في أواخر سنة (703 هـ) ، فأقام بها في خدمة الوزير ابن حكيم .

وفي أواخر سنة (708 هـ) ، رغب في العودة إلى تلمسان ، وكانت قد أسترجمت بعض روثقها وازدهارها بعد نجاتها من خطر الحرب ، وانتهاء الحصار الطويل ، ولكنه لم يحقق هذه الأمنية ، وذلك أنه لقي حتفه يوم عيد الفطر (708 هـ) ، بغرناطة ، عندما ثار بعض رجال البلاط على ابن حكيم وقتلوه ، وكان ابن خميس في دار الوزير ، فأصابه أحد الثوار بطعنة رجمه ، فارداه قتيلا .

وابن خميس شاعر مطبوع ، فإق شعراء عصره ونبه ذكره في الآفاق ، وقد أثنى عليه العبدري في رحلته ، وذكر بعض قصائده ، وكذلك يحيى بن خلدون في بغية الرواد ، وغيرها . وقد فقد ديوانه ، غير أن ما ورد من نظمه في كتب الأدب والتاريخ يشكل مادة لا تخلو

(1) عن ابن خميس ، أنظر : التعريف بأبن خلدون ، ص 40 ، بغية

الرواد ، ج 1 ، ص 39 - 44 الرحلة المغربية للعبدري ، ص 11

من أهمية تنبئ عن قيمة ابن خيس وعلو كعبه ، وقد نشر الكثير منها
عبد الوهاب بن منصور الحسني ، تحت عنوان « المنتخب النفيس من
شعر أبي عبد الله بن خيس » . (1)

(22) - أبو عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هدية القرشي
التلمساني (2) من نسل عقبة بن نافع الفهري ، كان فقيهاً أديباً كاتباً ، ذا
بصر بالوثائق ، أنشأ ديوان الرسائل في عهد أبي حمو الأول ، وألف
كتباً قيمة في الأدب والتاريخ ، منها « شرح على قصيدة لابن خيس » ،
« تاريخ تلمسان » ، وعين قاضياً بتلمسان ، ومن تلامذته المقرئ الكبير ،
وأبو البقاء البلوي وتوفي سنة (735 هـ) .

العلوم الطبيعية :

وتشمل التنجيم والرياضيات والطب والكيمياء والهيئة وغيرها ،
وقد عرفت بعض هذه العلوم ازدهاراً كبيراً بتلمسان في هذه الفترة ،
ولا شك أن أهم عوامل هذا الازدهار ما حققته الدولة الزيانية من تقدم في
الميدان الاقتصادي ، وما حدث من وفود كثير من العلماء والصناع
الاندلسيين إلى تلمسان ، واستقرارهم بها ، وما كان قائماً بين أقطار المغرب

(1) - طبع بتلمسان ، سنة 1365 هـ .

(2) أنظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 51 - 52 ، البستان ، ص 225 ،

نفح الطيب ، ج 7 ، ص 158 - 159

الإسلامي من صلات وثيقة ، مما شجع حركة الرحلات العلمية في سائر أنحائه .

ومن أشهر التأليف المستعملة في الرياضيات ، آنذاك ، «تلخيص أعمال الحساب» لابن البناء المراكشي ، وفي الطب ، كتاب «القانون» لابن سينا ، وفي التنجيم ، قصيدة الحباك وأرجوزة أبي إسحاق .

ومن أشهر في التعاليم والعلوم الطبيعية :

(23) أبو عبدالله محمد بن علي بن النجار التلمساني ⁽¹⁾ مراكشي الأصل ولد ونشأ بتلمسان ، وأخذ عن الآبلي ثم رحل الى المغرب الأقصى ، فدرس على أبي عبدالله محمد بن هلال ، شارح «المجسطي» ، بسبته ، ثم أخذ بمراكش عن أبي العباس ابن البناء ، فنبغ في العلوم العقلية والتعاليم وعاد إلى تلمسان ، فدرس بها ، ثم التحق ببلاط أبي الحسن المريني ، أيام احتلاله للمغرب الأوسط ، وصحبه إلى إفريقية وتوفي بتونس سنة (749هـ) ، بالطاعون ، ومن تلامذته أبو عبد الله الشريف ، والمقري الكبير ، وأبو الحسن بن الفحام صاحب المنجانة .

(24) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الأبهلي

(1) انظر بغية الرواد ، ج 1 ص 55 ، التعريف بابن خلدون ، ص 48

نفح الطيب ، ج 7 ، ص 160 - 162

التلمساني⁽¹⁾ ، وأصل أجداده من آبلّة بالأندلس ، ولد بتلمسان سنة (681 هـ) ، ونشأ بها في كفالة جده القاضي ابن غلبون ، فشب على حب العلم ، ودرس على أبي الحسن التنسي ، وحقق التعاليم ، ثم كان الحصار الطويل ، فغادر المدينة اثناء ذلك ، قاصداً المشرق ، حيث أدى فريضة الحج ، ولقي كثيراً من العلماء الاعلام ، ثم عاد الى بلاده ، واخذ عن أبي موسى ابن الامام علماً غزيراً ، ثم استعلمه أبو حمو الأول في ضبط الجباية ، ولم يستطع الآبلي هذه الوظيفة ، فغادر تلمسان ، ورحل الى المغرب الأقصى واتصل بأبي العباس بن البناء ، براكش ، وأخذ عنه ، ثم التحق بشيخ قبيلة هسكورة ، علي بن محمد بن تروميت ، وأقام عنده مدة ، قضاها في التدريس ، ثم استقر معه بفاس الجديد ، واتصل بأبي الحسن المريني ، فألحقه بمجلس العلماء ببلاطه ، وصحب الآبلي السلطان المريني مع غيره من العلماء ، في حركته الى الأندلس ، وحضر معركة طريف ، ثم انتقل معه إلى إفريقية سنة (748 هـ) ، ومكث بتونس إلى إن استدعاه أبو عنان ، بعد احتلاله للمغرب الأوسط ، سنة (753 هـ) فغادر الآبلي تونس ، وحل مدة شهر ببجاية ثم وفد على أبي عنان بتلمسان

(١) انظر المسند لابن مرزوق ، مخطوط الرباط ، ص 147 ، بغية الرواد

ج 1 ، ص 57 ، التعريف بأبن خلدون ، ص 21 - 23 و 33

39 ، نفع الطيب ، ج 7 ، ص 167 - 171 ،

N. Nassar, Le maitre d'Ibn KhaIdun: al - ābili, in Studia Islamica, 1964 P P 103 - 115 .

ونال عنده حظوة كبرى والتحق بمجلسه العلمي ، ثم سار معه الى المغرب الاقصى ، وتابع تعليمه بفاس الى ان توفي بها (757 هـ) في عهد ابي عنان .
ويعد الآبلي من أنبغ رجال عصره في العلوم الطبيعية ، وقد ساهم مساهمة كبرى في تكوين جيل من العلماء الكبار في المغرب ، فممن تتلمذ له عبد الرحمن بن خلدون وأخوه يحيى ، والمقري الكبير ، وأبو عبد الله الشريف ، وابن مرزوق الجد ، وسعيد العقباني وابن الصباغ المكناسي ، وغيرهم .

* * *

وهكذا ، كانت هذه الفترة ، بالنسبة للحركة الفكرية في المغرب الأوسط ، مرحلة نمو وإشعاع ، نبغ فيها عدد وافر من العلماء في سائر الميادين ، وذاع صيتهم ، وشغلوا مناصب سامية في سائر أقطار المغرب ، من قضاء وتدریس وكتابة وغير ذلك ، ونشطت العلوم كلها من عقلية وعقلية ، فأحرزت البلاد على تقدم ملحوظ في هذه المجالات .

ولعل أكبر عامل لهذا التطور الفكري الهام بالمغرب الأوسط ، هو ما حدث فيه من تأسيس الدولة العبد الوادية التي جمعت شتات الامارات الصغيرة القائمة به آنذاك ، وكوّنت امارة قوية ، استطاعت أن تبعث الحركة الفكرية ، وتنهض بالعلوم وتشجّع طلبة العلم والقائمين بتدريسه ، وتتيح للشعراء والأدباء الفرص التي تمكنهم من إثراء الإنتاج الأدبي .

كما أن لهجرة الأندلسيين ، أثناء عصر الموحدين وبعده ، إلى تلمسان وغيرها من مدن المغرب الأوسط ، أثراً هاماً في هذا التطور ، فورثت قسماً وافراً من الحضارة الأندلسية ، ونهلت من معينها الزاخر .

وتتجلى هذه الظاهرة في سائر مجالات الحضارة ، من علوم وفنون وصناعات ، وعمران .

الباب الثالث

الفنون والعمران

بدأت الحركة الفنية تعرف نشاطاً هاماً في عهد المرابطين وذلك عندما أسس يوسف بن تاشفين مدينة تاجرار (سنة 474 هـ) ، بإزاء المدينة القديمة أجادير ، فأصبحت تلمسان من أهم مدن المغرب الأوسط ونشط العمران ، وشيّد وجهاء لمتونة وأمرأؤهم المباني الجميلة الضخمة.

وفي عهد الموحدّين ، أصبحت تلمسان مقرّ ولاية المغرب الأوسط وعني هؤلاء بتحصينها فأقاموا أسوارها ، وشيّدوا المنازل الضخمة والقصور ، وخصوصاً أثناء ثورة بني غانية التي قامت في بداية عهد أبي يعقوب المنصور، وشغلت الدولة الموحدية طيلة نصف قرن ، مما أدّى إلى تخريب مناطق كثيرة ، ومدن عديدة بإفريقية والمغرب الأوسط ، وقد سلمت تلمسان من خطر بني غانية ، بفضل مناعتها ، فتواصلت حركة العمران بها ، ولجأ إليها كثير من أهالي المدن الأخرى ، التي خربها بنو غانية ، فكثرت الصناعات والتجارة بها ، وعظم شأنها .

ولما أسس بنو عبد الواد إمارتهم ، وأصبحت تلمسان إحدى عواصم المغرب ، قطعت أشواطاً بعيدة في ميدان الفنون والعمارات وقصدها كثير من أرباب الصنائع من مختلف مدن المغرب ، ومن الأندلس فبلغت درجة سامية من الرقي والازدهار .

وكان اتصال حضارة المغرب بحضارة الأندلس أهم عامل في تنشيط الحركة الفنية بتلمسان وغيرها من المدن ، وكان سكان المدن يميلون إلى الاقتداء بالآندلسيين في شتى المجالات ، من موسيقى وغناء وشعر وكتابة فنية ، وفي مختلف الصناعات ، كصناعة النحاس ، ونحت الرخام ، ونقش الخشب ، وغير ذلك .

ولا شك أن أهم ما ظهر فيه تأثير الأندلس ، الفن المعماري ، وما حققه الأمراء العبد الواديون من الإنجازات ، في هذا المجال .

فكان من حظ يغمراسن في ذلك ، أن دعم تحصين تلمسان ببناء باب كشوطة ، وما يليها من أبراج وأسوار ، وشيد المشوار ، وجعله مقر الملوك الجديد ، وما يؤسف له أن هذه المباني قد خربت ، ولم ينج منها إلا قليل من الأسوار .

وبنى يغمراسن مئذنة الجامع الأعظم بتاجرات ، ومئذنة جامع أجادير ، ولا تزال الصومعتان ، إلى عهدنا هذا ، تشهدان على قوة الفن العبد الوادي ورشاقته ، وتناسب الأجزاء فيه وتناسقها ، في عهد يغمراسن .

ومن آثار أبي سعيد عثمان بن يغمراسن ، مسجد أبي الحسن ، وهو تحفة رائعة ، لا تزال تفيض رقة وجمالاً ، وتشكل نموذجاً للفن العبد الوادي في عصر عزة هذه الدولة وقوتها .

أما ابنه أبو حمو موسى ، فإنه كان مقبلاً على تشجيع العلوم والعلماء ، وهو الذي بنى أول مدرسة في المغرب الأوسط ، بتلمسان ، وعين للتدريس فيها الأخوين ابني الإمام ، فسميت باسمهما ، وقد لقيت مصير غيرها من المدارس العبد الوادية فلم يبق لها أثر ، غير أن المسجد الصغير الذي شيد بجانبها لا يزال قائماً .

ومن آثار أبي حمو الأول ، التي لا تزال ماثلة للعيان ، المسجد الواقع داخل المشوار ، وهو كذلك يحمّل طابع الفن العبد الوادي المتأثر بالفن الأندلسي ، إلا أن قاعة الصلاة قد نالها بعض الأذى ، فذهب الكثير من زخارفها .

وكان أبو حمو الأول يشترط من القبائل الخاضعة لسلطته أن تقدم له رهائن من أبناء أشياخها وبناتهم ، فلما كثر عدد الرهائن اضطر إلى إسكانهم في قصبة بناها لأجلهم ، في مكان يصعب تحديده ، ولعله كان يقع غربي المشوار ، في اتجاه حي المطمر .

وقد وصف عبد الرحمان بن خلدون هذه القصبة بقوله : « وهي الغور الفسيحة الخطية ، تماثل بعض الأمصار العظيمة ، اتخذها للرهن ، وكان يبالغ في ذلك ، حتى كان يأخذ الرهن المتعددة من البطن الواحد

والفخذ الواحد والرهط ، وتجاوز ذلك إلى أهل الأمصار والثغور من المشيخة والسوقة ، فملا تلك القصبة بأبنائهم وإخوانهم ، وأذن لهم في ابتناء المنازل واتخاذ النساء ، واختط لهم المساجد ، فجمعوا بها لصلاة الجمعة ، ونفقت بها الأسواق والصنائع ، وكان حال هذه البنية من أغرب ما حكى في العصور عن سجن ، ⁽¹⁾ .

وأغرب من ذلك أن هذه القصبة كلها اندثرت ، واننا نجعل حتى المكان الذي كانت قائمة به ، ومساحتها .

ويعتبر عهد أبي تاشفين الأول عصر ازدهار العمران بتلمسان وبلوغة أوج عظمته ورواقه ، وكان هذا الأمير يميل إلى اللهو واللذات ، واغتنام نعيم الدنيا ومسراتها ، وكان يمتاز عن أسلافه بذوق فني مرهف ، وتفهم لجمال الأشكال والصور ، « مع صدقه بالاختراع ، وبصره بالتشكيل والابتداع » ⁽²⁾ .

وقد ذكر التنسي ، في نظم الدر والعقيان ، أن أبا تاشفين الأول « كان عنده شجرة من فضة ، على أغصانها جميع أصناف الطيور الناطقة ، وأعلاها صقر ، فإذا استعمل المنفاخ في أصل الشجرة ، وبلغ

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 215 .

(2) بغية الرواد ، ج 1 ، ص 134 .

الريح مواضع الطيور صوّتت بمنطقها المعلوم لمشايعها ، فإذا وصل الريح موضع الصقر صوّت فانقطع صوت تلك الطيور كلها ،⁽¹⁾ .

وكان أبو تاشفين هذا ، ولوعاً ببناء القصور الأنيقة ، واغتراس الرياض والمتنزهات ، واشتهر ، من بين قصوره ثلاثة هي دار الملك ، ودار السرور ، وأبو فهر ، ولم يشر المؤرخون إلى موقعها ، وقد خربها المرينيون عندما أغار أبو العباس أحمد على تلمسان ، سنة (786 هـ) ، فلم يصل إلينا شيء من آثارها ، وقد ذكر عبد الرحمان بن خلدون جمال هذه القصور فقال : « وكانت لا يعبر عن حسنها »⁽²⁾ ، وكذلك أخوه يحيى ذكر أنها « لم تكن قبله لملك »⁽³⁾ ، وكان تشييدها على يد البنائين والصناع الأندلسيين ، الذين جاؤوا إلى تلمسان بطلب قدّمه أبو تاشفين إلى السلطان أبي الوليد ، ملك غرناطة .

ثم إن أبا تاشفين الأول أمر ببناء مدرسة كبرى بجانب الجامع الأكبر ، بتلمسان ، سميت بعد ذلك باسمه ، وأودع فيها أجمل نماذج الزخارف التي احتوت عليها قصوره ، فكانت خدمة ثمينة للعلم والثقافة ، وكانت لا تزال قائمة عند احتلال الفرنسيين للقطر الجزائري ،

(1) نظم الدر المعيان للتنسي مخطوط المكتبة الوطنية بباريس ، رقم

1875 « قسم عربي ، ورقة 56 و .

(2) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 297 .

(3) بغية الرواد ، ج 1 ، ص 134 .

غير أنها هدمت عندما قام الفرنسيون بتنفيذ مشروع معماري يهدف إلى توسيع الطرق ، فبنيت البلدية الحالية ، وأنشئت بجانبها ساحة كبرى ، مكان المدرسة التاشفينية ، سنة (1875 م) ، وقد وزعت بعض زخارفها الجميلة على بعض المتاحف الجزائرية والفرنسية .

هذا ، ويرجع حفر الصهريح الكبير ، بتلمسان ، إلى عهد أبي تاشفين ، وتبلغ مسافته (200 متر) طولاً ومائة متر عرضاً ، وثلاثة أمتار عمقاً ، والظاهر أنه كان محاطاً بالمتنزهات ، وأنه كان معداً للفرجة ، وكذلك لريّ البساتين الواقعة شمال المدينة ، وكان الماء يأتيه من المرتفعات التي تطل على تلمسان من الجنوب ، وهو من الآثار التي لا تزال ماثلة للعيان ، غير أنه ليس فيه ماء .

فكان كل هذا النشاط المعماري مما جعل الدولة العبد الوادية تنتقل من طور البداوة ، الذي كانت تكتسي طابعه قبل أبي تاشفين الأول ، إلى طور التحضر⁽¹⁾ .

ولم يكن الاحتلال المريني أقل إنجازات في الميدان المعماري ، وكان أبو يعقوب يوسف قد اختطّ مدينة المنصورة أيام الحصار الطويل ، وبني قصرأ فيها ، وأحاطها بالأسوار وشرع في بناء مسجدها الأعظم ،

(1) انظر بنية الرواد ، ج 1 ، ص 133 ، كتاب العبر ، ج 7 ، ص 297 .

إلا أن الوفاة منعتة من مواصلة الأعمال، ولم يشأ الأمراء العبد الواديون، بعده ، أن يتمّوا ما بدأه عدوهم من المشاريع المعمارية في المنصورة.

ولما زحف أبو الحسن المريني الى تلمسان ، وحاصرها مدة سنتين قبل احتلالها ، استقر بالمنصورة ، فاصلح عمارتها ، وبنى قصر النصر فيها ، سنة (744 هـ) ، واتخذ المدينة الجديدة مقراً لآمارته سنوات عديدة ، عني أثناءها بمتابعة بناء مسجدها الأعظم، ولم يدّخر وسعاً في إتقانه، واستعمال المواد النفيسة ، من رخام وغيره .

وقد حدثنا الخطيب ابن مرزق في كتابه « المسند الحسن » عن مؤذنته الشهيرة ، فقال : « ولا شك أن صومعته لا تلحق بها صومعة في مشارق الأرض ومغاريها ، صعدتها غير مرة مع الأمير أبي علي الناصر ، وهو ، رحمة الله عليه ، على فرسه ، وأنا على بغلتي ، من أسفلها إلى أعلاها ، كأنا في وطاء من الأرض ، وكانت على الباب الجوفي منه ولها ممرّان يطلع فيها إلى أعلاها ، وكانت محكمة البناء والنجارة في الأحجار بصناعة مختلفة من الإحكاء في كل جانب ، ورأيت العمود الذي يركب فيه التفافيح ، وهو من حديد يشبه أن يكون صارياً ، وأما الثريا ، فكان عملها على يدي ، وأنا الذي رسمت تاريخها في أسفلها بخطي على ما هي عليه الآن في جامع تلمسان ، ⁽¹⁾ ، وقد منيت هذه المؤذنة بتخريب

(1) انظر المسند لابن مرزوق ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ، رقم ق 111 ، ص 268 - 269 .

أعلاها وسقوط أحد شقيها ، فذالها من صروف الدهر أكثر مما نال
مثيلتها بجامع حسان ، الذي بناه يعقوب المنصور الموحي بالرباط ،
وعلو صومعة المنصورة ، على صورتها الحالية ، (38 متراً) .

وإذا كانت هذه الآثار الآن مجرد أطلال ، إذ لم يبق من مدينة
المنصورة إلا بعض أجزاء السور وبعض أعمدة المسجد ، وما لا يزال
قائماً من المئذنة ، فإن هناك آثار أخرى ، لأبي الحسن المبريني ، لا تزال
محتفظة بجمالها ورواقها ، وهي التي تقع خارج تلمسان ، بقرية العباد ،
حول ضريح الولي الصالح أبي مدين شعيب بن الحسين (المتوفى سنة
594 هـ) ، وأجل هذه الآثار المسجد المحاذي للضريح ، وقد أشرف
على بنائه عم ابن مرزوق الجد ، وصفه في كتابه « المسند الحسن » ، فذكر
أنه « اشتمل على الوضع الغريب ، وهو أن سقفه كلها أشكال منضبطة
بخواتم وصناعات نجارة على جهة تخالف الجهة الأخرى في الوضع ، قد
رقت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة ، فلا يختلج في النفس شك ،
ولا يعرض لها وهم أنها أشكال منجورة منقوشة ، وهي كلها مبنية
إحكاماً بالآجر والفضة ، واشتمل على المنبر العجيب الشكل المؤلف من
الصندل والعاج والأبنوس المذهب وأما الباب الجوفي الذي ينفتح
على المدرج الذي ينزل فيه إلى قبر الشيخ رضي الله عنه وإلى الشارع ،
وهو باب النحاس المشتمل على مصراعين ، كل مصراع منهما مذهب
بالنحاس المحرق المنقوش بالخواتم المستوفاة المشتركة العمل ، وتخريجه على

أشكال من نحاس ملوثة ، فهو من غريب ما يتحدث به الأسفار ...⁽¹⁾ ولا يزال هذا المسجد ، الذي بني سنة (739 هـ) ، كما وصفه ابن مرزوق ، بهجة للناظرين ، وآية من الفن المغربي الأندلسي ، بما في ذلك الصحن والمحراب والمئذنة .

هذا وقد أضاف أبو الحسن المريني ، إلى جانب المسجد ، في سنة (747 هـ) ، مدرسة تشتمل على صحن وقاعة للدرس ، جميلة الزخارف ، وغرف كثيرة للطلبة ، وقد قام بعض ولاية تلمسان ، في عهد الأتراك ، بترميم ما سقط من زخارفها ، وهذه المدرسة تحتاج الآن إلى إصلاحات هامة لتستعيد رونقها القديم .

وبعد ذلك بسنة ، كانت حركة أبي الحسن إلى إفريقية ، وتلا ذلك أحداث خطيرة ، أودت بعرشه ، وجعلت الحكم في المغرب الأقصى بيد ابنه أبي عنان ، وفي المغرب الأوسط ، للأميرين الأخوين أبي سعيد وأبي ثابت ، من بني عبد الواد .

ثم كان استيلاء أبي عنان على تلمسان ، واستقراره بها بعض السنوات قام أثناءها بتشييد بعض الآثار العمرانية ، وأهم هذه الآثار تقع أيضاً خارج تلمسان من الجهة الشمالية ، حول ضريح الولي الصالح أبي عبد الله الشونزي الاشبيلي ، الملقب بالخلوي ، والمتوفى بتلمسان في أوائل القرن السابع الهجري ، وكانت تشمل مسجداً ومدرسة وزاوية ، ولم

(1) نفسه ، ص 270 - 271 .

يبقى منها اليوم إلا المسجد ، الذي بني سنة (754 هـ ،) ويمتاز برشاقة بابه ، وإتقان نقشه ، ورغم زوال بعض زخارفه ، فإن مسجد سيدي الحلوي يعدّ من أهم آثار تلمسان التاريخية ، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد أن الأعمدة وكثيراً من الموادّ جلبت من بقايا المنصورة ، التي خربت أيام الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت ، فأصبحت كلها أطلالاً جائئة ، يخيم عليها السكون والحزن ، كأنها مقبرة عظيمة ، أو مدينة قضى عليها زلزال أو انفجار بركان .

وهكذا ، كانت تلمسان ، عندما قام أبو حمو الثاني بمركته الموفقة لإحياء الدولة الزيانية ، كثيرة العمران ، ذات حضارة راقية ، وقد نشطت فيها التجارة ومختلف الصناعات ، وزها فيها الفن المعماري ونفقت العلوم ، فكانت تنافس أمصار المغرب الأخرى في شتى الميادين الحضارية والاقتصادية ، وتضاهي عواصم الدول الأخرى بما اشتملت عليه من آثار وعلماء وأدباء ، وأمن ورخاء .

القسم الثاني

حياة أبي حمّو الثاني وآثاره

الباب الأول

حياة أبي حمو موسى العبد الوادي

نسبه :

يتصل نسب أبي حمو موسى الثاني بمؤسس الدولة العبد الوادية يغمراسن ابن زيّان ، فهو أبو حمو موسى بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الرحمان ابن يحيى بن يغمراسن ، ولم تكن الإمارة في أحد من أسلافه بعد يغمراسن .

أما يحيى ، فكان مولده سنة (639 هـ ،) مثل أخيه أبي سعيد عثمان وعيّنّه أبوه على سجلهاسة ، لما استولى عليها سنة (661 أو 662 هـ ،) ثم عقد له على ولاية العهد ، بعد مقتل ابنه الأكبر أبي حفص عمر في معركة تلاغ سنة (666 هـ) ، غير أن يحيى لم يعيش طويلا بعد ذلك ، وتوفي حوالي سنة (669 هـ) ⁽¹⁾ ، بتلمسان ، فانتقلت ولاية العهد إلى أخيه

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 175 - 176 و 238 ، بغية الرواد

ج 2 ، ص 13 - 14

أبي سعيد عثمان ، وأصبحت الإمارة بعد ذلك في نسل هذا الأخير ، إلى أن استولى أبو الحسن المريني على تلمسان سنة (737 هـ / 1337 م) .

وأما عبد الرحمان ، فإنه ولد بسجلماسة ، أثناء ولاية أبيه عليها ، ونشأ بها ، ثم بتلمسان ، وكان فارساً شجاعاً اشتهر بين أبناء عشيرته ، حتى أن عمه أبا سعيد نخوف منه على عرشه ، فأجازه إلى الأندلس بأولاده سنة (694 هـ) ، فأقام بها سنوات عديدة ، ثم انتقل إلى بلاط السلطان المريني بفاس ، فمكث هناك قليلاً ، ثم وفد على ابن عمه السلطان أبي حمو الأول ابن أبي سعيد ، بتلمسان ، سنة (712 هـ) ، وفي سنة (713 هـ) أجازه أبو حمو إلى الأندلس .

واستقر بعد ذلك بغرناطة ، في بلاط السلطان أبي الوليد بن فرج ، من بني الأحمر ، ولما شبت الحرب بين هذا وقريبه أبي الجيوش نصر بن محمد ، كان عبد الرحمن ضمن الجيش الذي بعثه ابن فرج لمضايقة منافسه بوادي آش ، وتوفي في الهزيمة الكبرى التي مني بها جيش غرناطة ، بوادي فرتونة ، قرب وادي آش (6 جمادى الأولى 716 هـ / 17 يولية 1316 م) (1) .

وأما أبو يعقوب يوسف والد أبي حمو الثاني ، فإنه كان أكبر

(1) انظر أعمال الأعلام لابن الخطيب ، ص 339 - 340 ، كتاب

العبر ، ج 7 ، ص 238 - 239 ، بغية الرواد ، ج 2 ، ص

إخوته ، ولد سنة (689 هـ) ، وتبع أباه مثل إخوته أبي سعيد وأبي ثابت وإبراهيم ، في سائر تنقلاته عبر المغرب والأندلس ، إلى أن لقي حتفه في معركة وادي فرتونة ، ثم أقام الإخوة الأربعة بالأندلس إلى سنة (723 هـ) ، حيث استدعاهم أبو تاشفين الأول إلى تلمسان ، وأكرم مشواهم ، وأعلى رتبهم بين أمراء بني عبد الواد . وبقيت حالهم على هذا الشكل إلى أن استولى السلطان أبو الحسن المريني على تلمسان ، فارغموا على الاستقرار بفاس ، ومكث بها أبو يعقوب إلى بداية إمارة أخويه أبي سعيد وأبي ثابت ، فعاد إلى وطنه .

وعندئذ ، لم يستقر بتلمسان ، بل فضل أن يقيم بمدينة ندرومة ، الواقعة شمال غربي تلمسان ، وانتهت هذه الإقامة بسقوط إمارة أخويه ، فنقل مع الكثير من بني عبد الواد إلى فاس ، حيث عاش إلى أن قامت دولة ابنه أبي حمو الثاني .

نهائه بطلمسان :

وهنا يصل بنا الحديث إلى الغرض من دراستنا هذه ، وهو ذكر حياة أبي حمو موسى الثاني وآثاره ، ونشرع أولاً بالتعرض إلى نشأته ، وذكر الفترة التي سبقت إمارته .

ولد أبو حمو بالأندلس ، في مدينة غرناطة ، عاصمة بني الأحمر ، سنة (723 هـ) ، وفي تلك السنة عاد به أبوه إلى تلمسان ، باستدعاء من السلطان أبي تاشفين الأول .

ونشأ أبو حمّو في تلمسان ، مثل غيره من أبناء الأمراء ، فعرف حياة البلاط، وما تشتمل عليه من أبهة وترف ، وحفلات ، ودرس على أشهر العلماء ، فنال من العلم حظاً وافراً مكنّه من تحصيل مبادئ العربية والعلوم الدينيّة ، ولم نجد ، في المصادر التي طالعناها ، إشارات حول أשיاخ أبي حمو الثاني وأسماء من تتلمذ عليهم من العلماء .

إقامته بفاس :

ثم كان الإستيلاء المريني على تلمسان ، سنة (737 هـ) ، عندما بلغ أبو حمو (14) عاماً ، فعرف آلام الاغتراب ، بفاس، صحبة أبيه وكثير من أبناء قبيلته ؛ وقضى قسطاً وافراً من شبابه هناك ، وقد ذكر ابن الأحمر في كتابه « روضة النسرين » أنه أدرك أبا حمو بفاس ، « وهو يسكن بها في عين أصليتن ، يتعيّش بردّ الفك للمفكوكين ، وذلك في دولة المولى أبي الحسن المريني » (1) .

وقد يكون ذلك في آخر مقام أبي حمّو ، أي حوالي سنة (745 إلى 750 هـ) ، أما عن إقامة أبي حمّو ، منذ (737 هـ) ، فلنستعرف شيئاً وقد يكون وجه نشاطه ، في هذه المدة لطلب العلم ، ولا سيما أن فاساً كانت من أهم مراكز الثقافة الإسلامية ، آنذاك ،

(1) روضة النسرين ، ص 58 .

وكان فيها الكثير من العلماء المشهورين ومن بينهم الآبلي ، الذي سبق ذكره فيما قبل .

ولسنا نشك في أهمية إقامة أبي حمّو بفاس ، بالنسبة لتكوينه العلمي والأدبي ، وذلك أنها تناسب فترة تحصيل العلوم في حياته ، إذ تمتد من سن الرابعة عشرة إلى السابعة والعشرين ، وإذا راعينا مستوى أبي حمّو العالي في الفنون الأدبية ، ودرسنا إنتاجه النثري والشعري ، تأكد لدينا أنه لم ينقطع عن الاشتغال بطلب العلم ومطالعة كتب الحكمة والأخلاق والسياسة ، والعلوم الدينية ، كما يظهر ذلك من خلال آثاره الأدبية .

عمده الو وطنه :

لا تذكر المصادر تاريخ مغادرة أبي حمّو لفاس ، ورجوعه إلى وطنه ، والظاهر أنه قدم منها إلى تلمسان مع أبيه وابن عمه أبي زيان ابن أبي سعيد ، في أوائل سنة (750 هـ) .

واستقر أبو حمّو مع أبيه بندرومة ، وعاش هناك بعيداً عن كل نشاط سياسي ، مقتفياً سيرة أبيه « في السكون والدعة » ، وتزوج في هذه الأثناء ، فولد له ابن بندرومة ، سنة (752 هـ) سمّاه أبا تاشفين ، وهو أكبر أبنائه .

وقد يتساءل القارئ عن سبب استقرار أبي حمّو ووالده

بندرومة ، وتركها العاصمة وقصورها ومنازلها الرفيعة ومعاهدها العلمية ، أما عبد الرحمان ابن خلدون وأخوه يحيى ، فإنها ذكرا أن ذلك كان لرغبة والده أبي يعقوب في الزهد عن الدنيا وملذاتها .

وقد تكون تلك العزلة لدافع سياسي ، أغضبه المؤرخان المذكوران . وذلك أن أبا يعقوب كان أكبر إخوته ، وكانت التقاليد المعمول بها تعيّن للإمارة الأكبر سناً ، فطبيعي أن يحذره أخواه ، أبو سعيد وأبو ثابت على عرشها ، كما فعل أبو سعيد الأول وابنه أبو حمّو ، مع أبيهما عبد الرحمان ، فأجازاه إلى الأندلس مرتين .

فانقطاع أبي يعقوب وابنه أبي حمّو إلى العبادة والزهد ببندرومة ، كان يهدف ، في نظرنا ، قبل كل شيء ، إلى الإعراب عن خلوّ ذهنهما من كل طموح سياسي ، مما يطمئن أبا سعيد وأبا ثابت ، ويجعل حدّاً لتخوّفهما ، هذا ، ولسنا نشك في صدق ميول أبي يعقوب وأبي حمّو إلى العبادة والزهد ، وإن كان قد ظهر منهما ، بعد مقتل أبي سعيد وأبي ثابت ، اهتمام كبير بالشؤون الدنيوية والسياسية ، فأبو يعقوب مثلاً ، قاد الجيوش وحكم المنطقة الشرقية ، في السنوات الأولى من إمارة ابنه أبي حمّو ، مما يدلّ على أن تلك العزلة كانت مؤقتة ، ولدوافع سياسية ، قبل كل شيء ، هذا ، ولم نجد في المصادر التاريخية ما يثبت أن أبا يعقوب وابنه قد أجبرا على الإقامة ببندرومة ، مع أن ذلك مما يحتمل وقوعه ، وكان تغريب الأمراء ، من الأساليب الجاري العمل

بها ، قصد تفادي ما يمكن حدوثه من جانبهم من فتن ومؤامرات ، ولا يعقل أن يغادر أحدهم عاصمة الدولة ، بما فيها من قصور ومدارس ومساجد ، وحياء رغبة للانزواء بعيداً عنها في قرية أو مدينة صغيرة، من دون سبب قاهر .

ثم لحقت بني عبد الواد هزيمة أنجاد ، ولم نعثر في المصادر التاريخية على ذكر مشاركة أبي حمّو في هذه المعركة ، وكذلك في وقعة شلف، بعدها بين الجيش المريني وفلول الجيش العبد الوادي ، ويظهر أن انزواءه مع أبيه بندرومة لم يسمح له بالانخراط في صفوف المقاتلين العبد الواديين وخوض هاتين المعركتين .

وقد نتج عن انتصار بني مرين ، أن هرع من لم يقع في أسرهم من بني عبد الواد ، إلى مختلف النواحي ، ملتجئين النجاة ، فمنهم من رحل إلى الأندلس ، أو إلى أفريقية ، ومنهم من التجأ إلى المناطق الجنوبية مما يلي الصحراء .

أما أبو حمّو ، فإنه توجه مشرقاً نحو الأراضي الحفصية ، وقد يكون التحقق بأبي ثابت بعد وقعة شلف ⁽¹⁾ ، وتبعه إلى الجزائر ، ثم إلى ناحية بجاية ، حيث ألقى القبض على أبي ثابت ورفاقه .

(1) أنظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 17 .

ووجد بين ما ورد في المصادر التاريخية حول حادث القبض على أبي ثابت ورفاقه ، بعض الاختلاف ، فيما يخص دور أبي حمو أثناء ذلك .

أما يحيى بن خلدون ، فإنه ذكر الحادث بشيء من الاسهاب ، وجعل فيه لآبي حمو الدور الأكبر ، فقال : « فلما عثر عليهم بليزثو ، من أحواز بجاية ، وجيء بهم في أسحال التنكير ، قيل من السلطان أبو ثابت منكم ، فابتدر هذا الخليفة أيده الله (أبو حمو) ، مؤثراً نجاة صنو أبيه ، وباذلاً لفائدته مهجته ، وسامحاً دونه من حياته بما لم يسمح بمثله أحد قبله ، وقال أنا ، فاعتوره القوم محمولاً وصاحباه يتلوانه راجلين ، وهو يقول : اتركوهما ، فقد ظفرتم مني بحاجتكم إلى أن وصلوا معسكر فارج ، علج صاحب بجاية يومئذ ، بخميس تيكلات ، وكان به من عرف السلطان أبا ثابت رحمه الله ، فانتقلت أيدي الظنة إليه ، ومالت عيون الرصد نحوه ، وسئل من الجائد دونك بنفسه ، فقال معصياً لسان ابن أخيه ، هو من خول النعمة وتبع الدولة ، وأنشدكم الله إلا ما سرحتموه ، فخلوا سبيله ، وانصرف راشحاً لطيبته ، (1) .

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 17 - 18 .

وقد نقل التنسي هذه الرواية عن يحيى بن خلدون ، فأوردها في كتابه « نظم الدر والعقيان » من دون أن يغيّر فيها شيئاً .

إلا أن المصادر الأخرى لا تتفق مع هذه الرواية ؛ فقد جاء في كتاب « زهر البستان » أن فلّ جيش أبي ثابت ، الذي كان قد التجأ إلى الجزائر ، افترق شمله ، بعد أن تملك بنو مرين هذه المدينة ، فاتجه بنو عبد الواد نحو المنطقة الشرقية و « أخذ كل أحد في البلاد طريقه ، وترك أهله وصديقه ، فكان المولى أبو حمو في جملة من خرج ، وعان المشقة والحرج ، فدخل تونس .. » ⁽¹⁾ ولسنا ندري هل وقع ذكر هذا الحادث بمزيد من التفصيل في آخر السفر الأول من هذا الكتاب ، وهو مفقود ، أو هل يمكن أن يفهم من هذا النص أن أبا حمّو سلك طريقه وحده بعد خروجه من الجزائر ، ولم يلق عليه القبض قرب بجاية ، مع عمه أبي ثابت .

أما عبد الرحمان ابن خلدون ، فإنه ذكر أبا حمّو في جملة من صاحب أبا ثابت بعد مغادرته للجزائر ، وحين مروره ببلاد زواوة ، غير أنه لم يذكره من بين الذين أخذوا في جبل ليزو واكتفى بقوله : « وعثر عليهم بساحة البلد ، وتقبض على الأمير أبي ثابت الزعيم ، وابن أخيه محمد بن أبي سعيد ، ووزيرهم يحيى بن داود ، وأدخلوا الى بجاية » ⁽²⁾ .

(1) زهر البستان « السفر الثاني » ، ورقة 5 و .

(2) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 253 - 254 .

والجدير بالملاحظة ، في هذا الصدد ، أن المؤرخ الذي نسب لأبي حمّو دوراً بطولياً في هذا الحادث ، يحيى بن خلدون ، كان كاتب السلطان الزيّانيّ ومستشاره ، وأنه ألف كتابه « بغية الرواد » بقصد تمجيد عهد أبي حمّو وتخليد ذكره ، فليس من الغريب أن ينسب له أعمالاً ، شاع ذكرها بين رجال البلاط ، من دون أن يحاول التثبت من صحتها ، والتشكك فيما قد يكون مجرد إشاعات تخيلها بعض رجال البلاط ، بقصد إعلاء شأن السلطان ، وإثارة إعجاب الخاص والعام بشجاعته وبسالته .

ويظهر أن عبد الرحمان ابن خلدون لم يقتنع بصدق هذه القصة ، فلم يذكر أبا حمّو من بين الأشخاص الذين ألقى عليهم القبض ، كما أنه لم يشر إلى شيء مما جاء في كتاب أخيه يحيى حول دور أبي حمّو أثناء ذلك ، ولسنا نشكّ أنه كان قد سمع هذه الحكاية ، أثناء مقامه بتلمسان مثلاً ، وأنه ارتأى أنها أقرب إلى الخيال والأسطورة منها إلى الحقيقة التاريخية .

والذي نراه أن البحث في هذا المجال لا يقتصر على فحص ما أورده المؤرخون من الأخبار ، وإنما يقتضي معالجة الموضوع من زاوية أوسع ، وذلك بالالتفات إلى المعطيات النفسية المحيطة بهذا الحادث وإلى ما يمكن افتراضه من دوافع وعوامل للدور الحقيقي الذي قام به كل من أشخاص القصة .

وهناك ملاحظة أولى حول هذا الموضوع ، تتعلق بنوعية العلاقات التي كانت تربط بين أبي ثابت وأخيه أبي يعقوب قبل هزيمة أنجاد ، وقد سبق لنا أن أشرنا إلى ابتعاد أبي يعقوب عن بلاط أخويه الأميرين ، واعتزاله بقصة ندرومة ، وإلى ما يمكن استنتاجه من شعور الحذر والتخوف في موقف أبي يعقوب ، إذا كان اعتزاله من إرادته ، وفي موقف أخويه الأميرين ، إذا كان اعتزاله باستشعار وأمر من طرفهما .

وعلى كل ، فلننا نرى أن عواطف أبي حمو نحو عميه الأميرين كانت قوية إلى درجة أن يقدم نفسه فداء لإحداها ، بل نعتقد أن العلاقات بين أبي يعقوب وأخويه لم تكن طيبة إلى حد يجعل أبا حمو يضحّي بحياته لأجل عمه أبي ثابت .

وإذا كان لشاب من أقرباء الأميرين أن يجود بنفسه في سبيل نجاة أبي ثابت ، فهناك شاب لا يقل شهامة وشجاعة عن أبي حمو ، هو أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد ، الذي ألقى عليه القبض مع عمه أبي ثابت ، وسجن عند بني مرين بعد ذلك سنوات عديدة ، وكان أبوه وعمه أبو ثابت قد استحوذا على الملك ، دون أخيهما الأكبر أبي يعقوب ، والد أبي حمو .

وأبو زيان هذا ، كان بعد ذلك أكبر خصم لأبي حمو ، أثناء إمارته ، فنافسه في الحكم مدة سنوات عديدة ، كما سنرى فيما بعد ، وهذا

عرشه مراراً ، مما يدلّ دلالة واضحة على فتور العلاقات بين الأسرتين .

ثمّ إذا اعتبرنا ما كان يحيش في نفس كل أمير من طموح وعلوّ همة ، أدركنا أن وقوع أبي ثابت وابن أخيه أبي زيّان ، بين أيدي بني مرين ، كان من شأنه أن يفسح المجال لأبي حمّو في التّطاول إلى الامارة العبد الوادية ، ولذا ، فالظاهر أنه ، في تلك الظروف ، لم يفكر إلا في النجاة من العدو ، مثلما فعل سائر أمراء وفرسان بني عبد الواد الذين هزموا في معركة أنجاد ، أو الذين لم يشاركوا فيها وبلغهم نبال الهزيمة فغادرت بنو عبد الواد بلادها « فراراً ، آخذة بكل ناحية ، طالبة للبلاد القاصية ، بعد أن أخذ من شيوخهم ووجوهم ما نيف على سبعمئة .. فجازت فرقة منهم للبلاد الافريقية ، وفرقة للبلاد الأندلسية ، وفرقة للجريد والزاب ، وفرقة بين ظهور زنّانة والأعراب » (1) .

وبهذا يتضح لنا ان هزيمة أنجاد كانت أول باب انفتح أمام أبي حمّو في طريق الملك ، وان طموحه في الامارة لم يزد الا تمكنا ورسوخا بعد هذا الحادث المؤلم ، وأنه أصبح بعد ذلك يسعى بكل جهده إلى إحياء الدولة العبد الوادية ، تحت رئاسته وحكمه .

ولذا، فرواية يحيى بن خلدون لا تمثل عندنا الا ما كان شائعاً بين رجال

(1) زهر البستان ، ورقة 1 ظ .



مَسِيرَةٌ قَدِيمَةٌ بِجَانِبِ الْجَامِعِ وَالْعِزَّةِ

البلاط بتمسان ، وأنصار الدولة ، من الحكايات الموضوعة ، التي ترمي الى تمجيد الملوك ، وتحبيسهم الى الناس .

ولا شك أن أبا حمو لم يكن ، آنذاك ، من الأمراء المشهورين الذين كان الناس يتوسمون فيهم علو المنزلة ، وبلوغ أسمى مراتب الحكم ، لما سبق ذكره من سلوك طريق أبيه في الابتعاد عن الساسية . أما طموحه السياسي ، فلم يظهر الا أثناء اقامته بإفريقية ، في السنوات التي تلت سقوط إمارة عميه أبي سعيد وأبي ثابت .

وكان وصول أبي حمو الى تونس في 6 شوال (753 هـ) . (1) ونزل بها على الحاجب أبي محمد بن تافراكين . فاکرم نزله وأحلّه بمكان أعياص الملوك من سلطانه ، ووفر جراته ونظم معه آخرين من فلّ قومه . (2)

وامتدت اقامته بتونس الى أوائل رجب (758 هـ) . (3) وكان أثناء مقامه بها يجتمع بالوافدين من المغرب الاوسط ، ويتطلع الى أخبار تلمسان ومآل أبناء قبيلته في شتى النواحي ، والى أحوال بني مرين وأنباء السلطان أبي عنان . (4)

(1) أنظر زهر البستان ، ورقة 5 و .

(2) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 255

(3) انظر زهر البستان ، ورقة 5 ط .

(4) نفسه ، ورقة 5 و

وكان الحفصيون واتباعهم . آنذاك ، يخشون هجمات الجيوش
المرينية على إفريقية ، ويتأهبون لمواجهة خطرها .

وفي أوائل رجب (758 هـ) ، غادر أبو حمو تونس ، واستقر مدة
في ضاحيتها . وذلك عندما غار أبو عنان على ناحية قسنطينة ، وحاصرها
مدة شهرين ، ثم دخلها بعد أن استسلم أميرها أبو العباس الحفصي (أواسط
758 هـ) .

وفي أواخر شعبان ، التحق أبو حمو بالسلطان الحفصي أبي إسحاق
وحاجبه ابن تفرجين ، وتوجه معهما إلى القيروان ، ثم إلى جنوب
البلاد ، ونزل معهما قفصة . وكان أبو عنان ، في تلك الأثناء ، قد استولى
على عنابة ثم تونس ، وشرع يستألف العرب وسكان الجنوب ، فاطاعه
الدواودة من قبيلة رياح ، وسكان الجريد .

أما أبو إسحاق وجمعه ، فانهم اتصلوا بعرب أولاد أبي الليل وحصلوا
على تأييدهم ، وتوجهوا نحو الجريد لاختضاعه ، فحاصروا نفطة وتوزر ،
ثم صالحوا أهل المنطقة ، وساروا بعد ذلك نحو الجنوب الغربي ، إلى
ناحية تبسة . (1) .

وتلا ذلك انفصال الدواودة عن السلطان المريني . وذلك أن أبا
عنان أقدم ، مثل أبيه قبله ، على إلغاء امتيازات العرب في بعض مناطق

(1) نفسه ، ورقة 5 ظ ، انظر كذلك بغية الرواد ج 2 ، ص 20 .

إفريقية كضريبة الحفارة التي كان العرب يفرضونها على الأهالي والمسافرين
وتعرّض الدواودة الى مطاردة الجيش المريني ، فاصحروا ، وتبعهم أبو
عنان الى ناحية تبسة ، ثم رجع عنهم بعد أن نال التعب من جنوده وسثموا
الحرب .

وعندئذ بعث الدواودة الى أبي اسحاق يعرضون عليه طاعتهم
والتحالف ضد أبي عنان . وتقوى بذلك جانب السلطان الحفصي فأصبح
يطارد الجيش المريني ، المتراجع نحو شمال البلاد ، الى أن انفضت معظم
قوات أبي عنان من حوله ، فعاد الى المغرب الأقصى ، وترك على كل
مدينة حامية تردع عنها هجمات الحفصيين والأعراب .

وكان أبو حمّو قد عقد روابط متينة مع الدواودة ، ولمس عن
كثب القوة السياسية الهائلة التي كانوا يمثلونها ، وربما كان يسعى الى
استئلتهم ، بغية الحصول على مساعدتهم اذا سمحت الظروف بالقيام بحركة
الى تلمسان . ولذا ، فعندما أراد السلطان الحفصي وحاجبه التوجه
نحو تونس لطرد بني مرين عنها ، لم يرافقهما أبو حمّو اليها ، وصحب
الدواودة الى أراضيهم ، فأصبحوا يشنون الغارات على مدن منطقة
قسنطينة ، ويحاولون إجلاء بني مرين عنها ، وعن الأراضي التي اعتادوا
ارتياحها لما شيتهم . وأغار أبو حمّو معهم على مدينة ميلة ، فاحتلوها في
آخر شوال 758 هـ . (1)

(1) أنظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 20 - 21 .

تمّ ساهم أبو حمّو ، مع الدواودة ، في مضايقة بني مرين في ناحية قسنطينة، الى أن قدمت أمداد قوية من المغرب الأقصى بقيادة سليمان بن داود العسكري ، لتعزيز الحاميات المرينية ، والقيام بحملة جديدة في اتجاه تونس والجنوب (رمضان 759 هـ .) وعندئذ غادر أبو حمّو ناحية ميلة ، مع قبيلة الدواودة ، قاصدين الى الجنوب الشرقي ، فنزلوا ناحية تبسة . وهناك انقسم الدواودة الى فرقتين ، اتجهت احدهما ، وهم أولاد عثمان بن سباع ، نحو الحضنة فرافقهم أبو حمّو الى هذه الناحية القريبة من المغرب الأوسط وكأنه كان يرغب في الاقتراب من وطنه ، ويحنّ الى بلاده ويشتاق الى أبيه وأهله، المستقرين آنذاك بفاس وفي قرية بريكة ، من بلاد الحضنة لقي بني عامر، وشيخهم سقير، وكانوا قد طُردوا من أراضيهم بالمغرب الأوسط ، فغادروا القطر والتجّؤوا الى تلك الناحية (منتصف شوال 759) . (1)

وهكذا ، قضى أبو حمّو سنة كاملة متنقلا في جنوب إفريقية فصحب الدواودة في معظم هذه الفترة ، وساهم في غاراتهم على بعض النواحي ، الا أنه لم يفتأ يتطلّع الى احوال موطنه، ويتربّص لأعداء قومه ، منتظرا الفرصة التي تمكنه من إحياء الدولة الزيانية .

ولاشكّ أنه حاول ، أثناء هذه الفترة ، استئلاف الدواودة واستمالتهم الى تحقيق أمنيته وأمنية قومه، وأحلافهم في المغرب الأوسط، وهي طرد بني

(1) انظر زهر البستان ، ورقة 7 و .

مرين من المغرب الاوسط. فكانت مقاومة الخطر المريني في المنطقة الغربية من افريقية اول مرحلة نحو بلوغ ذلك الهدف .

وقد ذكر عبد الرحمان بن خلدون ان الدواودة اجتمعوا « الى الحاجب أبي محمد بن تافراكين ، ورغبوه في لحاق أبي حمّو موسى بن يوسف بالمغرب من غربته ، وأنهم ركابه لذلك ، ليجلب على نواحي تلمسان ، ويحصل للسلطان أبي عنان شغلا عنهم »⁽¹⁾. ولا شك أن مسيرة أولاد عثمان بن سباع مع أبي حمّو ، في اتجاه الحضنة ، كانت ترمي الى ذلك ، ثم ان اللقاء مع قوم سقير بن عامر ، كان من شأنه أن يقوّي عزيمة الجميع للغارة على بني مرين وأحلافهم .

وانتقل أبو حمّو ورفاقه الى مقبرة لتجسّس أخبار الجيش المريني ثم توجّهوا نحو الزاب على ثنية غنية، بين جبل أوراس وجبل عياض، ونزلوا بريغ . ثم تابعوا سيرهم الى الجنوب، واستقروا مدة بوارجلا.⁽²⁾ والظاهر أن هذه المسيرة كانت ترمي الى الفرار من العدو المريني ، وإيhamه بالتوجه نحو الشرق ، مما يجعل حداً لمطاردته .

ولكن أباحمّو وأحلافه توجّهوا بعد ذلك نحو الغرب ، فمروا بمنطقة مزاب ، ومن ثم قصدوا الى الشمال الغربي ، سالكين طريق

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 255 .

(2) انظر ، زهر البستان ، ورقة 8 ط ، بغية الرواد ، ج 2 ،

ص 22 - 23 .

وادي زرقون. وهناك حلّ موسم عيد الأضحى ، فأقاموا بتلك الناحية أياماً ، الى أن بلغهم نبأ استقرار سويد بوادي ملال ، فأغاروا عليهم — وفاجؤوهم بذلك الموضع ، فهزموهم وقتلوا بعض أبطالهم ، مثل عثمان بن ونزمار بن عريف، وسبوا النساء ، وغنموا الإبل والمال ، فنال بنو عامر ما كانوا يأملونه من الانتصار على أعدائهم ، والانتقام منهم (أواخر ذي الحجة 759 هـ) (1)

ومكث أبو حمّو وسقير وجماعتهما بوادي ملال ، يترقبون الأخبار بعض الأيام. وفي السادس أو السابع من محرم (760 هـ) ، فوجئوا بأكبر بشرى وافتهم من بلدهم ، الا وهي نبأ وفاة السلطان أبي عنان بفاس (27 ذي الحجة 759 هـ / 5 ديسمبر 1358 م) .

وعندئذ رأى أبو حمّو وسقير أن آت الأوان لطرد بني مرين وأحلافهم عن تلمسان ونواحيها ، فعزما على القيام بحركتهما الموقفة لإحياء الدولة العبد الوادية .

حركة ابو حمو لاحياء الدولة العبد الوادية :

كان الغرض من مسيرة أبي حمّو ، رفقة أولاد عثمان بن سبّاع وبني عامر ، شن الغارات على جنوب المغرب الأوسط وعلى ناحية سجلماسة ، وذلك لشغل أبي عنان عن مهاجمة بلاد إفريقية .

(1) انظر زهر البستان، ورقة 9 و، بغية الرواد، ج 2، ص 23-24.

وبينما كانوا مستقرّين بوادي ملال ، في موضع يدعى الدنانير إذ ورد عليهم نبأ وفاة أبي عنان ، وعندئذ أدرك أبو حمو ورفاقه من بني عامر ، أن الفرصة سانحة للقيام بحركة إلى تلمسان . أما أولاد عثمان بن سباع ، من الدواودة ، فإنهم قرّروا العودة إلى أراضيهم بإفريقية الغربية ، وكانت موت أبي عنان تنبئ باضمحلال النفوذ المريني بإفريقية (1) .

فتوجّه أبو حمو وأنصاره إلى سمبحة كبود ، ثم إلى درج ، ومن هناك نفذوا إلى التل عن طريق ثنية فرتون ، ثم انتقلوا إلى عين الحجر ، وقصدوا بعد ذلك وادي يسر ، وهو من روادف وادي تافنا . ثم توجّهوا نحو تلمسان مارّين بتيط وشقوف .

ولما دنوا من العاصمة الزيانية ، تصدّت إليهم حصّة من الحامية المرينية ، بوادي الصفيصيف ، على مسافة 5 كلم من المدينة ، فلم تستطع مدافعتهم ، وولت منهزمة ، واعتصمت بتلمسان (25 صفر 760 هـ) .

وكان على تلمسان ، آنذاك ، محمد ابن السلطان أبي عنان ، يتولّى شؤونها بمساعدة مربّيه سعيد ، والأمير يغمراسن بن عثمان بن سليمان المريني ، ولم يكن الإستيلاء عليها بالأمر الهين ، وذلك أن عدد جنود الحامية كان لا يقل عن ثلاثة آلاف ، من بينهم (1800) من بني مرين (2) .

(1) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 24 - 25 .

(2) انظر : زهر البستان ، ورقة 12 ظ .

وعندئذ أقبل على أبي حمّو بعض أهالي تلمسان ، فاخبروه عن « عورات البلد ومخادعه ، وأغروه بأجادر لقرب مناله ، بشيع أهله » (1) . فقسم أبو حمو جيشه إلى فرقتين ، وأمر ابن برغوث بالتوجّه نحو أجادر ، عن طريق باب العقبة ، الواقع في الجهة الشرقية من تلمسان ، على رأس بني عبد الواد وغيرهم من الزناتيين ، بينما سار هو بالأعراب في اتجاه باب كشوطة ، الواقع في الجهة الغربية من المدينة .

وكانت هذه الخطة تهدف إلى شغل معظم الحامية المرينية في الجهة الغربية ، ليتسنى لابن برغوث ورفاقه اقتحام تلمسان من الجهة الشرقية بأجادر .

ولما ظهرت جموع أبي حمّو من الأعراب ، وتصدّى لمدافعتهم جنود الحامية المرينية ، وهم يطلّون عليهم من شراريف الأسوار بعد أن أغلقوا أبواب المدينة ، توجّه ابن برغوث ومن معه نحو باب العقبة ، ولم يمض قليل من الوقت حتى ملكوا أجادر (2) . وانتهى الأمر ، باستسلام حامية بني مرين ، ودخول أبي حمّو مع أنصاره تلمسان ، محققاً بذلك آمال قبيلته وأهالي بلاده في الخلاص من الاحتلال المريني ،

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 28 .

(2) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 28 - 30 .

وإحياء الدولة الزيانية (فاتح ربيع الأول سنة 760 هـ) (1) .

وهكذا ، تبين لنا ، أثناء عرض هذه الحوادث ، أن هذه الحركة كانت ترمي ، بادئ ذي بدء ، إلى مقاومة الإستيلاء المريني على المغرب الأوسط ، وشغلهم عن متابعة هجماتهم على إفريقية ، وأن القوات التي شاركت فيها كانت تضم خاصة قبيلة بني عامر ، وبعض رياح وقليل من الزناتيين ، ممن كانوا قد هاجروا قبل ذلك إلى إفريقية .

ولم تتخذ الحركة شكلها السياسي الموجه إلى إحياء الدولة العبد الوادية إلا بعد أن ورد نبأ وفاة السلطان أبي عنان ، حيث ظهر أن الفرصة سانحة للقيام بمحاولة قد تكون ناجحة .

وبناء على هذه الاعتبارات ، يمكن لنا أن نستنتج أن حركة أبي حمّو حظيت بتأييد بني عامر ومساعدتهم ، وأن معظم بني عبد الواد ممن استقروا بفاس أو بالاندلس ، لم يشاركوا فيها ، ولم يكونوا على علم بتنفيذها .

وإذا قارنا بين هذه الحركة وحركة أبي سعيد وأبي ثابت سنة (749هـ)،

(1) وذكر يحيى بن خلدون أن سكان أجادير كانوا قد وعدوا أبا حمو ، على لسان الفقيه عبد الرحمان بن غلوف الشامي ، بنصرته ضد بني مرين وأنهم فتحو باب العقبة لابن برغوث ، فتمكن من الدخول إلى أجادير (بنية الرواد ج 2 ، ص 28 - 30) .

لنفس الهدف فاننا نلاحظ أن الأميرين المذكورين قاما بمحاولتهما على رأس حوالي خمسمائة فارس ينتمون الى قبيلة بني عبد الواد والى بني توجين وبني راشد ، وكلهم من زناته ، كان السلطان أبو الحسن المريني قد ضمهم الى جيشه لما قام بزحفه الى إفريقييا . أما أبو حمّو الثاني ، فكانت محاولته باستشعار من بني عامر خاصة ومساعدتهم .

فحركة أبي حمّو وأحلافه كانت ترمي ، قبل كل شيء الى مقاومة خطر بني مرين ، وجعل حد لاستيلائهم على المغرب الأوسط . وكان بنو عامر ، من جهة أخرى ؛ يهدفون بذلك ، الى مناهضة سويد أعدائهم بالدرجة الأولى . أما دور أبي حمّو ، في هذه الحركة ، فلم يكن دون الرئيس المدبّر باتّمْ معنى الكلمة، فترشيحه للامارة لم يكن حسب التقاليد المالوفة ، اذ لم يكن ابن سلطان ، ولم يعيّن من طرف أشياخ بني عبد الواد ، وانما اتجهت أنظار العرب اليه للأسباب السياسية المذكورة ولم يكن ذلك لاحتياجهم الى رئيس يقودهم الى النصر ، بل لتكتسي عملياتهم طابعاً شرعياً ، فهم ، اذ يغيرون على المغرب الأوسط ، يقومون باعادة أمير على عرش أجداده ، ويساهمون حينئذ في أخذ حق وردّ عدوان .

وهنا ، تتجلى لنا خطورة مشاركة الاعراب في هذه الحركة ، وأهم ما يلاحظ فيها ، أن العرب كانوا ينتظرون ، منذ زمان طويل ، فرصة للدخول إلى التلّ ، والاستيلاء على مراعيه الخصبه التي كانوا

محرومين منها . وكانَ أبا حمّو ، بإقدامه على التحالف معهم ، قد التزم نحوهم بترضية هذه الرغبة ، وتحقيق هذه الأمنية ، الأمر الذي سيجعل بني عامر يحتلّون مكانة سامية في الدولة وفي أوضاعها السياسية والاقتصادية ، مدة طويلة .

فصل الهجوم على وهران :

وبعد أن استولى أبو حمّو على تلمسان ، كان عليه أن يبذل مجهوداً جباراً لتنظيم شؤون دولته وإصلاحها . وفعلاً ، وجد أبو حمّو نفسه أمام مشاكل عديدة ، لم يتمكن من حلها إلا بعد سنوات .

فكان بنو مرين يحتلّون وهران والجزائر ، وكثيراً من نواحي المغرب الأوسط ، ثم إن المناطق الشرقية (جبل وانشريس وناحية شلف ومتيجة وجبال تيطسري) لم تكن وقتئذ خاضعة لحكم أبي حمّو ، بل كانت سويد وغيرها من قبائل تلك النواحي متحالفة مع القائد المريني يحيى بن علي البطيوي ، ومستعدة لمحاربة الدولة الزيانية .⁽¹⁾

أما بيت المال ، فكان في أسوأ حال ، ولم يكن ما وجده فيه أبو حمّو عندما دخل تلمسان ، أو ما يمكن الحصول عليه عن طريق الجباية ، كافياً لتنظيم الدولة ، وإعادة قوتها ورونتها ، إذ كانت أغلب النواحي خارجة عن سلطة أبي حمّو ، ولا تدفع شيئاً لبيت المال .

(1) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 61 .

أضف إلى ذلك أن أبا حمّو كان مضطراً إلى مكافأة حلفائه وأنصاره ، فوزّع عليهم ما كان بيده من أموال ، وأركبهم الخيل التي أخذها من فرسان بني مرين عند استسلامهم ، وأقطعهم الأراضي ، ومنحهم الامتيازات ، فأنفق بذلك جلّ ما ألفاه في بيت المال .

ثم حلّ عيد ذكرى المولد الشريف ، فاحتفل به السلطان الزيّانيّ ، وأقام بهذه المناسبة حفلة كبرى ، استدعى إليها الكثير من الناس ، من وجهاء وعلماء وشعراء ، وموظفين ونقباء الحرف المختلفة ، وغيرهم ، وأنشدت الأشعار لتمجيد مولد الرسول ، ولندح أبي حمّو . ولا شك أن الأدباء والعلماء أدركوا عندئذ ما اختص به السلطان الجديد من ثقافة واسعة ، وإقبال على فنون الأدب والعلوم وحسن استعداد على تشجيع الحركة الفكرية .⁽¹⁾ وأصبح الاحتفال بالمولد النبوي بعد ذلك من أهم الأعياد ، يُعنى السلطان بإحيائه كلما كان حاضراً بعاصمته حين حلوله .

وشرع أبو حمّو في تنظيم شؤون دولته وبسط سلطته على نواحي القطر ، وحصل على تأييد قبيلة المعقل ، القاطنة في الحدود الغربية . ولم تمض إلا أيام قلائل حتى وردت إليه بيعة وجدة وندرومة وهنين وهي أقرب المدن ، ثم قدمت وفود مستغانم وتمزگران والبطحاء ، وتلاه وفد قلعة هواره .⁽²⁾ غير أن المدن الأخرى ، مثل وهران

(1) انظر : زهر البستان ، ورقة 15 و - 18 ظ .

(2) انظر : زهر البستان ، ورقة 18 ظ - 19 و .

ومليانة والمدية والجزائر كانت لا تزال تحت احتلال بني مرين ،
ولذا ، فكان خطر هؤلاء يمثل الشغل الشاغل في تلك الظروف . وبدأ
أبو حمّو بمحاولة لاسترجاع وهران ، فبعث في 28 ربيع الأول وزيره
ابن برغوث بجيش ، فنازل وهران ، وبعد أيام ، خرجت إليه حاميتها
ولكن انفض الناس من حول ابن برغوث فقبض عليه ، وهزم من بقي
معه (8 ربيع الثاني 760 هـ) . فكان لهذا النبأ صدى عميق بفاس .

الزحف المريني الى تلمسان ومشله :

وفعلا ، لم يقف بنو مرين مكتوفي الأيدي أمام هذه الحوادث ،
وخاصة عندما وصل الى بلادهم عرب سويد ، بعد هزيمتهم بوادي ملال
ورغّبهم في الزحف الى تلمسان . وكان بنو مرين قد بايعوا بفاس
للأمير الصغير أبي بكر السعيد بن أبي عنان ، الا أن زمام الأمر كان
بيد الوزير الحسن بن عمر الفودودي . وقرر هذا الأخير حشد الجيش
قصد استرجاع تلمسان وما يليها من الأراضى . ثم أنهض اليها القائد
مسعود بن عبد الرحمان بن ماساي ، في جيش يبلغ عدده تسعة آلاف
مقاتل ، وحينما بلغوا البلاد العبد الوادية وحلّوا قرب وادي الزيتون
رأى أبو حمّو مغادرة تلمسان ، لقلّة ما كان لديه من الجنود ، والتحق
بقبيلة بني عامر ، في الجنوب (أوائل جمادي الأولى 760 هـ) .

وبعد ذلك بقليل ، استولى ابن ماساي على تلمسان ، وأخذ يعمل
لإعادة النفوذ المريني في سائر أنحاء المغرب الأوسط . أما أبو حمّو ، فانه

عسكر أولاً بعيون يسر ، ثم توجه نحو الجنوب ، وفي درج لقي بني عامر ، ثم استقر بتاعملت ، وأرسل الى المعقل يأمرهم بشن الغارات على بني مرين ، وقطع الطريق الواصلة بين تلمسان وفاس . فساعت في ذلك أحوال ابن ماساي وجمعه ، وأرسل لحرب قبيلة المعقل ، ابن عمه عامر بن عبدالله بن ماساي ، قائد حامية وهران ، فانهزم هذا الأخير أمام المعقل ، وقتل أثناء المعركة ، وعادت جنوده في أسوأ حال الى وجدة .

وكان لهذا الحادث وقع سيء على الجيش المريني بتلمسان ، فأعلن خلع السعيد ، وعيّن الأمير يعيش بن علي المريني على العرش ، وكان الجنود قد سئموا من استبداد الوزير الحسن بن عمر على الحكم ، وشقوا بذلك عصا الطاعة . وعندئذ خشي ابن ماساي على نفسه ، أمام هذا الوضع ، فلجأ الى تنصيب أمير آخر يدعى منصور بن سليمان فاجتمعت كلمة الجيش عليه ورأى مسألة أبي حمّو ، فوقع عقد صلح معه ، وأرسله اليه مع أبي زكريا يحيى بن موسى الجمّعي ، وغادر بجموعه تلمسان ، فأسرع اليها أبو حمّو ، ودخلها في غرة جمادي الثانية 760 هـ .

وعندما حلّ منصور بن سليمان بفاس البالي ، وجد بها أبا يعقوب والد السلطان أبي حمّو ، وأبا تاشفين ، ابنه ، فبعثهما اليه مكرمين ، لتمكين روابط المودة والصلح بينهما . فوصلا الى تلمسان في 7 رجب فتآزرا بها أبو حمّو ، واعتمد على أبيه في مواصلة الجهود للقضاء على الخطر المريني في سائر الانحاء .

وكانت الظروف ملائمة ، اذ كان بنو مرين منقسمين على أنفسهم بالمغرب الأقصى ، وأصبحت حامياتهم بالمغرب الأوسط تعيش في جو قلق وارتباك ، لا تصلها أمداد من فاس ، ولا تطمئن على مصيرها .

وفي (4 شعبان 760 هـ) ، خرج أبو يعقوب ، والد أبي حمّو ، بجيش في اتجاه المناطق الشرقية ، قصد إجلاء بني مرين عنها ونزل البطحاء أياماً ، ثم اتخذ طريق جبل وانشريس ، حيث لقي القائد المريني يحيى بن علي البطيوي وأحلافه من توجين ، فهزمهم . ثم اعتصم القائد المريني بليانة ، وانضمت اليه فرقة من حامية الجزائر ، فقوي بذلك ساعده ⁽¹⁾ .

وفي هذه الاثناء ، نجحت محاولة أبي سالم بن أبي الحسن المريني ، وبويع له بفاس ، فبعث رسولا الى أبي حمّو في شأن الصلح طالبا منه أن يكفّ عاديته على القوات المرينية المتمركزة في المنطقة الشرقية (فاتح شوال 760 هـ) .

وفي أواسط (شوال 760 هـ) قدم إلى تلمسان عبدالله بن مسلمّ الزردالي بعد أن غادر ناحية درعة حيث كان والياً ، راجعاً إلى

(1) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 59 - 62 ، زهر البستان ، ورقة 27 ط .

موطن أجداده ، وكان قد حمل معه جباية تلك المنطقة . ففرح أبو حمّو لقدومه ، واستعان بما جاء به من المال ، وقلّده وزارته وبعثه ، على رأس جيش هام ، لمظاهرة أبي يعقوب على تهديد البلاد الشرقية وتطهيرها من الأعداء ، (1)

وبعد ذلك بقليل قدم رسول آخر من قبل السلطان أبي سالم يطلب إيقاف العمليات الحربية في المنطقة الشرقية (ويقترح عقد صلح في ذلك الشأن ، وكان جواب أبي حمّو « بآنا قد أرسلنا الوزير عبدالله بن مسلم لأقتضاء السلم ، الذي سألتموه لحصصكم ، من والدنا . إذ لم تجد الكتابة في ذلك شيئاً . (2)

ويتضح من موقف أبي حمّو هذا أنه لم يكن راغباً في سلم عاجل ، وأنه كان ينتظر استيلاء جنوده على المنطقة الشرقية لاجراء السلم ، ولا شك أن القضاء على الاحتلال المريني في الجهة الشرقية كان يعزّز بصفة محسوسة الجانب العبد الوادي في حالة مفاوضات لاقرار السلم بين البلدين لما ينتج عن ذلك من اتساع رقعة الأراضي الخاضعة للسلطة العبد الوادية ولما يتوقّر لدى أبي حمّو اثناء تلك العمليات من أسرى يمكن تقديمهم مقابل أسرى بني عبد الواد الموجودين آنذاك بالمغرب الأقصى .

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 62 .

(2) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 62 .

وبينما كان أبو يعقوب يتابع سيره نحو الشرق ويستولي على المدينة (في فاتح ذي القعدة 760 هـ) ، توجه ابن مسلم إلى مليانة ، فحاصرها إلى أن استسلم القائد يحيى بن علي البطيوي ، وفتح أبواب المدينة (تهدى القعدة) ، والقي القبض عليه وعلى سائر جنود الحامية . (1)

وبعد ذلك اجتمع أبو يعقوب بابن مسلم بمليانة ، فسارا معاً بجيشيهما في اتجاه الجزائر . وكان يحتلها القائد المريني شعيب بن ميمون ابن وادرار . فامتنعت عليهما ، ولقيا من حاميتها وأهلها مقاومة عنيفة ، وأحرق معسكرهما ، فرفعا الحصار وعادا إلى مليانة وهناك بلغهما أمر من أبي حمّو يستدعي الوزير ابن مسلم إلى تلمسان ، فرحل هذا الأخير إليها تاركاً لأبي يعقوب مهمة تهدئة الناحية ومواصلة الجهود للاستيلاء على الجزائر (أوائل ذي الحجة) .

والظاهر أن استدعاء ابن مسلم هذا ، كان ناتجاً عن تخوّف أبي حمّو من السلطان المريني ، وذلك أن هذا الأخير كان قد تمكّن من التغلب على أعدائه ، وصفا له الجوّ ، فأصبح الخطر المريني أشد من ذي قبل .

وفي الأشهر الأولى من سنة (761 هـ) ، نازّم الوضع بين أبي سالم و أبي حمّو ، لما حدث من مواصلة الهجوم على الحاميات المرينية بالناحية الشرقية ، ولما صدر عن ابن مسلم من مغادرة درعة بجباية المنطقة والتحاقه بأبي حمّو (2) .

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 63

(2) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 259 - 260 .

وبدأ أبو سالم بتحريك أحلافه في المغرب الأوسط ، فثار زيّان ابن أبي يحيى الراشدي ، في قومه بني راشد ، داعياً للأمير العبد الوادي أبي زيّان حفيد السلطان أبي تاشفين الأول ، الملقب بالقُبُبي⁽¹⁾ . وظهر هذا الأخير في الناحية الغربية ، بجبل بني يزّناسن وقد اجتمع إليه بعض أتباع بني مرين من المعقل وبني يزّناسن .

فوجّه أبو حمّو إلى زيّان الراشدي جيشاً بقيادة ابنه أبي تاشفين والشيخ عمران بن موسى اللؤلؤي (فاتح ربيع الأول سنة 761 هـ) ، كما وجّه لمحاربة أبي زيان القبي ، الوزير ابن مسلم بعسكر بني عبد الواد الغربي ، فهزمه شر هزيمة (12 ربيع الأول 761 هـ)⁽²⁾ .

ولما اطلع أبو حمّو على نشاط أبي سالم لاستكمال عدة جيشه قصد النهوض إلى تلمسان ، عزم على مغادرة المدينة ، مرة ثانية وبدأ بتوجيه أحلافه من بني عامر والمقل ، تحت قيادة ابن مسلم ، نحو الجنوب (4 جمادى الثانية 761 هـ) ، فنزلوا بأميسون .

(1) القُبُبي يعني : عظيم الرأس . وكان هذا الأمير قد أخذ صغيراً بعد مقتل جده أبي تاشفين الأول وأبيه أبي سعيد عثمان سنة 737 هـ ، وربّاه في قصور بني مرين بفاس ، انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 261 .
(2) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 65 .

ومكث أبو حمّو في عاصمته إلى أن بلغه نبأ قدوم أبي سالم المريفي وحلوله بتاوريرت، في الحدود بين القطرين، فغادر تلمسان (29 رجب) والتحق بالوزير ابن مسلم .

وزحف أبو سالم وجموعه إلى تلمسان ، فدخلوها في (6 شعبان) وعندئذ خالفهم أبو حمّو وأتباعه إلى بلادهم ، واحتلوا أجر سيف وناحيتها ، وأفسدوا عمرانها ، مما أقلق أبا سالم ، وجعله يتخوّف من هذا الهجوم ، ويخشى أن يتجّه أبو حمّو إلى فاس ، ويتفاقم الأمر ، فقرر العودة إلى المغرب الأقصى ، وإخلاء المدينة (11 أو 12 شعبان هـ)⁽¹⁾ .
تركها عليها أبا زيّان القبي .

وبلغ أبا حمّو خبر مغادرة أبي سالم لتلمسان ، فقفّل راجعاً إليها وأرسل وزيره ابن مسلم في مقدمته ، بعسكر ، للاستيلاء عليها وطرد أبي زيّان القبّبي ، فلم يسع هذا الأخير إلا الفرار ، والالتحاق بأولاد عريف ، من قبيلة سويد بجبل وانشريس (4 رمضان 761 هـ)⁽²⁾ .

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 260 - 261 ، بغية الرواد ج 2 ، ص 76-77 ، الاستقصاء ، ج 4 ، ص 33 ، زهر البستان ، ورقة 38 و - 39 ظ .

(2) انظر بغية الرواد ، ج 2 ص 79 ، كتاب العبر ، ج 7 ص 261 ، زهر البستان ، ورقة 40 و .

ثم دخل أبو حمّو عاصمة ملكه في (8 رمضان) ، وبعد أيام ، جهّز جيشاً من قومه لمطاردة أبي زيّان القبيّ ، والقضاء على فتنته (18 رمضان) فقضى عيد الفطر بتأسّالة ، ثم عسكر بالبطحاء ، وهناك التحق به بنو عامر وأولاد حسين من المعقل . ثم توجه إلى منداس ، حيث كان أنصار أبي زيّان قد انقسموا إلى فرقتين ، إحداها تحت رئاسة محمد ابن عريف ، اعتصمت مع أبي زيّان بجبل وانشريس ، والاخرى اتجهت بقيادة أبي بكر بن عريف نحو الصحراء ، بطعون قبيلة سويد .

فحاصر أبو حمّو أبا زيّان وأنصاره ، وبعث جيشاً لمطاردة أبي بكر بن عريف في ناحية السرسو ، فهزم هذا الأخير ، ثم اقتحم أبو حمّو الجبل ، وأخطر أبو زيّان ومحمد بن عريف إلى الفرار نحو الصحراء (أوائل ذي القعدة 761 هـ) . (1)

وعندئذ التحق أبو زيّان بالحدود الغربية ، واستجار بقبيلة ذوي عبيد الله من المعقل ، الذين كانوا قاطنين بسهل أنجاد ، قرب وجدة ، فأجاروه .

وبعد تشتيت شمل أولاد عريف ، قصد أبو حمّو ناحية شلف لطرده

(1) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 80 ، كتاب العبر ، ج 7 ص 261
 زهر البستان ، ورقة 40 و - 41 و .

بني مرين عنها ، ولقتال أحلافهم من مغراوة ، بينما توجه الوزير ابن مسلم إلى تلمسان في كتيبة ، فوصلها في (23 ذي القعدة 761 هـ) .

أما أبو حمّو ، فانه طارد أشياخ مغراوة ، الذين حالفوا بني مرين ، فاعتصموا بتنس ، وكان عليها القائد عثمان بن أبي تجيلاء المريني ، فحاصرها أبو حمّو ثلاثة أيام ، ثم فتحها عنوة ، وقتل قائدها (آخر سنة 761 هـ) . (1)

وبعد أن استرجع ناحية شلف إلى طاعته ، عاد أبو حمّو إلى عاصمته فدخلها في (2 صفر 762 هـ) . فأشخص والده أبا يعقوب إلى الشرق لاستفتاح الجزائر ، وأرسل وزيره ابن مسلم إلى الغرب للاغارة على ذوي عبيد الله ، فالتقى بهم بسهل أنجاد ، فانهزمت عبيد الله وتفرق شملها (أوائل ربيع الأول 762) ، وفرّ أبو زيّان إلى تاوريرت ، حيث التحق بالدولة المرينية بعد أن فشلت محاولته . (2)

عقد الصلح بين أبي حمّو وأبي سالم المريني :

وحينذاك اتجهت رغبة أبي سالم وأبي حمّو نحو إجراء مفاوضات قصد إقرار السلم بين البلدين ، وكان للشيخ ونزمار بن عريف شيخ

(1) انظر زهر البستان ورقة 42 وظ .

(2) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 83 - 84 .

قبيلة سويد بالغرب الأقصى ، دور حاسم في تحقيق ذلك وأمر أبو سالم
بالتقاء القبض على أبي زيّان القبّسي بتاوريرت ، إظهاراً لحسن نواياه ،
ولاستعداده على إرضاء أبي حمو (أواخر ربيع الأول 762)⁽¹⁾ . وأخيراً
تم عقد الصلح بين القطرين (جمادي الثانية 762 هـ)⁽²⁾ .

وكان أبو سالم قد احتفظ بوهـران ولم يرتض تسليمها لأبي حمو رغم
الحاح رسله في ذلك ، وكانت الجزائر لا تزال بين أيدي بني مرين .

ورأى أبو حمو ضرورة استرجاع المدينتين ، لما لهما من أهمية في
تمكين سلطته على البلاد ولدورها الاقتصادي الهام . وطلب من قائد
وهـران والجزائر أن يقوموا بسحب قواتهما، وأن يسلماه المدينتين بموجب
ما حدث بين القطرين من صلح .

ولم يوافق أبو سالم على ذلك، فأرسل الوزير عمر بن عبد الله الى تلمسان
في هذا الشأن (أواسط رمضان 762 هـ) ولم تنجح مفاوضاته مع الوزير
ابن مسلم ، بل آلت الى خصام شديد وغادر الوزير المريني بلاد أبي
حمو مغضباً .⁽³⁾

(1) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 89 .

(2) انظر زهر البستان ورقة 48 و - 50 ظ .

(3) انظر زهر البستان ورقة 51 و - ظ .

وتأزم الوضع من جديد بعد صلح دام أربعة أشهر. فقرر أبو حمّو الزحف الى وهران ، وحاصرها ستة أيام ، ثم فتحها عنوة ، بعد أن قاومته الحامية المرينية مقاومة شديدة (13 شوال 762 هـ) ، ثم رجع أبو حمّو الى تلمسان بعد أن هدم سور القصبة ⁽¹⁾ .

وفي تلك الأثناء قدم الى تلمسان ونزمار بن عريف في شأن تسوية الأزمة ، وإعادة الصلح بين القطرين . ، والتزم إقناع أبي سالم بتسليم الجزائر لأبي حمّو . وفعلا ، بعث أبو سالم بعد ذلك رسله الى قائد الجزائر علي بن يعلى ، وإلى أبي حمّو برسم تسليم الجزائر الى بني عبد الواد . فبعث أبو حمّو الى والده أبي يعقوب بمليانة طالبا منه أن يتوجه الى الجزائر وأن يتخذها مقراً لولايته على المناطق الشرقية ، فدخلها في ذي العقدة (762 هـ) . ⁽²⁾

وفي 19 ذي العقدة (762 هـ) خلع أبو سالم المريني ، وتلا ذلك فتن واضطرابات في المغرب الأقصى ، فأمّن أبو حمّو عادية بني مرين لمدة ، واغتتم هذه الفرصة لتوجيه عنايته الى الناحية الشرقية .

وكان أشياخ مغراوة قد التجؤوا ، عند فتح الجزائر ، الى بياية

(1) انظر زهر البستان ، ورقة 51 ظ - 52 ظ

(2) انظر زهر البستان ، ورقة 54 ظ - 55 ظ ، بغية الرواد ، ج 2 ص 91 - 92 .

فاجارهم أميرها أبو إسحاق أبراهيم بن السلطان أبي يحيى الحفصي .
 وكان أبو حمّو قد ساعد هذا الأخير على إجلاء بني مرين عن بجاية قبل
 ذلك . فطالبه بتسليم من التجأ عنده من مغراوة ، ورفض الأمير أبو
 إسحاق تلبية طلبه . وعندئذ أمر أبو حمّو قواد الناحية الشرقية
 باقتحام امارة بجاية فاستولى عمر بن موسى المطهري على تدكّس عنوة (صفر
 أو جمادي الأولى 763 هـ) . وحاول أبو إسحاق استرجاع تدكّس
 فضايقها مضايقة شديدة، فأنهض أبو حمّو وزيره ابن مسلم إلى الشرق لردّ
 عادية أبي إسحاق وحماية تدكّس ، (في 21 رجب 763 هـ) ، فاستولى على
 فحص حمزة وعلى بلاد بني حسن وجاس خلال الوادي الكبير، ثم عرج
 ذات اليسار آخذاً على ثنية تاغزوت وبيطار ، فاستضاف أيضاً زواوة
 وماليها، وقبض على شيع الموحدين (يعني الحفصيين) ، (شوال 763 هـ)⁽¹⁾

وفي تلك الأثناء ، كانت الفتن ضاربة أطناها في المغرب الأقصى مما
 أضعف شأن العرش المريني ، الأمر الذي دعا الوزير المريني عمر بن عبد
 الله إلى أن يرغب في عقد صلح جديد بين الدولتين . وبعد تبادل السفارات
 انعقد الصلح في 15 رجب 763 هـ) ، وبموجبه أطلق سراح بني عبد
 الواد الذين كانوا لا يزالون بفاس ، إلا أبا زيّان بن السلطان أبي سعيد،
 ابن عم أبي حمّو ومنافسه في العرش ، فانه أبقى في السجن .⁽²⁾

(1) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 108 ، زهر البسان ورقة 76 ظ

— 78 و .

(2) أنظر : زهر البستان ، ورقة 66 ظ — 69 ظ .

وفي هذه الأثناء ، رزى أبو حمّو ب وفاة والده أبي يعقوب ، بالجزائر (أوائل شعبان 763 هـ .) فحمل الفقيّد الى تلمسان ، ودفن قرب باب ايلان ، ثم بنى أبو حمّو ، حول قبره ، مدرسة وزاوية ، وعين للتدريس في هذه المدرسة العالم الشهير أبا عبدالله الشريف .

نومّة خالد بن عامر

وحدث كذلك ، أثناء غيبة ابن مسلّم بالجيش ، أن تعرّض أبو حمّو إلى حركة خطيرة ، قام بها خالد بن عامر ، أخو سقير الذي كان قد توفي منذ حوالي سنتين ، وكان أبو حمّو قد عين أخاهما شعيباً على قبيلة بني عامر ، مما أغضب خالداً . وكان خالد قد بايع أبا زيّان ابن السلطان أبي سعيد ، ونصبه منافساً لابي حمّو في العرش وجاء به من المنطقة الغربية⁽¹⁾ زاحفاً إلى تلمسان من جانبها القبلي مغتتماً فرصة خلوها من الجيش .

فبعث أبو حمّو فوراً إلى عبدالله بن مسلّم ، يأمره بإنهاء العمليات في المنطقة الشرقية ، والرجوع بالجيش إلى العاصمة . وإلى جانب ذلك ، جمع جيشاً من فرسان تلمسان وأحوازاها ، وأرسله بقيادة الشيخ عمران ابن موسى اللؤلؤي ، لملاقاة الثوار . ووقع اللقاء بجبل بني ورنيد ،

(1) استطاع أبو زيّان أن يفر من سجنه بفاس ، وتمكن من الالتحاق بقبيلة أولاد حسين من المعقل ثم اتصل بخالد بن عامر . انظر زهر البستان : ورقة 78 و . . . ظ .

المصاقب للمدينة ، من جهة الجنوب . فانهزم خالد بن عامر وجموعه ،
وتركوا كثيراً من الغنائم والأسرى (منتصف شوال 763 هـ) . (1)

ثم رأى أبو حمّو أن يصانع بني عامر ، فبذل لهم ما أرضاهم من المال .

ابتداءً مناصرة أبي زيّان ابن السلطان أبي سعيد الثاني

أما خالد بن عامر ، فانه رافق أبا زيّان ابن السلطان أبي سعيد إلى
بلاد الدواودة ، حيث أجاره شيخهم يعقوب بن علي (2) . ثم التحق
أبو زيّان هذا ببجاية عند الأمير أبي إسحاق ، وطلب منه المساعدة .

وكان الأمير أبو عبدالله محمد بن أبي زكريا ابن السلطان أبي يحيى
الحفصي يزاحم آنذاك أبا إسحاق على بجاية ، ويستعين ببعض قبائل
الأعراب قصد الاستيلاء عليها . وقد أرسل في شهر صفر (764 هـ)
حاجبه أبا زكريا يحيى ابن خلدون ، صاحب كتاب « بغية الرواد »
مستغيثاً بأبي حمّو ، وطالباً مساعدته ضد أبي إسحاق ، فوجد يحيى
ابن خلدون عند أبي حمّو بعض الاستعداد لتلبية طلبه ، مما شجع الأمير

(1) انظر : زهر البستان ، ورقة 78 / ظ - 79 / ظ ، بغية الرواد ،
ج 2 ، ص 113 .

(2) أنظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 113 ، كتاب العبر ، ج 7 ،
ص 263 .

أبا عبدالله على الوفادة بنفسه في 8 جمادى الآخرة (764 هـ) ، مجدداً طلبه
لابي حمّو .

ولكن أبا إسحاق ، أمير بجاية ، كان قد بعث ، في تلك الأثناء ،
وزيره الى أبي حمّو ، يعرض عليه الصلح ، ويلتزم باعتقال أبي زيّان ،
ويطلب منه الا يساعد أبا عبدالله في شيء . فرضي أبو حمّو بهذا
الاتفاق ، ولم يجب طلب الأمير أبي عبدالله . (1)

وكانّ أبا زيّان ابن السلطان أبي سعيد أخبر بما كان يدبّر على
حسابه ، فلم تمر أيام قلائل حتى وصل الى تلمسان نبأ فراره من بجاية ،
واستقراره بفحص حمزة ، عند أبي الليل بن موسى شيخ بني يزيد
وكان هذا الأخير حائناً على أبي حمّو ، لما قام به الوزير ابن مسلم من
غارات في تلك الناحية ، قصد إخضاع بني يزيد . فبايع الشيخ
أبو الليل أبا زيّان ، وخلع طاعة أبي حمّو ، وبدأ يُغيّر بقومه على نواحي
المدينة ، الأمر الذي جعل أبا حمّو يشعر بخطر الموقف ، ويخشى أن تندلع
ثورة عامة بين قبائل الناحية الشرقية .

فأرسل ، مرة أخرى ، ابن مسلم إلى الشرق ، واعتصم الشيخ
أبو الليل وقومه بجبل جرجرة . فحاصروهم الجيش العبد الوادي ، ودام
الحصار إلى أن أذعن أبو الليل للطاعة ، والتزم صرف أبي زيّان عن

(1) انظر : زهر البستان ورقة 86 و، 87 وورقة 92 ظ - 93 ظ ،
بغية الرواد ، ج 2 ، ص 132 .

بلاده . فانصرف هذا إلى تونس (رمضان 764 هـ)⁽¹⁾ . وعاد ابن مسلم إلى تلمسان ، بعد أن أعاد السلطة العبد الوادية في فحص حمزة ، وأبعد عن تلك الناحية خطر الأمير أبي زيّان ابن السلطان أبي سعيد .

منافسة أبي زيّان القبي لآبي حمو :

وفي أوائل سنة (765 هـ) ، تازّم الوضع من جديد بين الدولة العبد الوادية والدولة المرينية . وذلك أن أبا حمّو كان يساعد أمراء بني مرين القائمين بسجلّاسة على شقّ عصا الطاعة عن السلطان المريني المتوكّل على الله . وكان رد فعل هذا الأخير ، أن أنهض أبا زيّان القبيّ حفيد السلطان أبي تاشفين الأول لمنافسة أبي حمو على العرش العبد الوادي ، مصحوباً بابن برغوث وغيره من وجهاء بني عبد الواد ، ومعزّزاً بعرب المعقل وبمحصة مرينية .

وعندئذ توجه الوزير ابن مسلّم إلى المنطقة الشرقية ، فحشر العساكر ، وأتى بها إلى تلمسان ، في رجب (765 هـ) ، ونهض أبو حمّو إلى لقاء منافسه ، الذي كان قد نزل بعين الصفاء من جبل بني يزناسن ، فلم يظفر به ، وتبعه إلى جبل دبدو في الجنوب ، ثم عاد إلى عاصمته ، ودخلها في (8 شعبان) .

(1) انظر : زهر البستان ، ورقة 90 و 93 ظ ، بغية الرواد ، ج 2 ،

ثم سرَّح أبو حمَّو وزيره ابن مسلم على رأس الجيش لمطاردة أبي زيَّان القبَّي وأتباعه ، فاعترضهم في ناحية منداس وأرغمهم على الفرار نحو الشرق ، ثم تبعهم إلى ناحية المسيلة ، حيث استجاروا بقبيلة رياح العربية . فأقام ابن مسلم معسكره بوادي الجنان ، وشرع في محاولة إقناع رياح بالتخلّي عن أبي زيَّان القبَّي وأنصاره ، ولكنّه مرض بالطاعون (آخر ذي القعدة 765 هـ) فرجع به أفراد عشيرته ، وتوفي في طريقه .

وكان لنبا موته أسوأ الأثر في نفوس مقاتلة الجيش العبد الوادي فانحاز الكثير منهم إلى فريق أبي زيَّان القبَّي ، وخاصة قبائل العرب . وبموت ابن مسلم فقد أبو حمَّو أخلص مناصر لدعوتّه وأمر قائد لجيوشه . وحينئذ أصبح موقف أبي حمَّو يدعو إلى القلق ، إذ تألّبت ضده قبائل الأعراب من أولاد حسين وسويد وبني عامر ، مناصرين منافسه أبا زيَّان .

ولم يطل ترده فيما يجب اتخاذه من الإجراءات ، أمام تدهور الوضع في منطقة شلف ، ورجوع الجيش فاقداً معنوياته . ففي (4 ذي الحجة 765 هـ) ، أرسل عثمان بن مسلم ، أخا الوزير الفقيد « للقاء العساكر والربط من جاشها »⁽¹⁾ وفي 8 ذي الحجة ، بعث لمساعدته جيشاً آخر بقيادة ابنه أبي تاشفين .

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 146 .

ثم خرج أبو حمّو نفسه في 11 ذي الحجة، في اتجاه الأعداء وعندما قرب من البطحاء، لقي جيوشه راجعة، فثناها عن وجهتها وأقام عسكره بالبطحاء، بينما كان جيش أبي زيّان القبسي مستقراً بإغيل ايزان، قريباً منه .

وفي 25 ذي الحجة وقعت معركة البطحاء، التي شنّها أبو زيّان وجمّوعه على جيش أبي حمّو، فانهزم هذا شرّاً هزيمة، وغادر ساحة الحرب تاركاً متاعه للعدو، فما وسع أبا حمّو إلا أن جمع حرمه وأمواله، وقصد عاصمته ينبغي النجاة .

وعندئذ ضرب أبو زيّان وأنصاره خيام معسكرهم بالبطحاء، بينما انطلق أحمد بن رحو، شيخ أولاد حسين، وراء أبي حمّو، يريد إلقاء القبض عليه، والقضاء على أمره، قبل أن يصل الى تلمسان، مفتتناً فرصة هذا النصر المفاجيء . فاعترض له بسيف، واضطر أبو حمّو والفريق الذي كان يحفّ به من أخلص أوفياؤه، الى مواجهة أحمد بن رحو ومن معه، وشاء القدر أن ينجو أبو حمّو مرة أخرى، وقد أشرف على الهلاك، وذلك أن أحمد بن رحو سقط من فرسه، فصكه بين عينيه، وقتله أتباع أبي حمّو، فكفّ حينئذ أصحابه عن القتال وعادوا أدراجهم، بينما تابع أبو حمّو طريقه الى تلمسان، فدخلها في (28 ذي الحجة 765 هـ) .

أما أبو زيّان القبسيّ وأنصاره أولاد حسين وسويد وبنو عامر ، فإنهم ساروا في أثر أبي حمّو ، متجهين نحو تلمسان ، عازمين على اقتحامها ، وكان لأولاد حسين حظوة لدى الأمير أبي زيّان ، فكان هذا يشاورهم في أموره ، ويطمئن إلى رأيهم ، دون بني عامر ، مما جعل هؤلاء يغضبون من هذا التصرف ، ويسخطون من « استيداد المعقل (أولاد حسين) عليهم » (1) .

وكان خالد بن عامر ، شيخ بني عامر ، آنذاك ، معتقلا في تلمسان ، بأمر من أبي حمّو ، فرأى السلطان إطلاق سراحه ، وشرط عليه أن يصرف قومه عن طاعة أبي زيّان ، ولم يجد خالد أية صعوبة في الوفاء بما التزم به ، إذ كان الشقاق قد دبّ في صفوف أنصار أبي زيّان ، أي بين أولاد حسين وبني عامر .

ولما ضرب أبو زيّان ، وجمعه من المعقل وسويد ، خيامهم بذرّاع الصابون ، من ظاهر تلمسان (24 محرم 766 هـ) ، نزل بنو عامر بوادي يسّر ، ثم انصرفوا نحو الصحراء ، آخذين على ثنية فرتون ، طريقهم المعتادة إلى الجنوب .

وباختزال بني عامر عن أبي زيّان القبسيّ ضعف حزبه ، وانتهى

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 266 .

أمره بانفضاض جموعه من حوله بدون قتال ، والتحققت حاشيته من وجهاء بني عبد الواد بأبي حمّو ، بعد أن عفا عنهم .

نتائج هزيمة البطحاء :

وهكذا استطاع أبو حمّو أن يجعل حداً لمنافسة أبي زيان القبّسي ولقيام معظم فرق قبيلة زغبة بجانبه ، بما بذله من أموال وإقطاعات ، إلا أنه ، بعمله هذا ، فتح باباً يؤدي إلى إضعاف دولته ، ويسير بها حتماً إلى التفكك والانهيار ، وبعد ست سنوات من ابتداء حكمه ، بدأت الأوضاع السياسية تعرف تطوراً خطيراً وأخذت الدولة العبد الوادية تتنازل عن امتيازات هامة لفائدة عرب زغبة ، وكانت هذه الفترة الأولى من عهد أبي حمو أقوى فترات إمارته ، شملت سلطته فيها مجموع بلاد المغرب الأوسط ، واستطاع أثناءها أن يعيد إلى الدولة الزيانية رونقها وقوتها ، وكانت القبائل المختلفة لا تشكل خطراً كبيراً بالنسبة لعرشه ، إلى أن انهزمت جموعه بالبطحاء ؛ وعندئذ اتضح لعرب زغبة ما يمكن لهم أن يستفيدوه من خلال مساهمتهم في الحرب القائمة بين أبي حمّو ومنافسيه من قبيلته أو أسرته ، بالإغتيال إلى جانبه أو بتأييد خصومه ، وكان بين العوامل التي شجعتهم على السير في هذا السبيل ، ما ظهر أثناء معركة البطحاء من ضعف القيادة العسكرية لجيش أبي حمّو ، وقلة ثبات أنصاره من العرب في الحرب .

وقد نتج عن هزيمة البطحاء تضاؤل نفوذ أبي حمو في المناطق

الشرقية ، وانضمام العرب المتمركزين بها إلى أبي زيان القبّسي ،
معربين بذلك عن ارتياحهم لفشل السلطان الزيّاني، وعازمين على العمل
للقضاء على إمارته ، إذا امتنع من إرضاء مطالبهم .

ولا شك أن أبا حمّو قد أدرك الغرض من انخيازهم لمنافسه فما كان
منه إلا أن قام بتلبية رغباتهم ، لتجنّب خطرهم ، والاستراحة
من فتنتهم .

غير أن هذه الطريقة في معالجة فتنة العرب ، فتحت الباب على
مصراعيه أمام طمعهم في الإستيلاء على الأراضي الغنيّة ، والحصول على
إقطاعات واسعة على حساب المملكة العبد الوادية .

وستكون مواقف العرب كلها مستوحاة من هذه الأغراض ، متّسمة
بهذا الطابع الذي اصطبغت به مواقفهم السياسية في ذلك العصر ،
والذي يهدف إلى إثارة الفتنة للضغط على السلطان ، ونيل ما تصبو
إليه نفوسهم .

وبعد أن تمكن أبو حمّو من إحباط محاولة أبي زيان القبّسي ،
اعتقد أنه حسم مادة الخلاف في بلاده ، وبدأ يتطلّع إلى منطقة الحدود
الشرقية ، ويفكر في معالجة شؤونها ، ومدافعة هجوم أمير بجاية
الحفصيّ عليها .

نهوض أبي حمو إلى بجاية :

وذلك أن الأمير أبا عبدالله الحفصي ، كان قد استولى على بجاية سنة (765 هـ) ، ثم اغتتم فرصة هزيمة أبي حمو في البطحاء للاستيلاء على تدلّس ، وإجلاء بني عبد الواد عنها⁽¹⁾ . وعندئذ أنهض أبو حمو وزيره عمران بن موسى لاسترجاعها ، فحاصرها أياماً ، ولكنها امتنعت عليه ، وعاد إلى تلمسان من دون أن تسفر مهمته عن أية نتيجة (أوائل 766 هـ) .

ولكن الأمير أبا عبدالله تعرض ، في تلك الأثناء ، إلى هجمات ابن عمه أبي العباس ، أمير قسنطينة ، الذي هزمه مرتين ، الأولى بفرض جيوّة ، في آخر سنة (766 هـ) ، والثانية قرب سطيف ، في أوائل سنة (767 هـ) ، ولم يستطع أبو عبدالله أن يواجه الحروب في الجبهتين الشرقية والغربية فآثر أن يغير موقفه إزاء أحد الجانبين ، ليستعين به على مقاومة الآخر⁽²⁾ .

وعزم أبو عبدالله على تحسين علاقاته مع أبي حمو ، وتسوية الخلاف الذي نشأ بينهما في شأن تدلّس ، فتنازل له عنها ، وأصر له في إحدى بناته ، وتمّ زفافها في أوائل ربيع الثاني (767 هـ)⁽³⁾ .

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 267 .

(2) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 267 - 268 .

(3) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 166 ، كتاب العبر ، ج 7 ، ص 268 .

إلا أن الأحوال لم تتحسن في إمارة بجاية ، ولم يفتأ الوضع يتدهور بها إلى أن أغار أبو العباس على بجاية ، فاحتلها في (20 شعبان 767 هـ) ، وتقبّض جنوده على أبي عبدالله ، فقتلوه (1) .

وعندئذ رأى أبو حمو أن الفرصة سنحت له في الزحف إلى بجاية ، فنهض إليها في جيش قوي ، مظهراً أنّه يريد الثار لصهره الأمير أبي عبدالله (شوال 767 هـ) ، وكان بعض أهالي بجاية قد كاتبوه آنذاك ، ووعدوه بالمساعدة على افتتاحها (على لسان المشيخة من أهل البلد) (2) ، وكان معظم جيش الأمير أبي العباس ، بقيادة مولاة بشير ، مستقراً بقسنطينة ، فظهر لأبي حمو أن الظروف ملائمة لنجاح محاولته .

وزحف السلطان الزيّاني في اتجاه بجاية ، أما أبو العباس الحفصي فإنه ، حيناً علم بحركة أبي حمّو ، استقدم القائد بشيراً بجيشه ، وطلب منه أن يضم إليه الأمير أبا زيان ابن السلطان أبي سعيد ، الذي كان آنذاك رهين السجن بقسنطينة .

واصطدم أبو حمّو بجيش القائد بشير ، قبل أن يصل إلى بجاية فالتقى الجمعان ، وأبدى جيش قسنطينة مقاومة شديدة ، منعت الجيش العبد الوادي من أن يلحق به الهزيمة ، ويتضي عليه ولما شاهد أبو حمّو

(1) أنظر كتاب العبر ، ج 6 ، ص 858 - 859 ، التعريف ، ص

105 - 106 ، بغية الرواد ، ج 2 ، ص 159 - 160 .

(2) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 270 .

ما لم يكن ينتظره من استعصاء قوة أعدائه ، ألقع عنهم ، وراح يضرب الحصار على بجاية ، ظاناً أنه يفتحها بعد قليل بمساعدة الساخطين على أبي العباس من سكان بجاية .

ولكن أمل أبي حمّو لم يتحقق ، ولم يحرز على النصر الذي كان يرجوه ، بل أصبح جيشه بين ثارين ، فتراجع أتباعه العرب ، واختلّ نظام عسكره ، وانقلب هجومه الى هزيمة شنعاء ، أسر وقتل فيها كثير من جنوده وهام كثيرون على وجهم ، والتحق الباقون بمنافسه أبي زيان فلم يسع أباحمّو إلاّ الفرار بنفسه، تاركاً للعدو حرمة ، وكثيراً من المال والعتاد ، فكانت أكبر هزيمة عرفها أبو حمّو في حياته (8 ذي الحجة 767 هـ) . ولما اقتسمت السبي والغنائم ، كان من نصيب أبي زيان ، إحدى نساء أبي حمّو ، وهي ابنة يحيى بن أبي بكر الزابى وكانت أعز نسائه اليه . (1)

وقد نتج عن هزيمة بجاية المشؤومة ، أن تقوى أبو زيان ابن عم أبي حمّو ومنافسه بما انضم اليه من الجيش المهزوم ، وأعلن عرب المناطق الشرقية تأييدهم له ، فأصبح أبو زيان يحتلّ ، لأول مرة ، منزلة هامة في المغرب الأوسط ، وصار بإمكانه أن يطالب بعرش أبيه معتمداً على قوى لا يستهان بها وأتباع كثيرين .

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 - ص 270 - 271 ، بغية الرواد ، ج 7 ص 182 - 183 .

ولا شك ان هزيمة بجاية أضعفت أبا حمو بصفة محسوسة، فثبّطت عزائم أنصاره ، وشتتت شملهم ، وقضت على كثير من أبطال فرسان بني عبد الواد ، وقد نتج عن ذلك أن ضعف نفوذ أبي حمو في كثير من نواحي المغرب الأوسط، وزالت هيئته من نفوس قبائل العرب، واتضح للجميع أن الجيش العبد الوادي أحوج ما يكون الى قيادة عسكرية ذات كفاءة وخبرة، وأنه منذ وفاة ابن مسلم لم يجد قائدا يتولى تنظيمه، ويسهر على إحكام الخطة الحربية ، ويسير به الى النصر .

وأخذت قبائل العرب في المغرب الأوسط توجه أنظارها نحو أراضي التل الخصبية ، وترى أن الفرصة قد سنحت لها للاستيلاء على تلك الأراضي ، وإغناء ماشيتها وأموالها ، بعد أن ذاقت حياة الشظف والعناء في الجنوب . وفهم عرب زغبة أن الوقت قد حان لتدققهم على السهول الشمالية الخضراء كالسيل ، يكسح في طريقه كل الحواجز التي تحاول إيقافه ، أو تمنعه من التقدم .

منافسة الأمير أبي زيان لابن السلطان أبي سميد :

وسرعان ما انحازت الى جانب أبي زيان قبيلة حصين ، من زغبة ، وكانت تقطن ناحية تيطري الجبلية، وقد سئمت دفع الضرائب للسلطان أبي حمو ، « فار تكبوا صعب الشقاق لمغبة العز ، وبايعوه على الموت

الأحمر ، ووثقوا بمعصمهم من جبل تيطري ان دهمهم عسكر
السلطان ، ، (1) ،

وانتهز أبو زيان وأتباعه من حصين ، فرصة هزيمة أبي حمّو ،
وتضعع جيشه للزحف الى المدية، في أول سنة (768 هـ) فتغلبوا على
حاميتها ، واستولوا عليها بعد ان حاصروها أياما ، وكان بها وزراء أبي
حمّو ، عمران بن موسى اللؤلؤي ، وابن برغوث ، ووادفل بن عبو ،
وبعض مشيخة بني عبد الواد ، فاطلق أبو زيان سراحهم (2) .

ولم يستسلم أبو حمو الى اليأس ، بعدما أصابه من فشل وخيبة فأمر
بجمع الجيوش ، وأرسل الوزير ابن برغوث في جند بني عبد الواد وبني
توجين وبني راشد ، كما بعث القائد عطية بن موسى في جند ناحية شلف ،
ثم أنهض الوزير عمران بن موسى بجند مدينة تلمسان . وبعد ذلك بقليل ،
أرسل ولده الأمير أبا تاشفين لاستجاشة سويد والديالم والعطاف ، وسد
الثنايا في وجه الثوار لمدافعتهم عن الأراضي الخاضعة للسلطان . (3)

فلم ير أبو زيان أحسن طريقة لمقاومة هذه العساكر العديدة من

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 271 ،

(2) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 271 - 272 ، بغية الرواد ،
ج 2 ص 184

(3) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 185 .

مغادرة المديّة ، والاعتصام بجبل تيطرّي ، فتبعته جيوش أبي حمو ، وحاصرته في معقله مدة ، وأخيراً فوجئت هذه ليلًا بهجوم الثوار ، فاضطرب أمرها وانهمزت أمامهم تاركة الأخبية والذخائر ، فاعتسم عمران بن موسى بالمديّة ، وابن برغوث بمليانة ، وتقهر جيش أبي تاشفين « بمرحلة أو اثنتين » ⁽¹⁾ ، (أوائل ربيع الثاني 768 هـ) ،

ومما زاد في تدهور موقف أبي حمو ، أن جيشاً آخر ، كان بعثه برئاسة عثمان بن مسلم الزردالي لمؤازرة ابنه الأمير أبي تاشفين ، التحق بالثوار ، وقصد جبل تيطري عبر جبل وانشريس ، فقوي بذلك ساعد أبي زيان ، واستفحل أمره ، وانطلق ، من جديد ، صوب المديّة فحاصرها .

وعندئذ توجه ابن برغوث من مليانة نحو أبي زيان لصدّه عن المديّة ، بعد أن وآفته الأمداد من العاصمة ، إلا أنه انهزم أمام الثوار ، وتراجع ، مع عمران بن موسى نحو تلمسان ، بعد أن أسلمهم مليانة والمديّة (أواخر ربيع الثاني 768) ⁽²⁾ .

وكان لاستيلاء الأمير أبي زيان على المديّة ومليانة ، وظهوره على جيوش السلطان أبي حمو ، وقع كبير في المنطقة الشرقية من المملكة

(1) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 185 - 186 .

(2) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 194 .

الزيانية فانضمت الى أبي زيان سائر القبائل التي كانت تريد استرجاع استقلالها وسمت طاعة العرش العبد الوادي، وفي مقدمتها قبيلة الشعالبة، من المعقل، وكانوا قاطنين سهل مَتَّيْجَة . وتبعهم أهل الجزائر، في بيعة أبي زيان، وخلع طاعة أبي حمّو⁽¹⁾،

وحينئذ نهض أبو حمّو بنفسه، وخرج من تلمسان في (27 جمادى الأولى 768 هـ) فجمع ما قدر عليه من الجنود، وبثّ رسله في قبائل العرب يعرض عليهم الأموال والاقطاعات . ثم مر بقلعة بني سلامة حيث كان مقر أبي بكر بن عريف، شيخ سويد، فطلب منه مشايعته ضد أبي زيان (شعبان 768 هـ)، وانضم إليها خالد بن عامر وقومه .

ولكن هذا الحلف لم يلبث أن افترق شمله، وذلك أن أبا بكر بن عريف وخالد بن عامر انفصلا عن أبي حمّو، بعد قليل فطاردهما قصد إرغامها على طاعته، وتبعهما الى ناحية جرجرة . ووادي الدوم، ولكنه لم يظفر بشيء، وعاد أدراجه الى تلمسان، بعد أن شنوا عليه الغارة، وهزموا عسكره، ونَهَبُوا ذخائره .⁽²⁾

ثم التحق بنو عامر وسويد والديالم والعطاف بأبي زيان، فاعتقد أن

(1) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 272 ، بغية الرواد ، ج 2 ص 194 - 195 .

(2) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 272 ، بغية الرواد ، ج 2 ، ص 196 .

الأمر صار هينا ، وأن أيام أبي حمّو أصبحت معدودة ، فقصّد تلمسان والمدن في طريقه ، تنحاز الى جانبه (كتنس ومستغانم ومزغران ووهران)⁽¹⁾ ، الى أن بلغ وادي مينا ، فعسكر قرب البطحاء منتظرا قدوم أبي حمّو وعازما على القضاء عليه .

أما السلطان العبد الوادي ، فأنه خرج من تلمسان في (6 ذي القعدة 768 هـ) ، وأمر أتباعه ، المقيمين آنذاك بتاسالة ، بالتوجه نحو البطحاء ، وعندما بلغ معسكر أبي زيان ، انقضّ على مقدمة جيشه بغتة ، فتراجعت مهزومة ، وأحدث ذلك قلقا واضطرابا وسط باقي جيش أبي زيان وأحلافه ، فانفضّوا من حوله ، وغادروا ساحة الحرب ، وانصرفوا إلى مناطقهم المختلفة⁽²⁾ .

ثم وفد شيوخ سويد والديالم والعطّاف على أبي حمّو ، والتمسوا منه العفو ، وأعربوا له عن إذعانهم لطاعته ، كما بعثت المدن بيعاتها إلا مدينة الجزائر⁽³⁾ . وانقلب الوضع ، فبينما كان أبو حمّو ، عندما غادر عاصمته ، يقوم بمحاولة يائسة للدفاع عن عرشه ، أصبح بعد انتصاره في البطحاء يطارد عدوه ، ويسترجع نفوذه في المنطقة الشرقية .

(1) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 196 .

(2) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 197 - 198 .

(3) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 198 .

وتوجه أبو حمّو ، عبر ناحية شلف ، إلى بـسيط مليانة (محرم 769 هـ) ، فافتتحها ، وأصلح أحوالها وحصّنها . وبعث رسله إلى الدواودة ، من رباح ، للتفاوض معهم في عقد حلف معهم ، وكانت الدواودة في نزاع مع الأمير أبي العباس الحفصي ، صاحب قسنطينة وبجاية ، واتفق معهم ، للحركة على الأمير أبي زيان وبعدها إلى بجاية ، (1) . وبهذا أصبح لأبي حمّو أنصار جدد يستعين بهم على مواجهة عدوه ، ثم عاد إلى عاصمته في (15 ربيع الثاني 769 هـ) ، ومرة أخرى ، اعتصم أبو زيان وانصاره من حصّين بجبال تيطرّي .

ثم قرر أبو حمّو العمل للقضاء على ثورة ابن عمه أبي زيان ، فنهض بجيشه ، (7 شعبان 769 هـ) ، متوجها نحو المنطقة الشرقية ، وبدأ بالسير إلى الجنوب قاصداً خالد بن عامر وأبا بكر بن عريف وقومهما ، ففروا أمامه إلى الصحراء ، ثم قصد مع أحلافه الدواودة جبال تيطرّي ، حيث انضم إلى منافسه أبي زيان بنو عامر وسويد ، وحاول أبو حمّو ضرب الحصار عليهم ، إلا أن هؤلاء لم يهلوه وهاجموه بعنف ، فاقتتل جيشه وانهمز شر هزيمة ، ولجأ بنفسه إلى تلمسان عن طريق الجنوب ، ورجع الدواودة إلى بلادهم (شوال 769 هـ) . (2)

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 272 - 273 .

(2) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 273 ، بغية الرواد ، ج 2 ، ص

ومرة أخرى ، أصبح موقف أبي حمّو يدعو الى القلق ، وسنحت الفرصة من جديد لأبي زيان في الزحف الى تلمسان ، ووضعت بجانب السلطان الزياني وقل أتباعه بما حدث من هزيمة أحلافه الدواودة وانصرافهم الى أوطانهم ، وتراجع جيشه ، يتبعه أبو زيان وأحلافه ، وتوغّل في البلاد الى أن بلغوا سيرات ، قبلّة مستغانم .

وحينئذ رأى أبو حمّو أن يلجأ ، مرة أخرى ، الى الدهاء والوسائل السياسية ، بعد أن فشلت محاولته العسكرية ، فعمل على إبعاد الأتباع عن أبي زيان ، وفي مقدمتهم خالد بن عامر ، فأرضاه بالأموال والاقطاعات ، وبأدر خالد بالانفصال عن أبي زيان والانحياز الى أبي حمّو ، وانفضّ كثير من القبائل الأخرى من حول أبي زيان ، فعاد الى معتصمه بالمنطقة الشرقية ، في ذي الحجة (769 هـ) .⁽¹⁾

وكان أشياخ سويد قد التزموا بإخراج أبي زيان ، حليفهم السابق من القطر ، وفي أوائل (770 هـ) ، وفد محمد بن عريف السويدي على أبي حمّو فغفا عنه ، وبعث معه الوزير عمران بن موسى « للحاق بأبي بكر بن عريف لاستقصاء الشرط الذي التزمه في أبي زيان » .⁽²⁾

ولكن هذا الأخير عاد ، في شوال (770 هـ) ، الى جبال تيطرّي ،

(1) انظر كتاب العمر ، ج 7 ، ص 274 ، بغية الرواد ، ج 2 ، ص

(2) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 207 - 208 .

بمساعدة أبي بكر بن عريف وبعض أنصاره ، وخشي أبو حمّو ، مرة أخرى ، أن يستفحل أمره ، فنهض في ذي القعدة (770 هـ) الى الشرق بجميع ما كان لديه من الجيوش ، وبعث الوزير عمران بن موسى الى أشياخ القبائل لياتيه بهم مدعين للطاعة ، وعندما نزل أبو حمّو بالبطحاء ، أتاه عمران بن موسى بنحمد بن عريف ، وسعد بن العباس الديلمي ، فغضب أبو حمّو لتأدي الكثير من عرب المنطقة الشرقية في مدّ يد المساعدة لمنافسه أبي زيان ، ومن بينهم أبو بكر بن عريف ، وعزم على انتهاج سياسة الشدة والحزم ازاء بني سويد واحلافهم ، بعد أن أخفقت سياسة اللين والمداهنة ، وحثه على اتخاذ هذا الموقف خالد بن عامر ، عدو سويد اللدود ، فنكب أبو حمّو وزيره عمران وأجازه الى الاندلس ، وأمر بسجن محمد بن عريف وسعد بن العباس (في ذي الحجة 770 هـ)⁽¹⁾.

وهذا الاجراء ، إن دلّ على شيء ، فإنما يدلّ على الدور الهام الذي أصبح يلعبه بنو عامر في الدولة العبد الوادية ، وعلى ما قد ينجم عن ذلك من العواقب الوخيمة على العرش العبد الوادي ، وذلك أن تحالف أبي حمّو معهم يقتضي معاداة خصومهم ، وبالدرجة الأولى قبيلة سويد ، ولا شك أن هذه الوضعية أفقدت أبا حمّو سلطته المطلقة وهيمنته على سائر قبائل القطر ، فأصبح سلطان فئة ، وخصم فئة أخرى ناصبته عداءها ، وأبت الا مناصرة منافسه أبي زيان

(1) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 222 - 223 ، كتاب العبر ، ج 7 ص 274 .

وقد سبق لنا أن ذكرنا دور بني عامر بعد معركة البطحاء ومغادرتهم صفوف أنصار أبي زياد ، بعد أن آزروه وأيدوه ، مما أدى الى تراجع جموعه وانفراضهم من حوله .

وكانت سويد ، في هذه المواقف ، أصعب انقياداً من بني عامر وأشد حذراً منهم ، فبينما كان محمد بن عريف يذعن لطاعة أبي حمّو ، كان أخوه أبو بكر متادياً في عصيانه ، والظاهر أنه لم يثق بأبي حمّو ، وخشي أن يقع في فخّ ، ينصبه له أبو حمّو وبنو عامر ، فلم يرضَ اللحاق بالسلطان ، والمثول أمامه ، ولا سيما أن عدوه الأكبر خالد بن عامر ، كان بجانب أبي حمّو ، يدلي برأيه في شتى المواقف ، وكان السلطان يستشيريه ولا يرد له طلباً ، ويعمل بنصائحه لإرضائه وكسب طاعته ، فكان من الطبيعيّ أن يرتاب أبو بكر بن عريف من صدق وعود أبي حمّو ، وأن يخشى على نفسه إذا ما وفد عليه ، وكان قد سبق لأبي حمّو ، مراراً ، أن أمر بسجن من كان يخشى شرهم ، كزيان بن أبي يحيى الراشديّ ، وخالد بن عامر ، وعبدالله بن سقيير ، ومحمد بن عريف ، وغيرهم .

وقد نتج عن موقف أبي بكر بن عريف هذا ، أن غضب أبو حمّو على قومه سويد ، وأغراه خالد بن عامر عليهم ، فأغار أبو حمّو على أراضي سويد في أوائل صفر (سنة 771 هـ) ، وانتسف قلعة بني سلامة وكانت أهم مقر لهم ⁽¹⁾ ، وإثر ذلك غادرت سويد المغرب الأوسط

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 274 - 275 .

وانصرفت إلى المغرب الأقصى ، حيث سعت في إفساد العلاقات بين بني مرين وبني عبد الواد ، فكان ذلك من أهم العوامل التي أدت إلى حركة السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن المريني إلى تلمسان ، واستيلائه عليها (أوائل 772 هـ) .

وهنا تنتهي مرحلة أخرى من عهد أبي حمّو، دامت أيضاً ست سنوات وامتازت بتلاشي نفوذ قبيلة بني عبد الواد ، وسيطرة عناصر قبيلة زغبة على الموقف ، سواء في شرق القطر أو في غربه ، وأصبح الصراع القديم بين بني عامر وسويد يحتل المكانة الأولى في الحياة السياسية . أما المنافسة بين أبي زيات وأبي حمّو ، فإنها لم تستمر إلا باستمرار صراع بني عامر وسويد .

استيلاء السلطان عبد العزيز المريني على المغرب الأوسط ،

كان لتخريب أبي حمو قلعة بني سلامة وقع سيّئ في نفوس سويد، فعزموا على الثار لما أصاب أهل القلعة من إخوانهم ، والتحق أبو بكر ابن عريف ، مع قومه وأحلافهم من الديالم والعطاف ، بالمغرب الأقصى ، مستغنياً بالسلطان عبد العزيز المريني ، وكان أخوه وتزمار يحتل منزلة هامة في البلاط المريني ، فبذل كل جهده في إقناع السلطان عبد العزيز ، ورغبه في الإستيلاء على تلمسان والمغرب الأوسط ، الأمر الذي يرفع من شأنه وشأن الدولة المرينية ، ويمكن سويد من الثار لقبيلتهم ، وفكّ إisar محمد بن عريف .

وكان عبد العزيز آنذاك نائماً على أبي حمّو ، لأن هذا الأخير كان قد حصل على خدمة المعقل ، الخارجين عن طاعة بني مرين ، وبعث اليه عبد العزيز مراراً في شأنهم ، فلم يلب طلبه .

وبعد مدة ، حصل ونزمار وأبو بكر ابننا عريف على موافقة السلطان المريني ، فأمر هذا بحشد الجيوش ، وبعد قضاء عيد الأضحى لسنة (771 هـ) ، ارتحل بها متجهاً نحو تلمسان .

وعندما اتصل أبو حمّو بالخبر ، كان معسكراً بالبطحاء ، فاغذّ السير نحو عاصمته ، وأجال الفكر مع مستشاريه ، فاستقر رأيهم على مغادرة تلمسان بالجيش والذخائر ، والاتجاء إلى الجنوب الشرقي من القطر .

وفي غرة محرم (772 هـ) ، خرج أبو حمّو من تلمسان مشرقاً ، والتحق ببني عامر ، ثم أخذ يترقب أخبار بني مرين ، أما عبد العزيز المريني ، فإنه احتل تلمسان في (10 محرم 772 هـ) ، وسرّح وزيره أبا بكر بن غازي بن الكاس في أثر أبي حمّو ، الذي كان قد بلغ البطحاء ، وفي تلك الأثناء التحق ونزمار بن عريف مع قومه وأحلافهم بابن الكاس ، وساروا جميعاً لمطاردة أبي حمّو وبني عامر .

وكان هؤلاء قد اتجهوا نحو الزاب ، إلى أن حلّوا ظاهر قرية الدوسن ، قريباً من نهر شدّي (نهر جدّي حالياً) ، فحاول أبو حمّو

استمالة أولاد محمد، من رباح، إلى جانبه ، وعندئذ فاجأهم الجيش المريني، ففرّ بنو عامر أمام العدو ، فانهمز أبو حمّو ومن بقي معه هزيمة كبرى ، وترك معسكره وأمواله وذخائره للعدو ، وانسحب عن ساحة الحرب ، في اتجاه الجنوب ، ينبغي النجاة (أوائل ربيع الأول 772 هـ) (1) .

ومنذ ذلك الزمان ، كانت المحنة الكبرى عبر الصحراء ، والعناء الشديد في تلك المناطق الشاسعة ، وجنود بني مرين تتعقب السلطان الزيّاني وأهله وأتباعه ، غير أنه تمكن من اتقاء شرّهم وشرّ سويد ، رغم ما بذله هؤلاء من جهود لمطاردته .

وفي أواسط سنة (773 هـ) ، أرسلت فرقة من قبيلة ذوي عبيد الله ، من عرب المعقل ، يبيعنها إلى أبي حمّو ، معلنة بذلك خلع طاعة السلطان المريني ، وأخذت تغير على نواحي وجدة ، وتخرب عمرانها ، وتفسد مزارعها .

وفي تلك الأثناء كانت حصّين تغير على ناحية المديّة ، وكان حمزة بن علي بن راشد قد ثار في ناحية شلف ، فانتسعت رقعة الفتنة في المغرب الأوسط ، على بني مرين ، وعاد أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد إلى تيططري ، باستدعاء من حصّين .

(1) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 277 ، بغية الرواد ، ج 2 ، ص 239 .

وعندئذ قرّر أبو حمّو وأتباعه الإغارة على ناحية تلمسان ، فتوجّهوا نحو الشمال ، قاصدين التل ، ولكن بني مرين داخلوا خالد ابن عامر في شأن الالتحاق بهم ، والانفصال عن أبي حمّو ، ووافق ذلك فتوراً في العلاقات بين خالد وأبي حمّو ، فانخزل شيخ بني عامر مع كثير من قومه عن أبي حمّو ، وتبعهم الوزير عمران بن موسى وغيره من وزراء أبي حمّو ، منحازين إلى الجانب المريني .

ولم يشأ أبو حمّو أن يتراجع عن محاولته تلك بعدما حدث في صفوف رجاله من تخاذل ، بل تابع سيره نحو عاصمته ، قاصداً عدوه ، ومواجهاً ما كان في تلك المنطقة من القوات المرينية ، فلقبها بأوماكرا ، ولكنه انهزم شر هزيمة واستولى العدو على طعنه (بما اشتمل من مال وذخيرة وأهل وولد) ، وأفلت أبو حمّو من المعركة مع ابنه أبي تاشفين وقليل من الأقرباء والأتباع (25 شوال 773 هـ) .⁽¹⁾

ثم عاد أبو حمّو إلى تجواله في القفر ، فذاق الأمرين ، وصعب عليه الخلاص من برائن خصومه ، فاضطر إلى مفارقة أبنائه مدة ، ثم اجتمع بهم في قصر أبي سمعون ، الواقع في أراضي بني عامر الجنوبية (أواخر ذي القعدة 773 هـ) ، وقصد بهم الصحراء ، فراراً من العدو ، واستقر أخيراً بتيقورارين ، في جنوب الصحراء ، مما يتأخّم بلاد

(1) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 256 ، كتاب العبر ، ج ، ص 278 -

السودان ، بعد أن ترك أبناءه في أحياء بني عامر (آخر سنة 773 هـ) .
وكان السلطان عبد العزيز قد اتخذ تلمسان مقراً له ، وبها أصيب ،
في تلك الأثناء ، بداء خطير ، توفي منه في (22 ربيع الثاني 774 هـ) (1) .
فاضطربت أحوال العرش المريني ، وانتقل رجال الدولة إلى فاس ،
تاركين على تلمسان أحد أمراء بني عبد الواد ، هو إبراهيم ابن السلطان
أبي تاشفين الأول .

غير أن إبراهيم هذا لم يسيطر على الموقف ، إذ اصطدم بأحد موالى
أبي حمّو ، يدعى عطية بن موسى ، الذي عمل على طرده من تلمسان ،
وملك زمام الأمر بها باسم السلطان أبي حمّو .

وسرعان ما بلغ الخبر أبا حمّو الثاني ، في منغاه البعيد ، فانفجرت
عنه الشدة ، ورحل عائداً إلى عاصمته ، فدخلها في (24 جمادى الأولى
774 هـ) ، بعد غيبة دامت سنتين ، تعرّض أثناءها إلى أخطار لا تحصى ،
كادت تذهب بعرشه ، وتودي بحياته وذاق فيها ما لم يذقه معظم الأمراء
والسلاطين من المشقة والعناء (2) .

(1) انظر بغية الرواد ، ج 2 ص 259 ؛ كتاب العبر ، ج 7 ، ص 698
- 699

(2) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 270 - 274 ، كتاب العبر ، ج 7 ،
ص 281 .

ومرة أخرى ، وجد أبو حمو نفسه أمام مشاكل عديدة ، فكان أحد أمراء أولاد منديل ، علي بن هارون ، قد انتصب أميراً بناحية شلف ، بمساعدة بني مرين ، وأخذ يجمع شتات إمارة أجداده ، ويحاول إحياءها من جديد ، وعاد أبو زيان من منفاه بوارقلة ، قاصداً أنصاره حصين بجبال تيطـرـي ، وعاملاً على استرجاع نفوذه السابق في المنطقة الشرقية .

وكان ونزمار بن عريف قد نصح أخويه أبا بكر ومحمد بالتحالف مع أبي حمو ، واغتنام فرصة خديعة خالد بن عامر لإحلال سويد محل بني عامر في « مخزن » الدولة العبد الوادية ، ووافق ذلك حنق أبي حمو على خالد بن عامر وقومه ، فعمد إلى تغيير سياسته تجاه قبائل زغبة ، وأصبح يعهد إلى سويد مهمة الدفاع على كيان دولته .

الخضاع للمنطقة الشرقية :

وبدأ أبو حمو بتوجيه جيوشه ، بقيادة عطية بن موسى إلى ناحية شلف (أواخر جمادى الأولى 774 هـ) ، ولم يقوَ علي بن هارون على مقاومة هجوم عطية بن موسى ، فراح يستغيث بأعداء أبي حمو ، وتحالف مع خالد بن عامر وقومه ، وقبيلة توجين ، وغيرهم ، وفي رجب (774 هـ) ، هاجم بعض هؤلاء الأحلاف جيش عطية بن موسى ،

وأرغوه على الالتجاء إلى تنس ، فحاصروه بها ، بينما اتجه خالد بن عامر وأتباعه صوب تلمسان ، قصد الاستيلاء عليها .

وكان رد فعل أبي حمّو أن أرسل جيشاً معزّزاً بأحلافه الجدد من سويد ، بقيادة ابنه الأمير أبي تاشفين ، لصد خالد ، فانهمزم هذا الأخير ، وانصرف بقومه إلى الصحراء (شوال 774 هـ) .

ثم تابع أبو تاشفين سيره إلى ناحية شلف لنجدة عطية بن موسى ، فرفع المخالفون من مغراوة الحصار ، واعتصموا بجبل بني بلسيت ، فاقتحمه عليهم ، وأوقع بهم ، وفرّ الكثير منهم إلى مّيجة (في ذي الحجة 774 هـ) (1) .

وفي أول (775 هـ) ، توجه الأمير أبو تاشفين بالجيش والأحلاف من سويد وغيرهم ، صوب الجنوب ، لرد عادية خالد بن عامر وقومه ، فأقام مدة بالسرّسو ، ثم عاد إلى ناحية شلف لغزو علي بن هارون وقبيلته مغراوة ، فعسكر بظاهر مازونة ، واعتصمت مغراوة بجبل زاتيمة ، فضايقهم أبو تاشفين ، واستمرت الحال على ذلك مدة أشهر ؛ وأخيراً لجأت مغراوة إلى الاستغاثة بأبي زيان ابن السلطان أبي سعيد وأنصاره حصين والديال والعطاف والشعالبية ، واجتمعت كلمة هؤلاء على مناجزة أبي تاشفين الحرب ، فقصدوا معسكره والتحم القتال ، فكانت الهزيمة

(1) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 279 - 280 .

على مغراوة وأحلافهم (رجب 775 هـ) ، وانصرف علي بن هارون بعد أن ذاق مرارة الفشل والخيبة ، بينما استقر أبو تاشفين بمازونة (1) .

و غادر السلطان أبو حمّو تلمسان ، في غرة شوال ، والتحق بابنه ، ثم توجه إلى تيمزوغت ، حيث أقام معسكره ، وأخذ يضايق مغراوة من جديد ، واستمرت الحال على ذلك إلى أوائل ربيع الأول (776 هـ) ، حيث تمكن أبو تاشفين من اقتحام المعقل الذي اعتصم به علي بن هارون ، والاستيلاء عليه ، ففر المغراوي إلى بجاية ، وركب البحر في اتجاه المغرب الأقصى (2) .

وبهذا الانتصار أذعنت المنطقة الشرقية إلى طاعة أبي حمّو ، فقويت شوكته ، واسترجع معظم ما كان له من النفوذ في المغرب الأوسط ، ولا سيما بعد أن أذعنت للطاعة الثعالبة وحصين ، وقد لعب محمد بن عريف دوراً هاماً في التوسط بين المخالفين وأبي حمّو والوصول إلى اتفاق يرضي الطرفين ، وقبل أبو زيان الانصراف إلى بلاد الدواودة ، على أن يدفع إليه أبو حمّو مبلغاً من المال ، وعاد أبو حمّو إلى عاصمته بعد أن حقق ، بفضل مساعدة سويد ، هذا الانتصار الكبير (جمادى الأولى سنة 776) (3) .

(1) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 281 - 282 ، 285 - 286 ، كتاب العبر ، ج 7 ، ص 282 .

(2) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 286 و 308 .

(3) أنظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 309 .

أما بنو عامر ، فلم يرضوا بجلائهم عن أراضيهم في المغرب الأوسط لفائدة سويد، وانتهاء نفوذهم في المملكة الزيانية التي أحيوها بعد الاستيلاء المريني ، ودافعوا على كيانهما مدة طويلة ، ولم تفلح مساعيهم في الحصول على مساعدة بني مرين ، فلما يشسوا من ذلك قرر عبدالله بن سقير وقومه العودة إلى أوطانهم ، والدفاع عنها بالقوة ، وانتهزوا فرصة غضب أبي بكر بن عريف ، عندما عزل أبو حمّو صديقه يوسف بن عامر بن عثمان عن إمارة وانشريس ، فاستألوه إليهم ، وبايعوا جميعاً الأمير أبازيان ، (وأوفدوا رجالاتهم عليه بمكانه من مجالات رياح ، فوصل معهم ونصبوه للامر) (1).

إلا أن جمهور سويد ومحمد بن عريف كانوا من جانب أبي حمّو فتوّجه ، في (أول سنة 777 هـ) ، في اتجاه المخالفين ، وزحف عبدالله ابن سقير وأبو بكر بن عريف وأتباعهما إلى مازونة ، قصد مفاجأة القائد عطية بن موسى ، ولكن محاولتهم لم تفلح وانهمزوا شر هزيمة (4 ربيع الأول 777 هـ) فافوسعهم قتلاً وأسراً ، وسلب طبل أبي زيان وأعلامه ، (2).

ولما اجتمع جيش أبي حمّو بجيش عطية وأبي تاشفين ، انفض أتباع أبي زيان من حوله ، وعاد عبدالله بن سقير إلى المغرب الأقصى ،

(1) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 284

(2) أنظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 329 .

وأصحرو أبو بكر بن عريف ، ثم عرض عليه أبو حمو ما أرضاه من المال والاقطاعات ، أما أبو زيان فإنه رجع إلى بلاد الدواودة ، وقد خاب أملة (ربيع الثاني 777 هـ) (1) .

الصراغ بين عامر وسويد :

ثم لم تنجح مساعي خالد بن عامر في الاستنجاد ببني مرين فغزم بنو عامر على الرجوع الى أراضيهم ، ومناجزة الحرب لسويد ، خصومهم الألداء . وغادروا المغرب الأقصى ، متجهين نحو المغرب الأوسط وعلمت سويد بنوأيامهم ، فأعدت لهم ما استطاعت من عدة ، واستنفرت حلفاءها العطفاء ، والسلطان أبا حمو ، فأمر ابنه أبا تاشفين المستقر انذاك بجبل هواره ، بالاستعداد لصرختهم .

ولما وصل بنو عامر الى أعالي نهر مينا ، توجه اليهم أبو تاشفين وضم جيشه الى سويد ، والتقوا ببني عامر في تلك الناحية ، في (2 ذي الحجة 777 هـ) ، فبات الفريقان في انتظار المعركة الحاسمة واستضاءوا بالنيرات ، مخافة البيات . وفي الصباح نشبت الحرب بين الفئتين ، وحمي الوطيس الى بعد الظهر فانهزم بنو عامر ، وقتل كثير من أبطالهم ، كعبد الله ابن سقير ، وأخيه ملوك ، والعباس بن موسى بن عامر ، وغيرهم (3 ذي الحجة) .

(1) أنظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 284 ، بغية الرواد ، ج 2 ، ص 328 - 330 .

وبهذا ، قطع دابر بني عامر ، وانتهى الحلف القديم بينهم وبين أبي حمّو ، وأصبح السلطان العبد الوادي ينهج سياسة جديدة تعتمد على مصادقة سويد ، واستعمال نفوذ هؤلاء في المغرب الأوسط لنيل طاعة قبائل المنطقة الشرقية ، ونفوذهم في المغرب الأقصى لإقامة السلم مع بني مرين .

الخضاع الشعالبة :

ولمّا أثر هذا الانتصار ، انتقض شيخ الشعالبة ، سالم بن إبراهيم ، على أبي حمّو (أول سنة 778 هـ) ، واتصل بخالد بن عامر وقومه فوافقوه على الخلاف ، واجتمعوا على البيعة للأمير أبي زيان ، وأقاموا له الدعوة بالجزائر ثم توجهوا إلى مليانة وحاصروها ، فامتنعت عليهم ، وعادوا إلى الجزائر ، وفي تلك الأثناء مرض خالد بن عامر وتوفي بها .

ثم نهض أبو حمّو بجيشه لاختضاع الشعالبة ، وتوجه صوب سهل متيجة ، فلاحوا إلى جبال تيطرّبي ، واعتصموا بها ، فحاصروهم وضيق عليهم إلى أن انتقادوا لطاعته ، وقبل مطالبهم على شريطة أن يفارقوا ابن عمه أبا زيان ويصرفوه عن البلاد (أواخر رمضان 778 هـ) (1) .

ولمّا انتهى أبو حمّو من تهدئة هذه المنطقة ، وعزم على الرجوع

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 280 .

الى عاصمته ، عين الوزير السابق ، ابن برغوث ، والياً على الجزائر ، ثم عقد على مليانة وأعمالها لابنه المنتصر ، وجعل معه أخاه الصغير عمير ، كما عقد على وهران لابنه أبي زيان . (1) .

ولم يرتض الأمير أبو تاشفين تعيين أبي زيان على وهران ، لأنه كان يريد ولايتها لنفسه ، فغضب لذلك ، وظهرت ، عندئذ ، منافسة شديدة على الحكم بين أبناء أبي حمو الثاني .

المنافسة بين أبناء أبي حمو الثاني :

كان لأبي حمو أبناء كثيرون ، ذكر أغلبهم يحيى بن خلدون ، فقال « وأبو تاشفين أكبر أولاد مولانا الخليفة ... الذين هم محمد المنتصر ، ومحمد أبو زيان ، ويوسف ، وعمر ، والناصر ، وعثمان ، وفارس وعبدالله ، وأحمد ، والسعيد ، وعلي ، ويعقوب ، وأبو بكر ، وداود وزيان . » (2) .

ولم يكن هؤلاء كلهم من أم واحدة ، بل تزوج أبو حمو نساء عديدات . فاما أبو تاشفين ، فانه ولد سنة (752 هـ) بندرومة من امرأة لا نعرف عنها شيئاً . وأما المنتصر وأبو زيان وعمر (المسمى أيضاً عمير) ، فانهم كانوا اخوة لأم واحدة ، تزوجها أبو حمو بميلة « أيام جولته في

(1) نفسه ج 7 ، 289 - 290 .

(2) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 273 - 274 .

بلاد الموحدين ، ⁽¹⁾ ، أي بين (شوال 758 هـ ورمضان 759 هـ) ونعرف كذلك أن أم يوسف هي ابنة يحيى الزاوي ، ولذا سمي يوسف ابن الزاوية ، وتزوجها أبو حمو في أواخر سنة (759 هـ) ، بعد أن غادر ناحية ميله ، ماراً بجبل عياض ، حيث كان مقر أبيها .

وكان أبو تاشفين أكبر إخوته ، وولي العهد ، وقد أشركه أبوه في الحكم بعد وفاة السلطان عبد العزيز المريني ، حين عودته الى عاصمته . الا أن أبا حمّو كان يعطف بصفة خاصة على المنتصر وأبي زيان وعبر . وربما كان يفضل أبا زيان ، لما امتاز به من تفوق في العلم والأدب وقد حفظ القرآن ، وبمناسبة اختتامه له أقام أبو حمّو حفلاً مشهوراً (رجب 776 هـ) ⁽²⁾ ، ونظم أبو زيان الشعر مثل أبيه ⁽³⁾ ، فكان يحظى مع أخويه بمجالسة والده ومناجاته ، مما كان يثير غيرة أبي تاشفين وامتعاضه ⁽⁴⁾ .

وفي أواخر سنة (777 هـ) ، رأى أبو حمّو أن يعيّن بعض أبنائه على نواحي المنطقة الشرقية ، فولّى المنتصر على ناحية مليانة ، وأبا زيان على ناحية المدية ، ويوسف على تدلس وما يليها .

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 291 .

(2) أنظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 310 .

(3) أنظر مثلاً ، التنسي ، نظم الدرر والعقيان . مخطوط المكتبة الوطنية

بباريس رقم 1875 ورقة 68 ظ-71 و .

(4) انظر كتاب العبر ، ج 7 ص 291

ولا شك أن أبا باشفين لم يرتض تعيين المنتصر وأبي زيان لما كان يشعر نحوهما من كره ، فلم يزد ذلك إلا حنقاً عليهما ، وتخوفاً منهما على حقه في العرش الزياني .

ثم لما عزم أبو حمّو على نقل أبي زيان إلى ولاية وهران ، بعدما حدث في ناحية المدينة من فتنة ، غضب أبو تاشفين وقرر منع ذلك التعيين ، وعندئذ ، طلب من أبيه أن يعقد له على وهران عوض أخيه أبي زيان .

والظاهر أن أبا حمّو وجد نفسه ، حينذاك ، في مأزق يصعب الخلاص منه من دون خصام ونزاع ، فكان ، من جهة ، يودّ إرضاء ابنه أبي زيان ، ويوليه عناية خاصة ، ولكنه من جهة أخرى ما صطدم بمعارضة وليّ عهده أبي تاشفين ، وطلبه الملحّ بالرجوع عن قراره السابق ، ولم يشأ السلطان أن يرجع عن عزمه ، كما أنه لم يقدم على فرض إرادته وإجابة طلب أبي تاشفين بالرفض ، وإنما « أسعفه ظاهراً ، وعهد إلى كاتبه يحيى بن خلدون بمباطلته في كتابتها حتى يرى المخلص من ذلك » (1) .

وكان في بطانة أبي تاشفين ، من حساد يحيى بن خلدون ، من أوهم الأمير أن كاتب السلطان ، كان بمباطلته تلك يعمل في صالح الأمير أبي زيان ، ويؤثره عليه .

(1) أنظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 292 .

فغضب أبو تاشفين لذلك ، وعزم على التخلص من يحيى بن خلدون ودبر مقتله ، على يد بعض أتباعه ، في إحدى ليالي رمضان سنة (780 هـ) ، بعد خروجه من القصر ، وعندما اكتشف أبو حمو الحقيقة في مقتل كاتبه ، لم يسعه إلا الإغضاء ، وإرضاء أبي تاشفين بتعيينه على وهران ، وبعد ذلك بقليل ، طلب أبو تاشفين من أبيه أن يضيف إليه ولاية الجزائر ، فأقطعه إيّاها ، واستتاب الأمير فيها أخاه يوسف ابن الزاوية ⁽¹⁾ .

وهكذا بدأ نجم أبي تاشفين يعلو في سماء المملكة العبد الوادية ، وظهر منه من الحزم والشدة ما جعل والده يتفادى شره بإسعافه في جميع مطالبه ، وتلبية رغباته ، مما خفف من ثائرة ابنه ، وأخذ نار غيظه .

وأخذت الأحوال تسير سيرها الطبيعي ، بعد أن شمل المغرب الأوسط الهدوء والاستقرار ، وتواصل تنظيم شؤون الدولة ، وتحسين العلاقات مع مختلف القبائل إلى أن تآزم الوضع في المغرب الأقصى في سنة (784 هـ) ، وقام ضد السلطان أبي العباس المريسني ابن عمه عبد الرحمان بن أبي يفلسن ، ينافسه على سجلماسة ومراكش ، فتحالف أبو حمو مع هذا الأخير ، وظاهره على خصمه ، مما أثار حنق أبي العباس على أبي حمو ، وأدى إلى هجومه على تلمسان .

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 292 - 293 .

كان عبد الرحمان بن أبي يفلو سن ، بمراكش ، يعاني من حصار السلطان أبي العباس ، منذ أشهر . فاستصرخ بأبي حمّو وأرسل اليه ابن عمه أبا العشائر ، برفقة يوسف بن علي بن غانم ، شيخ أولاد حسين ، من المعقل . وأجاب أبو حمّو صرختها ، فأرسل معها ابنه أبا تاشفين ، وتوجهوا الى ناحية مكناسة ، لشنّ الغارة عليها ، بينما أغار أبو حمّو على ناحية تازا ، قصد إرغام أبي العباس على الافراج على مراكش .

الا أن أبا العباس اقتحم مراكش ، في تلك الاثناء ، واستولى عليها ، وقضى على منافسه (أواسط سنة 785 هـ) ، فما كان من أبي تاشفين وأبي العشائر ويوسف بن علي بن غانم الا أن قفلوا راجعين الى تلمسان ، كما عاد اليها أبو حمّو مسرعاً ، بعد أن هدم قصر تازروت ومسجدها ، قرب تازا ، وخرّب قصر مرادة ، الذي كان بناءه وتزمار بن عريف السويدي في ناحية بطوية ، من أحواز تازا . (1)

وتخريب قصر مرادة هذا يدعو الى التساؤل عن العوامل التي جعلت أبا حمّو يقدم على هذا العمل وقد سبق أن أشرنا الى تحسّن العلاقات بين السلطان الزيّاني وقبيلة سويد ، بعد وفاة عبد العزيز المريني ، وما تلا ذلك من نكبة بني عامر وهزيمتهم .

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 295 .

ويظهر أن منافسة أبناء أبي حمّو على الحكم ، وما امتازت به من عنف ، قد جعلت أبا تاشفين يعتمد على سويد في دفاعه على حقوقه في العرش ، مما أدى الى بحث أبي حمّو، من جهته ، الى مؤيدين لعرشه .

وقد يكون رجع ، آنذاك ، الى التحالف مع بني عامر، الأمر الذي يفسّر حادث تخريب قصر مرادة ، ويجعلنا نعتقد أن ذلك كان ، قبل كل شيء، يرجع الى العداء القديم بين بني عامر وسويد ، وقد يكون أبو حمّو طامع بني عامر على تخريب القصر ، بعد أن أصرّوا على ذلك ولكسب تأييدهم ضد ابنه أبي تاشفين وأنصاره سويد ، في الصراع الذي قام بينهما .

والذي نراه هو أن بني عامر كانوا يهدفون ، من وراء تخريب قصر مرادة ، الى إفساد العلاقات بين المملكة الزيانية وقبيلة سويد ولم تكن لهم القوة التي تمكنهم من الانتصار على سويد ، بعد الهزيمة الكبرى التي لقوها (سنة 777 هـ) . فانتهزوا فرصة غارتهم مع أبي حمّو على ناحية تازا ، لتخريب قصر مرادة ، انتقاما لقتلهم ، وإحياء لعدائهم القديم .

ويبدو لنا جليا ، من خلال هذا الحادث ، مدى تأثير الأوضاع السياسية ، بالصراع الطويل القائم بين بني عامر وسويد ، وانعكاس هذا الصراع على العلاقات القائمة بين المغربين الأوسط والأقصى ، وانتشار الفتن في المغرب الأوسط والتنافس على الحكم .

وعلى كل ، فإن حركة أبي حمّو في ناحية تازا قد أدّت الى تازم

الوضع بينه وبين السلطان ابي العباس المريني ، فما عاد هذا الأخير الى عاصمته ، بعد القضاء على فتنة منافسه في الجنوب ، حتى أخذ يعد العدة للنهوض الى تلمسان ، انتقاماً لموقف ابي حمّو العدائي وعندما أطلع أبو حمّو على ما كان يدبّره أبو العباس من استعدادات للزحف، استنجد بابن الأحمر ، وكان لهذا الأخير نفوذ كبير على الدولة المرينية ، فحث أبا العباس على مسألة أبي حمّو . ولكن السلطان المريني لم يتأخر عن تنفيذ خطته ، فهاجم المملكة الزيانية بغتة ، واستولى على تلمسان ، بعد أن غادرها أبو حمّو ، متوجّهاً إلى البطحاء ، ثم إلى حصن تاجحمومت في أراضي بني أبي سعيد ، وكان ردّ فعل ابن الأحمر أن أنهض منافساً لأبي العباس ، يدعى موسى ابن السلطان أبي عنان ، وبعث معه الجنود ، ونزلوا سبّعة (غرة ربيع الأول 786 هـ) ثم توجهوا صوب فاس ، فحاصروها ، ثم استولوا عليها (19 ربيع الأول) ، ولما بلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس ، بتلمسان غادرها فوراً ، وقبل الخروج منها ، أمر ، بإيعاز من ونّمار بن عريف السويدي ، بهدم قصور المدينة وقسم كبير من أسوارها ، انتقاماً من تخريب أبي حمّو لقصر تازروت وقصر مرادة (لواخر ربيع الأول سنة 786 هـ) (1) .

ولما عاد أبو حمّو إلى عاصمته ، تألم كثيراً لما أصابها من خراب وهدم أسوارها الشاهقة ، وقصورها البديعة ، مما أودى بحصانتها

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 296 - 298 .

ومنعتهما ، وذهب بجماها وروثها ، فكان هذا الحادث ضربة قاسية ، أصابت المملكة الزيانية ، وثالت من عظمتها ومجدها ، ويمكن أن يعتبر تاريخاً فاصلاً بين عهد عزها وقوتها ، وعهد ضعفها وانحطاطها .

ولا شك أن إقدام أبي حمّو وبني عامر على تخريب قصر مرادة كان خطأ فادحاً ، تمخضت عنه حوادث خطيرة ، منها ما يخصّ عمران تلمسان ، ومنها ما يرجع إلى تدهور الأوضاع السياسية في المغرب الأوسط ، كما أن تخريب قلعة بني سلامة ، (سنة 771 هـ) ، كان له عواقب وخيمة مما أدى إلى استيلاء عبد العزيز المريني على المغرب الأوسط مدة سنتين بتحرير من سويد .

وكانت النتيجة الحتمية لموقف أبي حمّو المعادي لسويد ، أن فقد تأييدها ، مما جعل نفوذه يضعف شيئاً فشيئاً ، والحقيقة أن قبيلة سويد كانت ، منذ تغلبها على بني عامر ، (سنة 777 هـ) ، تشكل قوة سياسية عظيمة ، لا يستقيم أمر السلطان إلا بإرضائها واستمالتها ، ولا يسود الاستقرار السياسي في البلاد ، إلا بتأييدها والحصول على طاعتها .

ويظهر أن هذا التطور الذي طرأ على الوضع السياسي في المملكة الزيانية ، وخاصة بعد سنة (786 هـ) ، كان في صالح الأمير أبي تاشفين ، الذي أصبح يتمتع بثقة سويد ونصرتها ، ولا شك أن الأمير الشاب أدرك آنذاك ، أن استمالة سويد إلى جانبه مما يعزّز موقفه ويعضد

صفوف أنصاره ، في الصراع الذي كان قائماً بينه وبين بعض إخوته .

وأصبحت المملكة الزبانية تعيش في جوّ تسوده الفوضى، وتقلّص نفوذ السلطة ، وظهر الانقسام بين القوى السياسية في الدولة ، فهناك حزب ولي العهد الأمير أبي تاشفين ، وهناك حزب إخوته أبي زيّان والمعتصم وعمير ، ولم يشأ أبو حمّو أن ينحاز ظاهراً لأحد الفريقين بل حاول إظهار التزامه للحيداء ، فكان كل واحد من الحزبين يسعى إلى الإطاحة بخصومه ، والقضاء عليهم⁽¹⁾ . ويبدو أن حزب أبي تاشفين كان أقوى في العاصمة والمناطق الغربية ، بينما كان الحزب الآخر مسيطراً على المنطقة الشرقية .

ظهور العداء بين أبي حمّو وابنه أبي تاشفين :

وكان لأبي تاشفين عيون من بطانة السلطان ، يخبرونه عن جميع ما يجري عنده من الأحداث ، ومن بينهم شخص يدعى موسى بن يخلف ، كان قد اتصل بأبي حمّو وابنه منذ اغتربها بتيقسورارين ، وأصبح ، من ذلك العهد ، من المقرّبين لسيّما ، إلا أنه كان يخدم أبا تاشفين ، ويطلعه على ما كان يدبره أبوه من وسائل لتعزيز نفوذه المتلاشي .

وفي سنة (788 هـ) ، بلغ عداء أبناء أبي حمّو أشده ، وكان أبا حمّو لم ينقطع عن عطفه على المنتصر وأبي زيّان وعمير ، حتى أن أبا

(1) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 298 .

تاشفين اتهم السلطان « بمالأة إخوته عليه ، فشمّر لعقوقه وعداوته » (1) الأمر الذي جعل أبا حمّو يعيش في ظروف لا تطاق ، فبحث عن مخلص من خطر عقوق ولده الأكبر ، فلم يرَ أحسن وسيلة من مغادرة تلمسان والاستقرار في الجزائر ، يجعلها عاصمة جديدة له ، ويكون فيها قريباً من أبنائه المفضّلين ، وبعيداً عن سيطرة أبي تاشفين .

وأعلن أبو حمّو النهوض إلى البطحاء ، مظهرأ رغبة الإصلاح بين العرب ، « ومعزماً على لقاء ابنه المنتصر بليانة ، ليصل به جناحه ويتخطّى إلى الجزائر ، فيجعلها دار ملكه ، بعد أن استخلف بتلمسان ابنه أبا تاشفين » (2) .

وغادر السلطان الزيانيّ تلمسان مشرعاً ، إلا أنه لم يتمكّن من تحقيق مشروعه هذا ، وذلك أن موسى بن يخلف اطلع على الأمر ، فأخبر أبا تاشفين عن نوايا أبيه الحقيقية ، فجمع الأمير العساكر ، وسار في أثر أبيه ، فلحق به قرب البطحاء ، وكشفه ما بلغه من الخبر ، فأنكر ذلك أبو حمّو ، ثم عاد معه إلى تلمسان ليطمثنه .

وحينئذ ، زاد الوضع تازماً بين السلطان وابنه الأكبر ، والغالب على الظن أن أبا تاشفين أصبح آنذاك صاحب السلطة الحقيقي ، يسير

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 298 .

(2) نفسه ، ج 7 ، ص 298 .

شؤون الدولة حسب مصالحه ومشيتته ، ويراقب جميع تصرفات أبيه بواسطة العيون الذين بثّهم حوله ، فغدا أبو حمّو كالسجين في عاصمته ، لا يمارس من السلطة إلا بعض الوظائف الشكلية ممّا يتّصل بمنصب السلطان من استقبالات وعقد مجالس وإشراف على الحفلات الدينية .

وأخيراً ، فكّر أبو حمّو في بعث أحمال من المال إلى ابنه المنتصر بمليانة ، يودعها عنده ريثما يجد سبيلاً لمغادرة تلمسان سرّاً . وأرسل الأحمال مع أحد أصفياه ، يدعى علي بن عبد الرحمان بن الكليب ، وعقد لابنه المنتصر على ولاية الجزائر ، وبعث له رسالة في ذلك الشأن مع ابن الكليب ، طالباً منه أن يقيم بها إلى أن يخلص إليه ⁽¹⁾ .

خلع ابي حمو واعتقاله :

ومرّة أخرى ، اطلع أبو تاشفين على الخبر ، بواسطة جاسوسه موسى بن يخلف ، فبعث في أثر ابن الكليب بعض خلصائه ، فاعترضوا له في طريقه إلى مليانة وقتلوه ، ثم عادوا اليه بالمال والرسالة إلى المنتصر ، فتحقّق أبو تاشفين من صحّة الأمر ، وثبت لديه انخياز والده إلى جانب إخوته وخصومه ، فذهب إلى قصر السلطان وأراه الرسالة ، ولامه لوماً عنيفاً على ما قام به ، ثم خلعه بعد ذلك بأيام ، ووكل عليه الحرس في قصره ، ثم اعتقله بقصبة وهران ، واستقصى

(1) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 298 - 299 .

جميع أمواله وذخائره ، وأمر بسجن إخوته ، الذين كانوا آنذاك مقيمين بتلمسان (آخر 788 هـ) (1) .

واعتقد أبو تاشفين أنه اجتاز آخر عقبة كانت تحول دون تحقيق مطامحه في العرش الزياني ، وأن الأمر أصبح هيناً ، إذ لم يبق له إلا القبض على إخوته الآخرين ، بالمنطقة الشرقية .

فحشد الجيوش ، وجمع الأتباع من سويد وبني عامر ، وقصد إخوته المنتصر وأبا زيان وعمر ، وكانوا قد اعتصموا بجبل تيطرّي بعدما بلغهم نبا خلع أبيهم ، واستولى على مليانة ، ثم حاصروهم بمعتصمهم مدة .

ثم ظهر لأبي تاشفين أن يتخلص من والده ، بتدبير قتله ، فأرسل بعض رجال حاشيته لأجل ذلك ، وضم إليهم ابنه أبا زيان « فقتلوا من كان معتقلاً من أبناء السلطان ، وتقدموا إلى وهران » (2) .

ولما علم أبو حمّو بقدومهم بنية قتله ، أغلق باب القصر دونهم وصعد إلى أعلى القصر ، وأخذ يستغيث بأهل المدينة ، ثم نزل من جدران القصر بجبل وصله من عمامته ، فاجتمع الناس حوله ومنحوه

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 299 ، أما التنسي ، فإنه يذكر أن أبا حمّو خلع نفسه لأطفاء السعيات التي جرت بينه وبين أبي تاشفين (نظم الدر والعقيان ، مخطوط الخزانة الوطنية بباريس رقم 1875 ، ورقة 92 ظ) .

(2) نفسه ، ج 7 ، ص 300 (وكذلك ص 754) .

تأييدهم ، فعاد إلى تلمسان ، واستولى عليها بسهولة ، إذ كانت قد خربت
أسوارها من قبل ، واستنفر بعض أشياخ بني عامر فاتوه لصد هجوم
ابنه وأحلافه سويد (أوائل سنة 789 هـ) (1) .

وعندما بلغ أبا تاشفين نبأ هذه الحوادث ، رفع الحصار عن جبل
تيطرّي ، وعاد فوراً بجيشه إلى تلمسان ، خشية أن يستفحل أمر
أبيه من جديد ، ولم يقو أبو حمّو على مدافعة جيش أبي تاشفين ، لقلة
ما كان حوله من الأنصار ، فالتجأ إلى مئذنة المسجد الجامع ، وأخبر
أبو تاشفين بذلك ، فجاء إليه بنفسه ، واستنزله من المئذنة ، ورقّ
لحاله ، فبكى وقبل يده ، ورجع به إلى القصر حيث اعتقله ببعض
الغرف (2) .

سفر أبي حمّو إلى الشرق ونزوله ببجاية :

ثم أعمل أبو حمّو الحيلة في الخلاص من معتقله ، فطلب من أبي
تاشفين أن يسهّله إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ثم البقاء في أحد
أقطار المشرق ، فأسعفه في طلبه ، واتفق مع بعض التجار القطلان
الذين كانوا على أهبة السفر إلى الإسكندرية ، على حمله في سفينتهم
من ميناء وهران إلى الإسكندرية ، وجعل له حراساً وكل إليهم
مراقبته أثناء السفر .

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 300 - 301 و 754 .

(2) نفسه ، ج 7 ، ص 301 و 754 - 755 .

وأقلعت السفينة قاصدة المشرق ، ولما قرب المسافرون من بجاية داخل أبو حمّو صاحب السفينة في أن ينزله بجاية ، فوافقه على طلبه وأطلق سراحه ، وأصبح الموكلون به في طاعته .

ونزل أبو حمّو بجاية ، فاستقبل أحسن استقبال من طرف الأمير الحفصي وقائد الأسطول محمد بن أبي مهدي ، وأسكن بستان الملك المسمى بالرفيع ، وبالع الحفصيون في إكرامه ومساعدته (أواخر سنة 789 هـ) (1) .

ثم غادر أبو حمّو بجاية ، وقدم إلى ناحية متيجة ، حيث شرع يحشد العساكر ويستنفر العرب ، وقصد بهم تلمسان ، تاركاً ابنه أبا زيان على ناحية شلف .

رجوع أبي حمّو إلى تلمسان :

وأصبحت الدولة الزيانية تعيش حرباً أهلية ، حيث أدى التهاوت على الحكم إلى صراع مؤلم بين السلطان أبي حمّو ، وولي عهده ، وانحاز إلى جانب أبي حمّو أقوام من عرب ناحية متيجة وشلف ومن بني عامر ، بينما كان أبو تاشفين مؤيداً من طرف سويد و قبيلة بني عبد الواد « بما بذل فيهم من العطاء ، وقسم من الأموال » (2) ،

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 301 - 302 و 755 .

(2) نفسه ، ج 7 ، ص 302 .

وسلك أبو حمّو وأنصاره طريق الجنوب ، متجهين نحو المنطقة الغربية ، إلى أن بلغوا قرية تامة ، الواقعة غربي تلمسان .

وعزم أبو تاشفين على توجيه ضرباته إلى الجهتين ، الشرقية والغربية ، للقضاء على منافسيه من إخوته وعلى أبيه ، فأرسل جيشاً إلى شلف بقيادة ابنه أبي زيان ووزيره محمد بن عبدالله بن مسلم وسار هو بجيش آخر نحو أبيه .

أما أبو زيان بن أبي تاشفين ، فإنه انهزم أمام عمه أبي زيان وقتل معه جماعة من بني عبد الواد كانوا قد رافقوه ، منهم محمد بن عبدالله بن مسلم⁽¹⁾ ، فكانت ضربة قاسية أصابت أبا تاشفين في الصميم ، وجعلت الصراع بين الفريقين يزداد خطورة وعنفاً ، ويتحول إلى عداوة لا مجال لانتهاه إلا بانهيار أحدهما وانقراضه .

وأما أبو حمّو ، فإنه توجه إلى وادي زا ، واستنجد بالأحلاف من قبيلة المعقل العربية ، فلبّوا طلبه ، وعاد بهم إلى تامة ، فنازلها ، وأقبل أبو تاشفين بجيشه ، فعسكر قبائله ، وأقام الفريقان على تلك الحال إلى أن بلغ أبا تاشفين خبر هزيمة ابنه ومقتله ، فتأثر كثيراً لذلك النبأ ، وقرّر الانسحاب إلى تلمسان ، فعاد إليها ، وأبو حمّو في أثره .

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 302 .

ولجا أبو تاشفين إلى سياسة الإغراء بالأموال ، لكسب الأنصار ، فبعث مولاة سعادة في طائفة من العسكر إلى أتباع أبي حمّو من العرب ، بمهمة مداخلتهم في التخلّي عن السلطان ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، وهزم سعادة ، وقبض عليه ، ولما وصل الخبر إلى تلمسان ، انفضّ عن أبي تاشفين من كان يؤيّده من بني عبد الواد ، ولم يبق حوله إلا سويد ، فغادر تلمسان معهم ، واتجهوا إلى مشاتهم بالصحراء (1) .

وعندئذ لم يجد أبو حمّو أية صعوبة في الاستيلاء على تلمسان (رجب 790 هـ) ، فاستعاد عرشه ، واستدعى إليه أبناءه من المنطقة الشرقية ، فأقره .

استغاثة أبي تاشفين ببني مرين :

أما الأمير أبو تاشفين ، فانه توجه ، بعد ذلك رفقة محمد بن عريف السويدي ، إلى المغرب الأقصى ، واستنجد بالسلطان أبي العباس المريني ، فوعدهما بالمساعدة .

ومرة أخرى ، اتصل أبو حمّو بحليفه ابن الأحمر ، ملك غرناطة ودعاه إلى التدخل في الأمر ، بأن يطلب من السلطان أبي العباس أن

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 303 و 755 .

يجيز أبا تاشفين إلى الأندلس ، حيث يؤمن شره ، وقد سبق أن ذكرنا ما كان للوك غرناطة من نفوذ في المغرب الأقصى منذ وفاة أبي عنان المريني .

فارسل ابن الأحمر إلى أبي العباس المريني في هذا الشأن وطلب منه إجازة أبي تاشفين إليه ، فلم يطاوعه أبو العباس في ذلك وذكر أنه « استجار بابنه أبي فارس ، واستندم به » (1) .

وكان أبو تاشفين قد لجأ إلى إغراء وزير أبي العباس المريني محمد بن يوسف بن علال ، بالأموال والوعود ، ليحث سلطانه على مساعدته بالعساكر ، حتى يتمكن من الإستيلاء على تلمسان ، والانتصار على أبيه ، والتزم أبو تاشفين بدفع مقدار كبير من المال للوزير مقابل تلك المساعدة ، وبالدعاء للسلطان المريني في المنابر ، ودفع إتاوة سنوية (2) .

وتردد أبو العباس مدة في قبول هذا الاتفاق فبذل الوزير ابن علال كل ما في وسعه لإقناعه ، إلى أن وافق السلطان على ذلك ، وأرسل العساكر بقيادة ابنه أبي فارس لمساعدة أبي تاشفين (أواخر سنة 791 هـ) (3) .

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 756 ، انظر كذلك ، ص 304 .

(2) نفسه ، ج 7 ، ص 305 .

(3) نفسه ، ج 7 ، ص 303 .

ولما اتصل أبو حمو بنجر زحفهم الى تلمسان ، غادرها مع أتباعه بني عامر والخَرَاج من قبيلة المعقل ، وقصد جبل بني وَرْنِيد ، الواقع جنوب المدينة والمطلّ عليها ، وأقام بمكان من ورائه يدعى الغيران .

وفي تلك الأثناء ، ورد موسى بن يخلف الى تلمسان ، واستولى عليها مقبياً بها دعوة الأمير أبي تاشفين ، فأرسل اليه أبو حمو ابنه عمير ، فأسره بعد أن أسلمه سكّان المدينة ، وحمله إلى أبيه ، فأمر بتعذيبه وقتله .

ثم تمكن حلفاء أبي تاشفين من معرفة مقرّ أبي حمو ، فقصده وباغته ، في الغيران ، والتحم القتال بين الفريقين ، فلم يثبت أنصار أبي حمو أمام الجيش المريني ، الذي كان يفوقهم عدداً وعدة ، وكبأ بابي حمو فرسه ، فسقط على الأرض ، وأدركه بعض أصحاب أبي تاشفين ، فقتلوه قعصاً بالرماح ، وجاؤوا برأسه الى ابنه أبي تاشفين والوزير ابن علال (أول ذي الحجة 791 هـ) (1) .

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 756 ؛ التنسي ، المصدر المذكور ، ورقة 62 ظ ؛ الاستقصاء ، ج 4 ص 76 .

وهكذا كانت وفاة أبي حمّو الثاني خاتمة هذه المأساة ، التي شهدت
اصطدام السلطان الزيّانيّ بفلذة كبده وولي عهده، وتطاحنهما وتناحرهما،
فلقي حتفه في جبال تلمسان ، بطعنات رماح بعض رعاياه المنحازين الى
ابنه ، وقد بلغ من العمر 68 سنة ، وفاضت روحه بين الصخور
والأعشاب ، بعد حياة ملأى بالحوادث ، ذاق منها الحلو والمرّ فلم يذهب
بلبّه زخرفها ، ولم تقض عليه عواصفها .

الباب الثاني

حضارة المغرب الاوسط في عهد ابي حمّو الثاني

1 - الحياة الفكرية

التعليم :

كان لتأسيس المدارس بتلمسان ، أيام أبي حمّو الأول وابنه أبي تاشفين ، ثم أثناء الاستيلاء المريني ، أثر هامّ في بعث الحركة الفكرية وإقبال الكثير من الطلبة على اقتناء العلوم المختلفة من نقلية وعقلية وإتقانها ، وكان الأمراء الزيانيّون يولون أهل العلم رعاية خاصة ويمنحون الطلبة ما يساعدهم على تحمّل أعباء دراستهم ، فخصّصوا لهم الأرزاق والجرايات ، وأنشؤوا المكتبات العامّة في المساجد والمدارس وغيرها من المؤسسات العلميّة . .

ولم يتغير الوضع في عهد أبي حمّو الثاني ، بل كان اعتناؤه بالعلم وأهله أشدّ وأقوى من ذي قبل ، لما امتاز به من إلمام بالعلوم واستعداد للمساهمة في النشاط الأدبي ونظم الشعر ، فحظي العلماء والطلبة بعطفه وتشجيعه ، ونال الكتاب والشعراء من عطائه وكرمه .

ولما توفّي والده أبو يعقوب ، في (شعبان 763 هـ) ، أمر أبو حمّو بدفنه في رياض كانت تقع قرب باب إيلان ، ونقل الى جواره رفاة عمّيه

الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت ، من قرية العباد ، ثم بنى ضريحاً حولهم ، وأضاف الى ذلك بناء زاوية ، وشيّد الى جانب ذلك مدرسة تمّ بناؤها في أول سنة (765 هـ) ، فعهد للتعليم فيها الى أشهر علماء تلمسان آنذاك ، أبي عبدالله الشريف .

وهكذا كانت تلمسان ، في عهد أبي حمّو الثاني ، بفضل مدارسها الخمس ومسجدها الأعظم ، مركزاً ثقافياً هاماً ، وبلد إشعاع علميّ يضاهاه أهمّ مراكز المغرب الثقافية ، فنبغ فيها جيل صالح من العلماء ، أمثال أبي عبدالله الشريف وسعيد العقباني وغيرهما ، الذين حملوا مشعال الفكر الى الأجيال التالية ، وخلفوا تلامذة نبه ذكرهم وذاع صيتهم في الأقطار ، أمثال ابن مرزوق الحفيد وغيره .

أما مناهج التعليم ، فكانت تختلف حسب العلوم وحسب طريقة الأستاذ في تدريسه فكان ، الى جانب الطريقة القديمة ، التي تجعل من الطالب وعاء يملؤه الأستاذ بالمعلومات الغزيرة ، في شتى العلوم ، من دون أن يكون له مجال لطرح الأسئلة أو المناقشة ، طريقة أخرى ، تتيح للطلبة فرصة مراجعة الأستاذ في نقطة معيّنة ، ، ومناقشته فيها ، وهذه الطريقة كانت بلا شك أكثر انتشاراً ، إلّا أن أجلّ العلماء كانوا يلجؤون الى طريقة ثالثة ، أكثر فائدة ، يقوم الطالب فيها بدور هامّ في الوصول الى المعرفة ، وخاصة في المعقولات ، ويكاد الأستاذ لا يكون أكثر من مشرف على الأبحاث وموجّه للدراسات ، أما الطلبة ، فهم الذين كانوا يقومون



حضرت مسجد نبوی (نبی مدینہ)

بدراسة المشكلة ، ومناقشتها ، وتبادل الآراء حولها ، مما يمكنهم من الوصول الى الجواب الذي يرتضونه جميعاً ويرتضيه الاستاذ ، فكان الجهود الذي يبذله الطلبة لحل رموز المشاكل هو الهدف الذي يقصده الاستاذ ، لما كان له من أثر في تشجيع ذهنهم ، وترويضهم على الجدل والمناظرة ، وغرس حبّ البحث والاطلاع في نفوسهم ، فمما يحكى عن الأبيّ أنه كان يقول لطلبته ، اذا ما أشكلت مسألة أو ظهر بحث دقيق ، « انتظروا به أبا عبدالله الشريف » ،⁽¹⁾ وكان هذا الأخير أنجب تلامذته ، فهذا الخبر يفيد مشاركة الطلبة الهامة في التدريس ، ودور النجباء منهم في إيضاح ما أشكل من المسائل ، وتقرير أصحّ الأجوبة .

ومما قيل عن أبي عبدالله الشريف ، أنه كان (يحب البحث ، ويرى أن نفع الطلبة به ، فإذا طال بحثهم أمرهم بالتقييد في المسألة ، ثم يفصل بينهم يطالع كتباً كثيرة لدولته)⁽²⁾ .

ولا شك أن هذا الاتجاه ، كان أرقى ما وصل إليه العلماء المسلمون في العصر الوسيط ، مما أدى إلى تكوين كبار العلماء ، وإنتاج مؤلفات عديدة ، يحقّ بالمغرب أن يفتخر بها .

(1) انظر البستان ، ص 170 .

(2) نفسه ، ص 174 .

ظهر في المجال الديني ، عدد كبير من العلماء ، نكتفي بذكر أشهرهم :

(1) - أبو عبدالله محمد بن أحمد الشريف الحسني (1) ، ولد بتلمسان (سنة 710 هـ) ، وقرأ القرآن على أبي زيد بن يعقوب ، ثم أخذ عن العالمين الأخوين أبي زيد وأبي موسى ابنسي الامام ، وعن أبي موسى عمران المشدلي وأبي محمد عبدالله المجاصي ، والقاضي ابن عبد النور وأبي عبدالله بن هدية ، فظهرت نجابته في مختلف العلوم من معقول ومنقول ، ودرس التنجيم والرياضيات وغيرها من العلوم العقلية على أبي عبدالله بن النجار ، ثم رحل إلى فاس ولازم الأبيلي وأخذ عنه علوماً جمّة ، وخصوصاً في التعاليم ، ثم عاد إلى تلمسان وانتصب للتعليم .

وفي سنة (740 هـ) ، ارتحل الى تونس لطلب العلم ، فلازم أبا عبدالله بن عبد السلام الهواري ، ثم رجع الى تلمسان ، واستأنف التدريس بها ، ولما استولى أبو عنان المريني على تلمسان ، سنة (753 هـ) ، استخلص أبا عبدالله الشريف ، وألحقه بمجلسه العلمي ، ثم أخذه معه الى فاس ، ولكن أبا عبدالله سئم المقام بالعاصمة المرينية ، واشتاق إلى ذويه

(1) انظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 57 ؛ البستان ، ص 117 - 120 ، نيل الابتهاج ، ص 150 - 154 .

وموطنه ، وثاله بعض الأذى من السلطان أبي عنان ، في أول سنة (756 هـ) ، من أجل وديعة تركها السلطان أبو سعيد العبد الوادي عند بعض وجهاء تلمسان ، فنكبه لأنه لم يخبره بشأنها ، ولكن سرعان ما صفح عنه وأعادته الى مجلسه ، ومكث بفاس الى أن توفي أبو عنان .

وبعد ذلك استقر أبو حمّو الثاني بتلمسان ، فاستدعى أبا عبد الله الشريف ، في أول إمارته ، « وتلقاه أبو حمّو براحتيه ، وأصر له في ابنته ، فزوجها إياه ، وبني له مدرسة جعل في بعض جوانبها مدفن أبيه وعمه ، ⁽¹⁾ ، وأقام الشريف بتلمسان بيت العلم ، فختم تفسير القرآن مرتين ، ودرس علوماً كثيرة ، إلى أن توفي في ذي القعدة سنة (771 هـ) ، فأمر أبو حمّو أن يدفن عند قبر والده أبي يعقوب ، تبركاً بجواره .

وقد تخرّج عليه كثير من العلماء المشهورين ، مثل ولده أبي محمد عبد الله ، والولي الصالح إبراهيم المصمودي ، ومحمد بن علي المديوني ، وأبي اسحاق الشاطبي ، وابن زمرك ، وابن عتاب ، وابن السكّاك ، وعبد الرحمن بن خلدون ، وأخيه يحيى ، وغيرهم ، ولم يؤلف كتباً كثيرة ، لانصرافه الى التعليم والبحث والمطالعة ، واشتهر من بين تأليفه في العلوم الدينية ، كتاب « مفتاح الوصول في علم الأصول » ⁽²⁾ .

(1) التعريف بأبن خلدون ، ص 66 ، (ولعل الصواب ان يقال : وعمته) .

(2) طبع بالدار البيضاء ، مكتبة الوحدة العربية ، بدون تاريخ .

وقد شهد له علماء عصره ومن جاؤوا بعده بالتفوق والنبوغ ،
فوصفه ، مثلاً ، أحمد بابا التنبكتي بقوله : « الإمام المحقق أعلم أهل
وقته ، (1) » .

(2) أبو علي منصور بن علي بن عبد الله الزواوي (2) : ولد سنة
(710 هـ) ، ببجاية ، ونشأ بها ، وأخذ عن أبيه وعن غيره من علمائها ،
مثل ناصر الدين المشدائي ، وأبي عبد الله الباهلي المسقر ، وأبي
عبد الله بن أبي يوسف الزواوي ، وأبي علي بن حسين البجائي ، وأبي
العباس أحمد بن عمران ، ثم رحل الى تلمسان ، في عهد أبي الحسن
المريني ، ودرس بها على عالم بلاطه أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي ، وعلى
المحدث أبي العباس بن يربوع ، والقاضي أبي العباس بن أبي يحيى ، ثم
أجاز الى الأندلس ، وأخذ بها عن أبي عبد الله الرندي ، وأبي
عبد الله بن الفخار البيري ، وأبي القاسم الشريف الحسيني السبتي ،
وأبي البركات محمد بن الحاج البلّفيقي ، وأبي عبد الله الطنجالي ،
ثم انتصب للتدريس بالأندلس ، الى أن أزعج عنها سنة (765 هـ) ،
فاستقر بتلمسان ، ودرس بها سنوات عديدة ، وكان لا يزال على قيد
الحياة ، عام (770 هـ) .

وكان أبو علي الزواوي مبرزاً في الأصول والمنطق والكلالام ، ذا

(1) نيل الابتهاج ، ص 47 .

(2) عن أبي علي الزواوي ، انظر : بغية الرواد ، ج 1 ، ص 74-75 ،
البيستان ص 292 - 294 .

اطّلاع واسع في شتى العلوم من عقلية وتقليية ، ومن تلاميزه أبو إسحاق الشاطبي ، والمقريّ الكبير ، ويحيى السراج ، ولسان الدين ابن الخطيب ، ويحيى بن خلدون .

(3) - أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق الخطيب (1) ، ولد بتلمسان (في أواخر سنة 710 هـ) ، ونشأ بها وقرأ القرآن على أبي زيد بن يعقوب ، ثم أخذ عن الأبيليّ ، وعن أبي محمد عبدالله المجاصي ، وارتحل مع والده إلى المشرق ، (سنة 718 هـ) ، فأخذ ببجاية عن ناصر الدين المشدالي ، وأقام مدة مع أبيه بالحرّمين ، ثم عاد إلى القاهرة ، ولازم برهان الدين الصفاقسيّ ، وفي (سنة 733 هـ) ، قفل راجعاً إلى وطنه فوجد السلطان أبا الحسن المريني محاصراً تلمسان ، فاتصل به وساهم مع عمه في الإشراف على بناء مسجد أبي مدين بالعبّاد ، ثم ولّاه أبو الحسن الخطابة بذلك المسجد ، بعد وفاة عمه ، وحظي ، بعد ذلك عند السلطان المريني فأعلى رتبته في مجلسه ، وفي تلك الأثناء ، كان يحضر مجالس الأخوين ابنسيّ الامام العلمية ، ثم رافقه إلى الأندلس ، وحضر معه معركة طريف ، وفي (سنة 748 هـ) ، أرسله سفيراً إلى قشتالة للتفاوض في الصلح مع ملكها ، وفي طريق

(1) انظر ترجمته في نفح الطيب ، ج 7 ، ص 309 - 338 ، التعريف بابن خلدون ، ص 50 - 56 ، بغية الرواد ، ج 1 ، ص 50 ، البستان ، ص 184 - 190 .

عودته إلى افريقية ، حدثت هزيمة أبي الحسن بالقيروان فورد خبرها وابن مرزوق في قسنطينة ، فثار أهلها على بني مرين وأعلنوا البيعة لأحد الأمراء الحفصيين ، فرجع ابن مرزوق إلى تلمسان رفقة أم الأمير أبي عنان ، وقام بخدمتها إلى أن بلغت مدينة فاس ، ثم عاد إلى تلمسان وأقام بقرية العباد ، والامارة بها آنذاك ، للأميرين أبي سعيد وأبي ثابت ⁽¹⁾ .

ولما قدم أبو الحسن إلى الجزائر ، وأخذ يعمل للزحف إلى ناحية شلف ، أرسل السلطان أبو سعيد سفيراً إليه قصد التفاوض معه في شأن الصلح بدون مشاورة أخيه أبي ثابت ، وكان ذلك السفير الخطيب ابن مرزوق ، فلما أطلع أبو ثابت على الخبر أنكره على أخيه ، وبعث من تقبض على ابن مرزوق في طريقه ، ثم أجازته البحر إلى الأندلس (أواسط سنة 752 هـ) ⁽²⁾ .

واستقر بغرناطة ، حيث أسندت إليه الخطابة في جامع الحمراء إلى (سنة 754 هـ) ، ثم عاد إلى مسقط رأسه ، وكان أبو هنان المريني قد قضى على إمارة أبي سعيد وأبي ثابت ، فالحق ابن مرزوق بمجلسه العلمي ، ولما احتل تونس ، (سنة 758 هـ) ، أرسله إليها ليخطب له

(1) التعريف بابن خلدون ، ص 51 - 52 .

(2) البستان ، ص 185 ، انظر كذلك التعريف بابن خلدون ، ص

52 - 53 .

ابنة السلطان أبي يحيى، فامتدعت عن ذلك، واختفت بتونس « ووشي إلى السلطان أبي عنان أنه كان مطلعاً على مكانها، فسخطه لذلك، وأمر بسجنه، فسجن مدة، ثم أطلقه قبل موته، (1).

وفي أيام أبي سالم المريني، عظم نفوذ ابن مرزوق الخطيب، وأصبح زمام الأمر، في الدولة المرينية، بيده، مما أحقد عليه كثيراً من رجال الدولة، ولما ثار الوزير عمر بن عبدالله ضد أبي سالم، وأطاح بملكه وقتله، أمر بسجن ابن مرزوق (آخر سنة 762 هـ)، وسعى حسّاده من كبار الدولة في قتله، فلم يسعفهم عمر بن عبدالله في ذلك، وأطلق سراحه.

وانتقل ابن مرزوق، بعد ذلك إلى تونس، فاستقرّ بها (سنة 766 هـ)، وأكرم أبو إسحاق الحفصي مثواه، وولاه الخطابة بجامع الموحدين، والتدريس ببعض المدارس، وأقام هناك إلى عهد الأمير أبي العباس الحفصي (سنة 772 هـ)، وكانت بينه وبين ابن مرزوق وحشة يرجع سببها إلى إقبال هذا الأخير، في عهد أبي سالم، على منافسه أبي عبدالله الحفصي، وتفضيله عليه، فاقصاه عن بلاطه.

وفي تلك الاثناء، فكّر ابن مرزوق في اللحاق ببلاد السلطان عبد العزيز المريني، الذي كان قد استولى على المغرب الأوسط، آنذاك،

(1) البستان ص 185، راجع أيضاً التعريف بابن خلدون، ص 53-54.

فألف له ، (في شعبان 772 هـ) ، كتاب « المسند الصحيح الحسن ، في أخبار المولى أبي الحسن » ، إلا أنه لم يتمكن من تحقيق مشروعه هذا ، وأخيراً ، سمح له أبو العباس الحفصي بالرحلة إلى المشرق ، فحل بالإسكندرية ، ثم قدم القاهرة ، واتصل بالسلطان الأشرف ، فأكرم مثواه ، وألحقه بمجلسه ، وولاه التدريس وقضاء المالكية ، وأقام ابن مرزوق بالقاهرة ، عزيز الجانب عالي القدر ، إلى أن توفي بها في (ربيع الأول سنة 781 هـ) (1) .

ومن أشهر تلاميذه ابن قنفذ القسنطيني ، وأبو إسحاق الشاطبي وغيرها (2) ، واشتهر من مؤلفاته كتاب « المسند الصحيح الحسن » الذي يشتمل على عرض مفصل لحياة أبي الحسن المريني ، ولما وقع في عهده من حوادث هامة ، وإنجازات عمرانية ، وعلى ذكر ما ازدان به عصره من عناية بالعلم والعلماء ، وغير ذلك .

ومن مؤلفاته شرح البردة ، وشرح على ابن الحاجب الفرعي بعنوان « إزالة الحاجب على فروع ابن الحاجب » ، وشرح على الأحكام الصغرى لعبد الحق الإشبيلي ، وشرح على عمدة الأحكام ، في خمسة أجزاء .

(1) انظر التعريف بابن خلدون ، ص 55-56 ، البستان ، ص 185-186 .

(2) نيل الابتهاج ، ص 47

(4) أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد الشريف الحسني (1) ، وهو ابن أبي عبدالله الشريف ، ولد بتلمسان (سنة 748 هـ) ، ثم رحل مع أبيه إلى فاس ، في عهد أبي عنان المريني ، فدرس بها القرآن على أبي عبدالله بن زيد ، والنحو على أبي عبدالله بن حياقي ، والحديث على الخطيب ابن مرزوق ، والفقه على أبي عمران موسى العبدوسي وأبي العباس بن الشماخ ، وأبي العباس القباب والقاضي أبي العباس أحمد ابن الحسن ، ثم درس على أبيه مختلف العلوم من اعتقاد ، وأصول الدين ، وطبائعيات ، وفلسفة ، ومنطق وجدل ، ورياضيات ، وحديث وتفسير ، فنال بضاعة وافرة من العلوم ، أتقن حفظها وفهمها ، وبدأ بالتدريس بتلمسان في حياة أبيه ، ثم خلفه بعد موته في التعليم بالمدرسة اليعقوبية ، فرحل إليه الطلبة من سائر أنحاء المغرب ، واخذ عنه ابن مرزوق الحفيد وغيره ممن نبغ ذكره بعد ذلك ، ورحل إلى غرناطة ، فدرس بها مدة ، ثم قفل راجعاً إلى تلمسان ، فتوفي غريقاً في البحر ، (في صفر سنة 792 هـ .

واشتهر بغزارة حفظه للمسائل ، وتضلّعه في الفقه والتقوى ، وتفوّقه في منهج التعليم ، وإتقان الطرق التربوية ، إلا أن وفاته ، وهو لا يزال في عنفوان شبابه أطفأت نور علومه المشرق ، وأفقدت طلبة العلم أحد أعلام الثقافة المغربية .

(1) انظر البستان ، ص 117 - 120 ، نيل الابتهاج ، ص 150-154 ، بغية الرواد ، ج 1 ص 57 .

(5) - الشيخ إبراهيم بن موسى المصمودي التلمساني⁽¹⁾ : أصله من صنهاجة المغرب قرب مكناسة ، وأخذ العلم بفاس عن العبدوسي ، والآبيلي ، وغيرهما ، ثم نزل تلمسان ، ولازم فيها أبا عبد الله الشريف بالمدرسة اليعقوبية ، وبعد وفاته ، أخذ عن سعيد العُقباني بالمدرسة التاشفينية ، ثم انقطع للعبادة والتدريس ، فأخذ عنه أبو عبد الله بن جميل ، وابن مرزوق الحفيد ، وغيرهما ، وتوفي سنة (804 هـ أو 805 هـ) ودفن بضريح الأمراء الزَيَّانِيَّين أبي يعقوب ، والد أبي حمّو الثاني ، وأخويه أبي سعيد وأبي ثابت ، واشتهر صلاحه عند الناس ، فنال احترامهم وتقديرهم ، وقد سُمِّي المسجد المحاذي للمدرسة اليعقوبية وللضريح ، باسمه (سيدي إبراهيم) .

(6) - أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد العُقباني⁽²⁾ : ولد بتلمسان سنة (720 هـ) ، وأخذ فيها عن الأخوين ابني الإمام ، ثم درس على الآبيلي الأصول والعلوم العقلية ، وعلى الحافظ السَّطِّيِّ الفرائض ، وعلى غيرهما من العلماء ، فحذق علوماً جمّة من تفسير ، وأصول ، وفقه ، وتصوف ، ومنطق ، وحساب ، وهندسة وغيرها ، وولي القضاء ببجاية أيام السلطان أبي عنان المريني ، ثم نقل إلى قضاء مراكش وسلا . ثم عاد إلى المغرب

(1) انظر : نيل الابتهاج ، ص 51 - 52 ، البستان ، ص 64 - 66 .

(2) انظر : الديباج المذهب ، ص 124 - 125 ، نيل الابتهاج ، ص 125 - 126 ، البستان ، ص 106 - 107 .

الأوسط فولى قضاء وهران وهنين وتلمسان، ومكث في القضاء ما ينيف على أربعين سنة ، واخذ عنه ابن مرزوق الحفيد وأبو يحيى بن أبي عبد الله الشريف ، والشيخ إبراهيم المصمودي ، وأبو الفضل ابن الإمام ، وأبو العباس بن زاغو ، وكذلك ابنه قاسم العقباري .

وألف سعيد العقباري شرحاً على الحوفيّ ، في الفرائض ، وشرح البردة ، وشرحاً على ابن الحاجب الأصليّ ، وشرح قصيدة ابن الياصمين وتفسير سورتي الفتح والأنعام ، وشرح العقيدة البرهانية وكتاباً سماه «لباب اللباب في مناظرة القباب» .

العلوم اللسانية والاجتماعية :

كثر اعتناء العلماء ، في عهد أبي حمّو الثاني ، بهذه العلوم واشتهر فيها كثير من ذكرنا في مجال العلوم الدينية ، مثل أبي عبد الله الشريف ، وابن مرزوق الخطيب ، وأبو محمد بن أبي عبد الله الشريف .

وانصرف الأدباء إلى نظم الشعر للإشادة بعلو قدر المولد الشريف ، ومدح السلطان أبي حمّو ، ووصف تلمسان وغير ذلك من الأغراض ، وإلى شرح القصائد المشهورة ، كالبردة ، وتنافس الكتّاب في إنشاء الرسائل البليغة ، وتأليف كتب التاريخ والتراجم وغيرها .

ومن أشهر من نبغ في هذه العلوم :

(7) - أبو عبد الله محمد بن البشاء ، التلمساني⁽¹⁾ : كان فقيهاً ، أديباً شاعراً ، ظريفاً ، ذكر له يحيى بن خلدون موشحة مطلعها :

من أطلع فوق مائس الرياحان بدر الأفق
هتر منعماً على كئيبان تحت الغسق
وتاريخ وفاته مجهول .

(8) - أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي الثغري⁽²⁾ : ولد ونشأ بتلمسان ، ودرس على أبي عبد الله الشريف ، ونبغ في فنون الأدب ، فنظم القصائد الغراء ، كان يلقيها في الحفلات الدينية التي كان يقيمها أبو حمّو في قصره للاحتفال بالمولد الشريف ، وفي شتى المناسبات ، وكان من جملة كتّاب الدولة ، يشغل منصب شاهد في بيت المال⁽³⁾ ، فأكثر من مدح السلطان أبي حمّو ، والإشادة بكرمه ونبله وشجاعته وعلمه ، ومن أجل نظمته قصيدته التي مطلعها :

بسعدك الجاريان الدهر والقدر وباسمك الغالبان النصر والظفر⁽⁴⁾

(1) انظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 60 - 62 .

(2) انظر : البستان ، ص 222 - 223 ، نفح الطيب ، ج 9 ، ص

327 - 335 ، محمد الطمار ، تاريخ الأدب الجزائري ص ، 177

- 185 .

(3) انظر : زهر البستان ، ورقة 53 و 62 و ، 85 و 91 و .

(4) وردت في زهر البستان ، ورقة 53 و- 54 و .

وقد جاء فيها :

لله منك مليك أروع ورع في الحرب عمرو وفي محرابه عمر
يلقى العفاة ببشر إثره كرم كذلك الغيث إثر البرق ينهمر
ومن نظمه في وصف تلمسان من قصيدة قالها سنة (764 هـ) : (1)

قم فاجتل زمن الربيع المقبل ترّ ما يسرّ المجتني والمحتلي
وانشق نسيم الروض مطولاً وما أهداك من عرف وعرف فاقبل
وانظر الى زهر الرياض كأنّسه درّ على لبّات ربّات الحلي
في دولة فاضت يداها بالنّدى وقضت بكلّ منى لكلّ مؤمل

ولم ينقطع أبو عبد الله الثغري عن مدح أبي حمّو الثاني ، ثم ابنيه
أبي تاشفين (791 - 795 هـ) وأبي زيّان (796 - 801 هـ) ، ولعلّه
توفي في أوائل القرن التاسع الهجري .

9 - أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة بن علي التلّاسي (2) : من
أهل تلمسان ، كان طبيب السلطان أبي حمّو ، وشاعراً بارزاً من

(1) وردت في زهر البستان ، ورقة 91 و .

(2) انظر : نفح الطيب ، ج 9 ، ص 336 - 337 ، أزهار الرياض ،

ج 1 ، ص 247 - 249 ، محمد الطاهر ، المرجع المذكور ، ص 185

شعراء بلاطه ، نظم قصائد كثيرة في مدح أبي حمّو ، وكان يجيد التوشيح ، فن نظمه موشحة مطلعها : (1)

يا ويح صبّ بان عنه الشباب

لهيب وجد عندما ودّعوا

وموشحة ، أخرى مطلعها : (2)

لي مدمع هتان ينهل مثل الدر

قد صير الأجفان ما إن لها من أثر

(10) - أبو زكريا يحيى بن خلدون (3) : صاحب كتاب « بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد » ، وأخو عبد الرحمان بن خلدون مؤلف كتاب « العبر » ؛ ولد أبو زكرياء ، بتونس سنة (734 هـ) ، ونشأ بها وتلقّى العلم على علمائها ، واستفاد كثيراً من علماء مجلس أبي الحسن العلمي ، عندما احتلّ تونس ، سنة (748 هـ) ، مثل الحافظ السطّي ، وأبي محمد عبد المهيمن الحضرمي ، والآبيليّ ، وغيرهم .

وفي عهد السلطان أبي عنان المريني انصرف يحيى بن خلدون إلى

(1) وردت في بغية الرواد ، ج 2 ، ص 87 - 88 .

(2) وردت في بغية الرواد ، ج 2 ، ص 164 - 166 .

(3) انظر : أزهار الرياض ، ج 1 ، ص 246 - 247 ، نفح الطيب

ج 9 ، ص 340 - 341 .

خدمة الدولة المرينية ، وفي آخر سنة (761 هـ) ، رافق الأمير الحفصي*
أبا عبد الله محمد ، الذي توجه نحو بجاية قصد انتزاعها من عمه السلطان
أبي إسحاق ، بمساعدة قبيلة رياح ، وفي سنة (764 هـ) وفد يحيى بن
خلدون على أبي حمّو الثاني ، رسولا من قبل أبي عبد الله الحفصي* ،
في شأن طلب مساعدته على أبي إسحاق ، ولكن أبا حمّو لم يرتلبية هذا
الطلب ، وبعد ذلك بسنة زحف أبو عبد الله الى بجاية ، واستولى عليها
صلحا ، وعيّن يحيى بن خلدون في منصب الحجابة ، ثم تركها لأخيه
عبد الرحمن الذي قدم من الأندلس إلى بجاية في جمادى الآخرة سنة
(766 هـ) ، ومكث يحيى بن خلدون في بلاط الأمير أبي عبد الله ، الى
أن استولى على بجاية ، أمير قسنطينة أبو العباس الحفصي (شعبان
767 هـ) .

ثم سجن يحيى بن خلدون بعنابة ، بأمر من الأمير أبي العباس ،
وذلك بعد أن غادر أخوه عبد الرحمن بجاية متجها إلى الجنوب وملتجئا
عند ابن مُزني ، وبعد أشهر فرّ يحيى من سجنه ، ولحق بأخيه في
بسكرة ، معتصما بحماية بني مزني .

وفي رجب (769 هـ) التحق يحيى بن خلدون ببلاط أبي حمّو
الثاني حيث عيّن كاتباً للسلطان الزيّاني ، وشغل ذلك المنصب إلى أن
ساعت الأوضاع بين الامارة العبد الوادية والدولة المرينية ، واحتل
السلطان عبد العزيز مدينة تلمسان ، ومكث يحيى مدة بتلمسان ، في

بلاط عبد العزيز ، ثم رحل الى فاس ، رفقة أخيه عبد الرحمن
ولسان الدين ابن الخطيب .

وفي أول سنة (776 هـ) ، عاد يحيى بن خلدون الى تلمسان ،
فأرجعه أبو حمّو في منصب الكتابة ، وألّف له يحيى كتاب « بغية
الروّاد » ومكث في بلاط تلمسان الى أن قتل بها في رمضان (780 هـ)
بتدبير من الأمير أبي تاشفين ، لأسباب سبق شرحها ⁽¹⁾ .

ويحيى بن خلدون من طبقة الكتاب المبرزين ، أمثال أبي القاسم ابن
رضوان ، ولسان الدين ابن الخطيب وغيرهما ، يمتاز بثقافة أدبية واسعة ،
وأسلوب يزخر بالمحسنات البديعية والسجع المستظرف ، مما كان يعجب
به أدباء عصره ، بالإضافة الى نبوغه في سائر العلوم اللسانية والاجتماعية ،
وخصوصاً التاريخ .

هذا ، وقد نظم يحيى بن خلدون ، قصائد عديدة ، في مدح أبي حمو
الثاني ، وفي مناسبة المولد الشريف ، وأغراض أخرى ، تشهد بملكة شعرية
صادقة ، ورقة ونباهة . فمنها القصيدة التي قالها في الاحتفال بالمولد
الشريف سنة (764 هـ) ، عندما قدم رسولاً للأمير أبي عبدالله ، وأولها :

ترأت لها أعلام نجد فحيّاها نسيم سرى من حاجر وربّاها

(1) انظر فيما قبل ، ص 100 - 102 .

ولاح لها البرق اليباني فانبرت تمد حثيثاً للعذيب خطاها (1)

ومنها القصيدة التي التمس بها رضى ابي حمّو، أثناء مقامه بفاس،
أواخر سنة (775 هـ) ، جاء فيها :

واذا الديار تعرّضت لآخي الهوى لم يغن عنه الصبر والكتان
يعتاده الذكرى ويبعث وجده أثر تخلفه بها السكان
يا سائل العرصات أقوت ضلة من أين تدري الدار ما الطعان
لا تخش ان ضن الغمام لربعها ظما فدمعي عارض هتان (2)

ويضاف إلى هؤلاء كثير من الشعراء الذين لم ينالوا ما ناله هؤلاء من
علو المنزلة ولم يشتهر شعرهم رغم ما يبدو عند بعضهم من مواهب لا
تجحد ، أمثال : القاضي أبي عبدالله محمد بن أحمد الحسني المعروف
بابن يعلى (3) وأبي محمد عبد المؤمن بن يوسف المديوني (4) وأبي عبدالله
محمد البطوي (5) وأبي القاسم بن ميمون السنوسي (6) وأبي الحسن علي

(1) وردت هذه القصيدة بالنص الكامل في زهر البستان ، ورقة 85 و
87- و .

(2) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 297 .

(3) انظر زهر البستان ورقة 15 ظ - 16 ظ ، 32 ظ - 33 و ،
43 و - 45 ظ .

(4) أنظر زهر البستان ورقة 16 ظ - 18 و ، 33 و - 34 و ،
46 و - 47 ظ .

(5) انظر زهر البستان ورقة 21 و 23 و ، 65 ظ - 66 ظ .

(6) انظر زهر البستان ورقة 23 و - 24 ظ ، 26 و - 64 ظ ،
و - 65 ظ .

بن العطار ⁽¹⁾ وأبي العباس محمد بن سفيان ⁽²⁾ ، وأبي محمد عبد الوهاب بن محمد بن عبد القادر ⁽³⁾ ومحمد بن صالح شقرون ⁽⁴⁾ وأبي علي حسن بن ابراهيم بن سبع ⁽⁵⁾ ، وأبي عبدالله محمد بن علي العصامي ⁽⁶⁾ ومحمد بن علي ابن قاسم المرسي ⁽⁷⁾ ، وأغلبهم كانوا كُتّاباً في مختلف الدواوين بتلمسان. وقد حفظت لنا كتب التاريخ قصائد لهؤلاء الشعراء ، من دون أن تشير إلى حياتهم وتكوينهم الأدبي .

وعلى كل ، فإن هذا يشهد على حركة أدبية زاخرة ، تجلّت في الشعر وفي النثر على السواء ، وما وصلنا من إنتاجهم ينبيء بازدهار الآداب آنذاك ، وعلو مستوى الكتاب والشعراء الثقافي .

العلوم الطبيعية :

عرفت الحركة العلمية تقدماً ملحوظاً ، وتواصلت عناية العلماء بالتعاليم والطب والتنجيم وغير ذلك ، رغم ما أصاب تلمسان من تشريد

-
- (1) زهر البستان ورقة 35 و - ظ .
 - (2) زهر البستان ورقة 45 ظ - 46 و .
 - (3) زهر البستان ورقة 87 و - 88 و .
 - (4) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 143 - 145 .
 - (5) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 282 - 284 .
 - (6) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 315 - 316 .
 - (7) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 316 - 317 .

الكثير من علمائها ، وهجرتهم الى المغرب الأقصى أو الاندلس أو الشرق
أمثال الآبلي والمقري الكبير وابن مرزوق الخطيب .

وقد نبغ علماء في هذه العلوم ، نذكر فيما يلي أبرزهم :

- أبو عبدالله الشريف: وقد سبقت الإشارة اليه ، في صدد ذكر العلوم
الدينية ، وقد ذكر صاحب « البستان » أنه كان « إماماً في العلوم العقلية
كلها ، منطقاً وحساباً وتنجيماً وهندسة وموسيقى وطبياً وتشريعاً
وفلاحة ، وكثيراً من العلوم القديمة والحديثة » (1) .

ومن أشهر مؤلفات عصره ، شرحه على جل الخونجي ، في المنطق .

سعيد العقباني : وقد سبق ذكره أيضاً ، خلف أبا عبدالله الشريف في
تدريس التعاليم ، وكان أستاذاً بالمدرسة التاشفينية ، فاستفاد منه كثيرون في
هذه العلوم ، وألف شرحاً على جل الخونجي ، وشرحاً على تلخيص ابن البناء
في الحساب ، مما يدل على نبوغه في هذه العلوم .

(11) - أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بابن الفحام : (2) تلميذ

أبي عبدالله بن النجار ، واشتهر بصنع المنجاة التي ازدان بها قصر
أبي حمو الثاني ، وأشاد بذكرها شعراء بلاطه ، وقد وصف

(1) البستان ، ص 173 .

(2) انظر : بغية الرواد ، ج 1 ، ص 56 .

يحيى بن خلدون هذه المنجاة بقوله : « وخزانة المنجاة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه بأعلاها أيككة تحمل طائراً فرخاه تحت جناحيه، ويخاطله فيها أرقم خارج من كوة بجذر الأيككة صعوداً، وبصدرها أبواب موقفة عدد ساعات الليل الزمانية يصاقب طرفيها بابان موقوفان أطول من الأولى وأعرض ، فوق جميعها ودوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك ، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عقابان ، بفي كل واحد منها صنجة صفر يلقيها إلى طست من الصفر مجوّف بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة ، فيرن ، وينهش الأرقم أحد الفرخين فيصفر له أبوه ، فهناك يفتح باب الساعة الراهنة ، وتبرز منه جارية محتزمة كاظرف ما أنت راء ، ييمينها اذ بارة فيها اسم ساعتها منظوماً ، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لأمر المؤمنين أيده الله ، ⁽¹⁾ ، وقد ضاعت هذه الخزانة ، ولم يصل إلينا منها إلا وصفها هذا .

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 40 - 41 .

ب — الفنون والعمران

وتشهد خزانة المنجاة ، وما لا يزال باقياً إلى يومنا هذا من آثار الدولة الزيدانية في عهد أبي حمّو الثاني ، على تقدم الفنون المختلفة ، وبراعة الفنانين والصنّاع في شتى المجالات ، وأبرز ما لا يزال ماثلاً للعيان ، ما يسمّى بالفن المعماريّ ، وتنحصر الآثار المعماريّة التي تنتمي إلى عهد أبي حمّو الثاني ، في ضريح الولي إبراهيم المصموديّ والجامع المحاذي له ، ويحمل اسم الوليّ .

وقد ذكر المؤرخون ، أن أبا حمّو ، أمر بتشيد هذه الآثار بعد وفاة والده ، في شعبان (763 هـ) ، وكان قد أمر بدفنه ، حسب ما جاء في بغية الرواد ، « برياض كانت بباب إيلان ، استدعاءً لقبره منه » ، (1) وورد في زهر البستان أن أبا يعقوب دفن « بـسـدار أبي عامر » التي أصبحت « مقبرة من المقابر » ، (2) ويمكن التوفيق بين الخبرين ، باعتبار الرياض تابعاً لقصر أبي عامر بن يغمراسن الذي ترك ثروة كبرى بعد وفاته ، بني منها أيام أخيه أبي سعيد عثمان مسجد أبي الحسن ، القريب من المكان الذي دفن فيه أبو يعقوب ، والد أبي حمّو .

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 104 وباب إيلان كانت تقع غربي الجامع

الأكبر بتاجارات في اتجاه باب كشوطة والصهرج الكبير .

(2) زهر البستان ، ورقة 83 ظ .

ويذكر يحيى بن خلدون أن أبا حمّو ، بعد دفن والده ، « نقل إلى جواره أخويه السلطانين أبا سعيد وأبا ثابت رحمهما الله من مدفنها بالعبّاد، وشرع، نصره الله، لحينه في بناء مدرسة وزاوية على قبورهم،⁽¹⁾ والجدير بالملاحظة أن المصادر التاريخية لا تشير إلى بناء مسجد ، وأن بناء زاوية لم يرد في كتاب زهر البستان⁽²⁾ ، كما لم يرد في « نظم الدر والعقيان⁽³⁾ » ، مما يجعلنا نستنتج أن أهم مبنى أنجز في عهد أبي حمّو الثاني إزاء الضريح هو المدرسة التي أشاد المؤرخون بذكر جمالها ، وقد أورد يحيى بن خلدون ، أن بناءها دام سنة ونصف سنة ، وأن تدشينها كان في (5 صفر 765 هـ) ،⁽⁴⁾ وجاء وصفها في زهر البستان ، فقال مؤلف هذا الكتاب : « فأقيمت مدرسة مليحة البناء ، واسعة الفناء ، بنيت بضروب من الصناعات ، ووضعت في أبدع الموضوعات ، سمكها بالاصبغة مرقوم ، وبساط أرضها بالزليج مرسوم ... غرس بإزائها بستنتين يكتنفانها ، و... صنع فيها صهرجاً مستطيلاً ، وعلى طرفيه من الرخام خصتان يطردان مسيلاً ، فيا لها من بنية ما أبهجها ... »⁽⁵⁾

أما الزاوية فقد انفرد يحيى بن خلدون بذكرها ، وأغلب الظن أنها

-
- (1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 104 .
 - (2) انظر زهر البستان ، ورقة 84 و .
 - (3) انظر نظم الدر والعقيان ، ورقة 62 ظ .
 - (4) بغية الرواد ، ج 2 ، 136 .
 - (5) زهر البستان ، ورقة 84 و .

كانت قائمة في مكان مسجد سيدي ابراهيم الحاليّ وأن بعض أجزاء هذا الأخير ، وخصوصاً المئذنة ، قد أضيفت إلى مبنى الزاوية، في آخر الدولة الزيّانية ، أو في العهد التركيّ ويشهد على ذلك انخطاطها الفني ، وقلة زخارفها .

أما الضريح ، الذي أمر بينائه أبو حمّو الثاني ، فانه يمتاز بزخارفه الجميلة ، ذات الرسوم الهندسيّة الملوّنة .

ومن المؤسف أن تكون المدرسة قد اندثرت ، ولم يصل لنا إلا وصفها ، كما اندثرت قصور بني عبد الواد ، وما بنوه من متنزّهات في ضواحي عاصمتهم ، وكما تبعثرت خزانة الكتب التي أسّسها أبو حمّو وأودع فيها نفائس المخطوطات .

غير أن آثار أبي حمّو الادبيّة لم تلق نفس المصير ، إذ حفظ لنا المؤرخون كثيراً من شعره ، كما عرف كتابه « واسطة السلوك في سياسة الملوك » شهرة جعلت الناس يقبلون على نسخه ومطالعه والاستفادة منه .

الباب الثالث

آثار أبي حمو الثاني الأدبية

لقد خلف أبو حمو الثاني آثاراً أدبية تنبىء عن ثقافة عريضة لا يستهان بها ، وتعطينا فكرة صادقة عن الذوق الأدبي الذي كان سائداً في عهده بالمغرب الأوسط (1) .

وميل أبي حمو للأدب أمر طبيعي ، وذلك أنه عاش قبل إمارته في بيئة ثقافية ، في بلاط بني عبدالواد بتلمسان ، ثم في فاس ، العاصمة المرينية ، وأخيراً في بلاط الحفصيين بتونس . (2)

(1) عن الحياة الأدبية بالمغرب الأوسط في عهد أبي حمو ، انظر نفح الطيب ، ج 9 ، ص 327 - 342 ، بغية الرواد ، ج 1 ، ص 23 - 76 ، التنسي ، نظم الدر والعقيان ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 1875 ، ورقة 58 ظ - 63 و ؛ محمد الطهار ، تاريخ الأدب الجزائري ص 114 - 117 ، 155 - 191 ؛ أزهار الرياض ج 1 ، ص 239 - 261 .

(2) عن حياة أبي حمو قبل إمارته ، انظر : بغية الرواد ، ج 2 ص 15 - 30 زهر البستان ، ورقة 1 ظ - 15 و .

وأهم أثر لأبي حمّو كتاب « واسطة السلوك في سياسة الملوك » (1) وقد أودع فيه آراءه السياسية ، وضمنه بعض قصائده الشعرية .

وهذا التأليف يحتاج الى عناية الباحثين، لما يحتوي عليه من معلومات قيّمة في شتّى الميادين .

وستنعرّض ، فيما يلي ، إلى أهمية هذا الكتاب التاريخية وإلى ما يساعدنا في التعرف على شخصية أبي حمّو الثاني ، والتطلع على أخلاقه وسلوكه ، ثم نُتبع ذلك بإشارة سريعة الى شعره وإلى أغراضه المختلفة .

(1) طبع بتونس ، سنة 1279 هـ .

١ - كتاب « واسطة السلوك »

تاريخ تاليفه :

ليس لدينا نصّ يثبت يقيناً تاريخ تأليف كتاب « واسطة السلوك »
الا أن بعض ما جاء في الكتاب من الاشارات إلى حوادث معاصرة ،
يجعلنا نرجح تحديد تاريخ تأليفه حوالي سنة (765 هـ) .

ومما يؤيد هذا التقدير ، أن أبا حمّو يخاطب فيه ابنه أبا تاشفين ،
كما يخاطب الوالد ولده الصغير السن^(١) ويدعوه إلى التحلّي بمكارم
الأخلاق والخلال الحميدة ، مثلاً يفعل المؤدّب مع تلميذه . فتراه ، مثلاً ،
يقول في خاتمة كتابه : « وقد وضعنا لك ، يا بني ، هذا الكتاب . .
وجمعنا لك ما يصلح لك بين أمور الدنيا والآخرة ... وبعد حفظك
لكتابنا هذا ، واتباعك للأمور الشرعية والسياسة الدنيوية ، فتكون
عمدتك كلها التوكّل في جميع أمورك على الله تعالى والتفويض له^(٢) .
ويستبعد حتّى الكبير على حفظ الكتاب ، وخصوصاً بالنسبة لأبناء

(١) سبق أن ذكرنا ، فيما قبل ، ص 73 ، أن الأمير أبا تاشفين بن أبي
حمّو ولد في في ربيع الأول سنة 752 هـ .

(٢) واسطة السلوك ، ص 162 - 163 .

الملوك ، فإن تأديبهم كان يقع ، عادة ، في حدائتهم فاذا بلغوا الرشد تفرغوا للقيام بالمهام السياسية والعسكرية التي يكلفون بها .

وبما يجدر ملاحظته أيضاً ، أن الحوادث التي أشار إليها أبو حمّو في كتابه ، وقعت كلها أثناء السنوات الخمس الأولى من إمارته ، فهو يتحدث مثلاً عن حركته الموقفة إلى تلمسان ، واستيلائه عليها ، وإحياء دولة آبائه وأجداده ، سنة (760 هـ)⁽¹⁾ ويشير أيضاً إلى علاقاته بالسلطان أبي سالم المريني (شعبان 760-ذي القعدة 762 هـ) ، وسفارة وزيره عمر بن عبدالله إلى تلمسان ، للتفاوض في شأن عقد الصلح بين القطرين .⁽²⁾

ثم إن أبا حمّو ذكر وزيره عبدالله بن مسلم⁽³⁾ بعبارات يفهم منها أنه كان لا يزال على قيد الحياة آنذاك ، وذلك أن اسم الوزير ليس متبوعاً بعبارـة « رحمه الله » أو ما يشاكلها ، المؤلف استعمالها بعد أسماء من فارقوا الحياة ، وخاصة عندما يكون المؤلف يوليهم عطفه ويكنّ لهم محبة خالصة ، واليك قول أبي حمّو المشار اليه : « وقد اتفق لنا ذلك مع عمر بن عبدالله ، وزير ملك المغرب أبي سالم ، حين

(1) واسطة السلوك ، ص 13 - 19 .

(2) نفسه ، ص 158 - 160 .

(3) هو عبدالله بن مسلم الزردالي ، أشهر وزراء أبي حمّو الثاني ، وقد سبق ذكر دوره السياسي فيما قبل ، ص 95- 109 .

أرسله إلينا ليتحيل بعض الحيل علينا ... فتفرّسنا فيه الخادعة ، لما أظهر من التذلل والمصانعة، ولما أظهر من البشاشة والتعلّق ... فاتزلناه عند وزيرنا عبدالله بن مسالم ثم أمرنا وزيرنا باختباره ، إذا أطلععه على أسراره ، واستخراج ما عنده لنعلم مراده وقصده . (1)

أما الوقائع الهامّة ، التي حدثت بعد ذلك، كمنافسة الأمير أبي زيّان القُبيّ لآبي حمو في الإمارة، وهزيمة البطحاء (25 ذي الحجة (765)، ومنافسة الأمير أبي زيّان ابن السلطان أبي سعيد الثاني، وهزيمة بجاية (8 ذي الحجة 767) واستيلاء السلطان عبدالعزيز المريني على تلمسان والمغرب الأوسط (772 - 774 هـ) فلا أثر لذكرها في الكتاب .

هذا وقد أورد أبو حمو ، في آخر كتابه ، بعض المَوَلِدِيّات ويقع تاريخ نظمها ، حسب ما جاء في بغية الرواد ، بين سنتي (767 و 771) (2) ، والراجع لدينا أن المؤلف أدرج هذه القصائد في الخاتمة ، مع بعض النصائح وأضافها إلى الأصل ، بعد ذلك بسنوات عديدة .

موضوعه :

يتناول أبو حمو ، في كتابه هذا ، دراسة القواعد التي ينبغي على

(1) واسطة السلوك ، ص 158 .

(2) أنظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 162 - 164 ، 186 - 189 ، 224 - 226 .

الملوك مراعاتها في سياستهم، والخلال التي يحسن لهم التحلي بها ، اذا أرادوا أن يحققوا ما تصبو إليه نفوسهم ، عادة من نشر السلام والرخاء في بلادهم ، والفوز في الدنيا والآخرة .

فالموضوع أخلاقيّ ، من جهة ، إذ يشمل القيم الأخلاقية التي ينبغي للملك ولرجال حاشيته أن يتصلوا بها، والخصال الذميمة التي يجب الابتعاد عنها ، وهو سياسيّ ، من جهة أخرى ، إذ يتناول قضايا الحكم ، وتدير المليك وأعوانه لشؤون الدولة .

فهذا الكتاب يتّسم بطابع تربويّ خاص، وذلك أن المؤلف سلطان ، يريد تأديب ابنه وتلقينه ما ينبغي عليه أن يعرفه في ميادين السياسة والحكم ، وهو من نوع كتب نصائح الملوك ⁽¹⁾ ، الا أن هذه النصائح ليست موجّهة الى الملك ، من طرف الحكماء والكتّاب كما هو الشأن عادة ، إنما هي صادرة عن أحد الملوك ، وموجّهة الى ولي العهد ، وإلى غيره من الأمراء والملوك .

ونتيجة ذلك أن أبا حمو طرق الموضوع من زاوية خاصة ، تختلف شيئاً ما عن التي عهدناها عند غيره من كتب في هذا المجال ويتضح لنا ذلك ، عندما نلتفت الى دراسة منهجه ، ومقارنته بمنهج غيره .

(1) عن كتب نصائح الملوك ، وتطور هذا الفن ، انظر :

G . Richter, Studien Zur geschichte der alteren arabischen Fustunpiegel, Leipzig 1932.

منهج أبي عمرو في معالجة الموضوع :

اختلف الحكماء والكتّاب ، الذين ألفوا في السياسة ، في طريقة معالجة هذا الموضوع ، وذلك حسب تكوينهم الثقافي ، وحسب البيئة التي عاشوا فيها ، والدور الذي لعبوه في المجتمع .

ولم يعن العرب بهذا النوع من التأليف قبل حركة الترجمة والنقل ، التي شجعها الخلفاء العباسيون ، ابتداء من عهد أبي جعفر المنصور ، وذلك ان الخلافة الاسلامية كانت لا تزال ، رسمياً ، تختلف تماماً عن النظم الملكي ، وتخضع للقيم الاسلامية ، التي تحصر مهمة الحكماء في تنفيذ القوانين والاحكام الشرعية ، المنصوص عليها في القرآن والحديث ، أو المجمع عليها من طرف أهل الحل والعقد ، ولم يكن للخلفاء الأمويين وزراء وبلاط يشبه بلاط الأكاسرة أو غيرهم من ملوك العجم .

الا أن الوضع تغير عندما تأسست الخلافة العباسية ، وبدأت حركة الترجمة ، فنقل ابن المقفع (106 - 142 هـ) الى العربية كثيراً من كتب الفرس ، منها «سيرة الملوك» (خدای نامہ) ، و«كلیلة ودمنة» ، و«الأدب الكبير» و«الأدب الصغير» ، وكلها تدور حول الحكمة والسياسة والتاريخ ، كما ألف «رسالة الصحابة» التي تناول فيها آداب حياة البلاط ، وسياسة الخليفة .

وقد حظيت هذه الكتب بإقبال الأدباء والأمراء ، فكانت نواة لفن

جديد من فنون الأدب ، هو فن الحكمة والسياسة ، وسيرة الملوك ، وقد تطوّر هذا الفن ، بعد ذلك ، تطوّرًا كبيراً ، بمقتضى البيئة الدينية والاجتماعية والسياسية التي عاشها الأدباء المسلمون فأدخلوا فيه النصوص الدينية الملائمة للموضوع ، من آيات قرآنية وحديث شريف ، وأقوال الخلفاء الراشدين ، وأشعار العرب ، كما أضافوا الى ذلك قصص الأنبياء ، وما روي من الحكايات عن الخلفاء والوزراء وغيرهم .

ولم تكن هذه الحكمة السياسية ، بادئ ذي بدء ، مدوّنة في كتب مستقلة ، ومرتبطة ترتيباً منطقيّاً ، ومبوبة حسب الموضوعات المطروقة ، بل كانت مبعثرة في كتب الحديث ، والأدب والتاريخ والأخلاق .

وجاء الجاحظ (المتوفى سنة 255 هـ) ، فالف كتاب « التاج في أخلاق الملوك » ⁽¹⁾ . ثم ألف الماوردي (المتوفى سنة 450 هـ) كتاب « الأحكام السلطانية » ⁽²⁾ ، وكتاب « أدب الوزير » ⁽³⁾ المعروف أيضاً باسم قوانين الوزارة وسياسة الملك .

وعظم اهتمام الأدباء والعلماء المسلمين بهذا الفن ، ونسب الى الغزالي المتوفى (سنة 505) كتاب « التبر المسبوك » ، في حكايات وحكم ونصائح

(1) حققه أحمد زكي ، القاهرة ، 1914 م .

(2) طبع بالقاهرة ، سنة 1298 هـ ، وبلندن ، سنة 1906 م .

(3) طبع بالقاهرة ، سنة 1348 هـ .

الملوك⁽¹⁾ قيل انه ألفه بالفارسية، وأن أحد تلامذته ترجمه الى العربية. ويشتمل هذا الكتاب على مقدمة في العقائد ، ثم مدخل في فروع شجرة الايمان ، وأهمها العدل والانصاف ، ومعرفة الدنيا، ومعرفة النفس الأخير، أي الموت والاخرة ثم يلي ذلك سبعة أبواب : أولها في ذكر العدل والسياسة وذكر سير الملوك ، والثاني في سياسة الوزراء وسيرتهم؛ والثالث في آداب الكتاب والرابع في سُمُو هِمَم الملوك، والخامس في ذكر الحكماء والسادس في شرف العقل ، والاخير في ذكر النساء وما يجب على المرء من حذرهن واجتناب حيلهن .

كما ألف القاضي أبو بكر الطرطوشي (المتوفي سنة 520 هـ) كتاب «سراج الملوك»⁽²⁾ وهو مؤلف ضخيم ، جمع فيه صاحبه كثيراً مما ورد في مختلف التأليف ورتب تلك المادة الغزيرة ترتيباً جديداً . فجعله في 64 باباً ، تدور حول مواعظ الملوك وبيان منزلتهم من المجتمع ، ثم بيان معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان ، مثل العدل والعلم والعقل ، ثم بيان معرفة الخصال التي هي جمال السلطان، وهي المشاورة والحلم والكرم والصبر والشكر، ثم بيان سيرة السلطان وأفعاله المحمودة والمخدومة ، من عدل وظلم وتدبير شؤون الجند وجباية الخراج وبيت المال وغير ذلك . وينتهي كتابه بذكر أخبار أخرى للملوك العجم ، وحكم ماثورة .

(1) طبع بالقاهرة (مطبعة التقدم) ، بدون تاريخ .

(2) طبع ببولاق ، سنة 1289 هـ .

والجدير بالذكر أن هذا التأليف الهام ، الذي يتناول موضوع سياسة الملوك من جميع زواياه ، يكتسي طابعاً دينياً وأخلاقياً خاصاً ، لما اشتمل عليه من المواعظ والإرشاد إلى السبيل المستقيم والحث على الابتعاد عن نعيم الدنيا ، واجتناب صحبة الملوك ، والعمل للآخرة ، ثم إن مجهود المؤلف يكاد يقتصر على ترتيب الحكايات والحكم والأخبار، والنصوص الشرعية ، أما تحليل الموضوع السياسي والأخلاقي ، وبسط ما يتطلبه من آراء ، فذلك عنده أمر ثانوي ، لا يحظى بعنايته ، ولا يحتل المنزلة الرئيسية .

وقد طرق ابن ظفر الصَّقِيلِيّ (المتوفي سنة 565 هـ) ، هذا الفن في كتاب " سلوان المطاع " ⁽¹⁾ من زاوية محدودة ، حيث جعل موضوعه منحصراً في خمسة أبواب ، أولها في التفويض ، والثاني في التأسّي ، والثالث في الصبر ، والرابع في الرضى ، والخامس في الزهد ، ويظهر من عناوين هذه الأبواب أن غرض المؤلف الرئيسيّ كان حث الملوك ورجال الدولة على احتقار زخرف الدنيا ونعيمها ، والتوكل على الله ، والصبر على الشدائد ، والعمل للآخرة ، وهذه الحكمة ، التي تستقي أصولها من القرآن والحديث وأقوال الحكماء والخلفاء وغيرهم ، من صميم الأخلاق ، ولا تمتّ بصلة قويّة بالسياسة ، بل السياسة هنا مغمورة بالاعتبارات الأخلاقية ، خاضعة لمعطياتها .

(1) طبع بالقاهرة سنة 1278 هـ وبتونس سنة 1279 هـ وببيروت سنة 1300 هـ .

ونفس الملاحظات تنطبق على كتاب « كنز الملوك في كيفية السلوك »⁽¹⁾ لسبط ابن الجوزي (المتوفي سنة 654 هـ) ، وهذا الكتاب يحتوي على نفس العناوين المذكورة في سلوان المطاع ، وعلى أغلب حكمه وحكاياته

هذا ، وقد تعرّض بعض الكتاب إلى معالجة الحياة السياسية في عصرهم ، ووصف حياة البلاط ، وما ينبغي على الملك وحاشيته أن يراعوه من القواعد السياسية والقيم الأخلاقية ، والتقاليد الاجتماعية بصفة موضوعية ، معتمدين على مشاهدتهم للواقع ، وخبرتهم السياسية والأدبية والأخلاقية ، ولم يلجئوا إلى رواية قصص الملوك والأمراء وغيرهم ، وذلك مثل ابن المقفع (المتوفي سنة 142 هـ) في « رسالة الصحابة » ، ولسان الدين بن الخطيب (المتوفي سنة 776 هـ) في رسائله السياسية⁽²⁾ ، فجاءت هذه التآليف مقتصرة على فن السياسة ، مستقلة عن القصة والتاريخ والأخلاق .

أما أبو حمّو فإنه حاول التوفيق بين هاذين الاتجاهين المختلفين ، فهو يعالج الموضوع من حيث المعطيات السياسية والأخلاقية والنفسية ،

(1) نشرة المستشرق Gosta Vitestam بلوند (Lund) ، السويد ، سنة 1970 م .

(2) أنظر ، مثلا ، رسالته في السياسة ، في كتابه « ربحانة الكتاب » ، مخطوط في المكتبة الوطنية بالجزائر ، رقم 2010 .

مع الالتفات ، في شتى المناسبات ، إلى الواقع التاريخي الذي شاهده أو عاشه ، فهو لا يكتفي بذكر القيم الأخلاقية المحمودة ، بل ينظر إليها من خلال مقتضيات الإطار السياسي ، ومتطلبات وظيفة من يتصف بها ، من ملك أو وزير أو قائد ، وغير ذلك ، فإذا تحدّث ، مثلاً ، عن الشجاعة أو الكرم أو الحلم ، تعرّض إلى دور هذه الخصال في سياسة المَلِك أو غيره من رجال الدولة ، وشرح موقف هؤلاء في شتى المناسبات التي تعترضهم أثناء قيامهم بمهمّتهم ، ويبيّن ما عليهم أن يسلكوا من طرق معالجة المشاكل التي تواجههم في تلك الأحوال ، ثم إنه عندما يتحدث عن الشجاعة ، يتناول دور المَلِك في الحرب ، وينتقل إلى بيان نظام الجيوش في عصره ، والتحذير من ارتكاب بعض الأخطاء التي قد تؤدّي إلى الهزيمة والفشل (1) .

ورغم أن كتاب « واسطة السلوك » لا يخلو من استعمال حكايات القدماء وحكمهم ، فإنه يقدم للقارئ دراسة واقعية للموضوع تتضمن عرضاً شاملاً للآراء السياسية والأخلاقية والاجتماعية ، ثم إنّه يعطي للجانب السياسي المنزلة اللائقة به في البحث ، فيجعلها هيكل الكتاب ، بينما تحلّ العناصر الأدبية والأخلاقية منزلة ثانوية .

وهذا الاتجاه يكسب كتاب أبي حنّو الثاني ، أهمية كبرى من حيث تطوّر العلوم السياسية في تاريخ الأدب العربي ، إذ يشكل مرحلة

(1) انظر واسطة السلوك ، ص 129 - 134

حاسمة نحو استقلالها عن العلوم الدينية من جهة ، وعن الأدب ، من جهة أخرى .

مضمون الكتاب :

يستهل أبو حنّو كتاب « واسطة السلوك » بمقدمة يبيّن فيها أنه ألّف هذا الكتاب ليطلع ابنه وولي عهده على قواعد تسيير شؤون الدولة، وليقدّم له « نصائح حكّمية ، وسياسة عملية » .⁽¹⁾ ثم يذكر أنه قسم كتابه الى أربعة أبواب .

ويحتوي الباب الأول على نصائح عامّة ، ينبغي على الملك مراعاتها إن كان يريد النجاح في الدنيا ، والفوز في الآخرة، وهي الاتصاف بالعدل ، وملازمة التقوى ، وحفظ المال ، والعناية بالجيوش . ويتخلّل عرض هذه النصائح ثلاث قصائد شعرية لابي حنّو ، الأولى في الفخر وشكر الخالق ،⁽²⁾ والثانية في التقوى ومدح الرسول ،⁽³⁾ . والثالثة في الفخر وذكر حركته الموفقة الى تلمسان لاهياء الدولة الزيّانية.⁽⁴⁾

(1) واسطة السلوك، ص 3 ، س 23

(2) ومطلعها : دمع ينهل من المقل : لقيح كان من العمل ؛ انظر واسطة السلوك ، ص 5 - 7 .

(3) ومطلعها : نام الاحباب ولم تم عيني بمصارعة الندم . انظر واسطة السلوك ص 10 - 11 .

(4) ومطلعها :

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم لما شعطتها من هبوب الرواحم
انظر : واسطة السلوك ، ص 15 - 19 .

ويشتمل الباب الثاني ، وهو أهم أقسام الكتاب ، على قواعد الملك وأركانه ، وهي أربع : العقل ، والسياسة ، والعدل ، والاعتناء بجمع المال والجيوش .

فعلى الملك أن يكون عاقلاً ، سديد الرأي ، وأن يميّز بين النافع والمضر ، وبين الحق والباطل ، والجائز والمستحيل .

وكذلك ينبغي للملك أن يدبّر مملكته أحسن تدبير ، وأن يسلك في سياسته طريق الرشاد ، وأن يحسن اختيار الأعوان ، ولا سيما الوزير ، فبصلاح الوزير تستقيم أحوال الدولة .

وينبغي له أيضاً التبصّر في تعيين الكتاب والولاة والقضاة والقوّاد ، لما يقوم به كل من هذه الأصناف من مهامّ خطيرة في شؤون الدولة ، ثم على الملك أن يكون مطلعاً على المراسيم الملكية ، وأن يجعل كلا من رجالات الدولة في منزلته ، وأن يحترم التقاليد المعمودة في ترتيب أعماله اليومية ، وأداء مهامّه ، من استقبال رجال الدولة والنظر في القضايا ، وغير ذلك .

كما يجب عليه أن يكون نقظاً حازماً ، ضابطاً لأموره ، وعليه أن يجعل لنفسه معقلاً يلجأ إليه إذا غزاه عدو واشتدت به الحال ، وأن يختار جواداً من عتاق الخيل يعدّه للشدائد والملمات ، وأن يقتني اليوافيت والجواهر وما غلائمه وخفّ محمله ، ليجمعها ذخيرة يجدها عند الشدّة .

وكذلك ينبغي له أن يتخذ وزيراً صالحاً ، يجده عوناً في الشدائد ، ومساعداً عند الحاجة ، لما اتصف به من خصال محمودة ، ونجدة وخبرة .

ثم يتطرق أبو حمّو الى حديث هامّ ، يدور حول موقف الملك من العدو ، في حال خشية هجومه ، ويختلف هذا الموقف حسب الظروف التي تعيشها بلاده ، من ضعف وقوّة . ولذا ، فإن عرض أبي حمّو يتناول سائر الاحتمالات ويحلّل الأحوال المناسبة لها ، ويبين ما هي الوسائل التي تمكّن صاحب الحكم من التغلّب على عدوّه

فإذا كانت العدو أقوى منه ، فعليه أن يستخدم شتى الأساليب لبلوغ غرضه ، وهو دفع خطر العدو ، وأول هذه الأساليب إغراء العدو « ووزرائه وخاصته وأهل رأيه » بالأموال ومعاملة هؤلاء بلطف ولين ، قصد حشّهم على الرجوع عن عزمهم ، والرضا بما يبذله لهم من الأموال .

فإن لم تنجح هذه الطريقة ، ولم يجب العدو على هذا العرض ، فعلى الحاكم أن يلجأ الى الحيلة ، وأن يحاول إثارة الفتنة وسوء التفاهم في بلاط العدو ، بأن يبعث ، مثلاً ، رسائل مزوّرة ، تشهد بخيانة وزيره ، ويمكن له أيضاً أن يغادر عاصمته ويعمل على إيقاع العدو في مأزق لا يستطيع الخروج منه إلا بالعودة الى بلاده والجلاء عن الأراضي التي اغتصبها .

وان لم يتمكن الحاكم من ابعاد خطر العدو بالحيلة فعليه أن

يتحصّن في معقله ، وأن يستعمل شتى ضروب التضيق عليه لارغامه على الانسحاب . واذا لم يتأت ذلك ، فما على الحاكم الا أن يفرّ أمام العدوّ الى المناطق الصحراوية فان تبعه العدوّ ، لم ينل منه الا التعب والعناء ، كما وقع للسلطان أبي الحسن المريني حين تصدى لاختراع قبائل العرب بإفريقية .

وبعد هذا ينتقل أبو حمّو الى بيان كيفية معاملة العدوّ اذا كان أضعف من الحاكم، ثم اذا كان مساوياً له في القوة ، وهو في سائر عرضه هذا يستشهد بالحوادث المعاصرة ، ويقدم للباحث معلومات قيّمة ، تلقي بعض الأضواء على هذه الفترة من تاريخ المغرب .

وكذلك يجب على الملك أن يكون عادلاً في حكمه وفي جميع تصرفاته، سواء فيما يتعلّق بنفسه ، أو بعلاقاته مع غيره من الناس فعليه ألاّ ينصرف عن أمور الدنيا وعن العناية بشؤون البلاد ، وأن يمثّل للأحكام الشرعية وللقوانين المعهودة.

وأخيراً ينبغي للحاكم أن يجمع المال والجيش ، وألا يكون مقصراً في ذلك ، ولا مفرطاً ، لتستقيم أمور الدولة وتسير على أحسن وجه .

أما الباب الثالث ، فإنه يتضمّن تحليلاً للأوصاف الحمودة التي يستقيم بها الملك ، وهي الشجاعة ، والكرم ، والحلم ، والعفو .

وعندما يتحدث أبو حمّو عن الشجاعة نراه يتعرّض الى الحرب ،

والى بيان أنجع الطرق في قيادة الجيوش ، والتفوق على العدو .

ويتلوه الباب الرابع ، في الفراسة ، ويشتمل على دراسة نفسية لهيئة الناس ، والاستدلال بظواهرهم وسمة وجوههم عما يحول في ضمائرهم ، والوسائل التي يمكن بها اختبارهم والوصول الى ما يكنه باطنهم ، وخصوصا السفراء الذين يفدون من البلدان الأخرى ، أو الرسل الذين يبعثهم العدو لإبرام صلح ، فيجب الانتقاء من خداعهم ومعاملتهم حسب نواياهم .

ثم ، في خاتمة الكتاب ، يتوجه أبو حمّو الى ابنه ببعض النصائح ، ويحثه على التحلي بمكارم الأخلاق ، واتباع الحق ، واجتناب الباطل ، والعمل للأخرة ، ويرغبه في مساعدة المسلمين في جهادهم ضدّ النصارى بالاندلس . وأخيراً يهيب به الى الاحتفال بليلة المولد الشريف ، والى نظم المولديّات . وينتهي الكتاب ببعض القصائد التي نظمها أبو حمّو بمناسبة حفلات المولد .

قيمة الكتاب :

تتجلى قيمة كتاب « واسطة السلوك » في مختلف الميادين من تاريخ واجتماع وأدب .

آ - قيمته التاريخية :

يحتوي كتاب « واسطة السلوك » على آراء وأخبار تاريخية رواها

المؤلف عن كتب التاريخ والأدب أو عن أشخاص شاركوا في وقائعها أو كان نفسه من المشاركين فيها .

ومن بين هذه الأخبار ما يرجع إلى ملوك الفرس ، نقلها المؤلف ، غالباً ، عن كتاب « سلوان المطاع » لابن ظَفَر الصَّقِيلِيّ ⁽¹⁾ ، ومنها أخبار الخلفاء الراشدين وأمراء بني أمية وبني العباس وهي مشهورة ، ورد ذكرها في كتب التاريخ والأدب ، مثل « العقد الفريد » لابن عبد ربّه ، و « سراج الملوك » للطُّرطوشيّ ، وغيرها ، ثم إن أبا حمّو يروي أيضاً حوادث قريبة من عصره ، مثل المعركة التي انهزم فيها أبو الحسن المريني بالآندلس ⁽²⁾ ، كما يصف الوقائع التي شاهدها بنفسه ، مثل حركته الموفّقة إلى تلمسان ، (سنة 760 هـ) ⁽³⁾ .

وفي « واسطة السلوك » بعض الملاحظات التاريخية ، أوردها أبو حمّو في أثناء حديثه ، وهي تبرهن عن فكره الثاقب ، ونقده الصائب ، فمن ذلك ما جاء في الباب الثاني ، عندما تحدّث عن الملك الذي له عقل يصلح به دنياه دون أخراه ، فذكر عبد الملك بن مروان ، مثلاً لذلك ، ولاحظ أن توليته الحجاج بن يوسف على العراق تدل على مهارته

(1) وذلك مثل قصة سابور « واسطة السلوك » ص 34 - 51 ، وقد وردت

في السلوابة الثانية من « لمران المطاع » وهي سلوانه التأسّي .

(2) انظر : واسطة السلوك ، ص 132 - 133 .

(3) نفسه ، ص 13 - 19 .

في السياسة وتدير شؤون الدولة ، إلا أنها أدّت إلى ظلم كبير ، ويقول معلقاً على ذلك « فمن دهائه (يعني عبد الملك) أن العامة تنسب الظلم إلى الحجاج لا إليه ، وأما الخاصة فلا تردّ اللوم إلا عليه ، وما سفك الحجاج من الدماء ، فإنما هو في الحقيقة على يديه ، وكذلك حصار مكة ، وهندم الكعبة ، فالحجاج سيئة من سيئات عبد الملك » (1) .

ب - قيمته الاجتماعية :

ولكتاب « واسطة السلوك » قيمة اجتماعية هامة ، وذلك لأن الموضوع يدور حول قضايا اجتماعية ، أو لها علاقة مأسّة بسلوك المرء في المجتمع ، وقد درس المؤلف ، بصفة خاصّة ، الطبقة الحاكمة ، من ملوك ووزراء وسائر الأعوان .

ومما يجدر ملاحظته أن أبا حمّو يُجِلُّ العقل المنزلة اللاتقة به ، ويجعله القاعدة الأولى التي يعتمد عليها في السياسة ، فتراه يقول مثلاً ، « والعقل غريزة يضعها الله تعالى حيث شاء ، وهو نور يقذفه الله تعالى في القلوب الفاضلة » (2) ، وهذا التصريح إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على مدى تأثر أبي حمّو بآراء الفلاسفة وبعده عن اعتقادات الصوفية ، وعن رأي الغزالي ، في هذا المجال .

(1) واسطة السلوك ، ص 29 .

(2) نفسه ، ص 22 .

وإذا كان على الإنسان أن يستنير بعقله ، في سلوكه ، فعليه أيضاً ، أن يراعي مقتضيات السياسة ، وألاَّ يهمل واجباته الدنيوية من تدبير شؤون الدولة ، ومعاملة وجهاء الناس حسب ما تقتضيه منزلتهم ومهمتهم ، والاعتناء بالجيش ، الذي يحمي به كيان الدولة ، ويجمع الأموال ، التي بفضلها يتمكن من القيام بأعباء الحكم .

وأهم ما يعنى به المؤلف سلوك الملوك وغيرهم من الحكّام ، في سياستهم ، وأثناء قيامهم بمسؤولياتهم الإدارية والاجتماعية. والموضوع صلة وثيقة بالأخلاق ، غير أن العلاقة بين السياسة والأخلاق قد تختلف حسب الظروف والمناسبات ، وحسب المفكرين في ميدان السياسة وأعمال الحكّام أنفسهم .

ومما يلاحظ ، في هذا الصدد ، أن المفكرين المسلمين الذين كتبوا في باب السياسة ، قبل أبي حمّو الثاني ، لم يصرّحوا بالتباين الذي قد يقع بين سلوك الحكّام والقيم الانسانية المعهودة ، من وفاء وصراحة وصدق واحترام للعهود ، وغير ذلك ؛ فكانت آراؤهم خاضعة لما ورد في النصوص الشرعية الاسلامية ، من تعاليم أخلاقية ، ويضيفون إلى ذلك ما يتصل بالموضوع من أقوال العرب وقصصهم ، وحكم الفرس وحكاياتهم ، مما يعطينا نظرة صادقة عن أكمل نموذج للحاكم حسب رأيهم ورأي معاصريهم .

والحقيقة أن معالجة المفكرين للقضايا السياسية كانت نظرية أكثر

منها واقعية ، وذلك أنها كانت لا ترضي من سلوك الحكّام إلا ما كان خاضعاً للنواميس الأخلاقية والشرعية المعمول بها عادة ؛ وأصدق مثال لهذا الاتجاه كتاب « سراج الملوك » للطّرطوشي .

والذي يظهر من دراسة آراء أبي حمّو اسياسية ، أنه لا ينبغي إخضاع السياسة للأخلاق ، في جميع الأحوال ، بل قد يقتضي الأمر أن يعارض الحاكم المألوف من القيم الأخلاقية ، إذا كان ذلك يؤدي الى مصلحة البلاد ، ويدفع عنها الأخطار التي قد تهدّد سلامتها وأمنها ؛ ولذا ، فلا يكفي أن يكون الحاكم يقظاً حازماً ، وأن يحذر خداع العدو ، بل عليه ألاّ يتأخر عن اللجوء الى المكيدة والخديعة والتزوير وغير ذلك من الأخلاق النبوذة عادة ؛ فنراه ينصح ابنه مثلاً ، ألاّ يحترم عقد الصلح مع العدو ، ويقول له : « فتكون مصالحتك من جملة المكائد ، ومن الدهاء الذي يبلغ المقاصد ، لأن مصلحة العدو متى تظفر به ، مكيدة ، وتلك سياسة وكيدة ، وإن كانت عند الناس مذمومة ، وصفتها بالغدر موسومة ، فهي عند الملوك محمودة ، وآثارها مشهورة مشهودة ، ومع ذلك لا تأمن عدوك في مهادنة ، ولا في موالاة ولا في محاسنة » (1) .

وهكذا يتجلى أن أبا حمّو كان يرى ضرورة مراعاة مصلحة البلاد السياسية ، قبل كل شيء ، ولا يجعل من الرجل الذي يسوس البلاد

(1) انظر ، فيما بعد ، ص 265 .

نموذجاً للإنسان الكامل كما كان يراه القدماء والاخلاقيون . فهو بأرائه هذه ، قد سبق مكيا فيلي بما يقرب من قرن ونصف وصرّح بأفكار عصرية مستقاة من الواقع الذي كان يحيط به .

هذا ، وفي الكتاب أيضاً دراسة نفسية طريفة ، تعطينا فكرة صادقة عن عقلية أبي حنّو وأبناء عصره ، فيما يخصّ دراسة الطبّاع والأمزجة ، وتحليل العوامل النفسية ، وتقديم أنجع الوسائل للتعرف على ما تنطوي عليه النفوس من النوايا والأغراض الخفية ، وخصوصاً في باب الفراسة ، ومن المعلوم أنّ الفراسة من الفنون التي عني بها كثيراً القدماء ، ودوّنوا فيها المؤلفات العديدة . أما أبو حنّو ، فأنه يعتمد أيضاً على تجربته الخاصة ، وعلى ما حصل له من معلومات ، تلقّاها أثناء مقامه في عواصم المغرب ، أو أثناء مزاولته لشؤون الدولة .

ومما يلاحظ ، في هذا المجال ، أنّ أبا حنّو لم يحاول معالجة قضايا الطبقة الوسطى أو السفلى من مجتمعه ، شأنه في ذلك شأن غيره من الكتاب والمؤرّخين ، وربما يرجع الى ذلك استحواد الطبقة الحاكمة على الشؤون السياسية وابتعاد الطبقة السفلى والوسطى عن الاشتغال بالقضايا السياسية ، مثلاً كان الشأن في كثير من الأقطار في ذلك العصر .

قيمه الأدبية :

طرق أبو حنّو موضوعاً علمياً ، وهو من صميم علم السياسة ، الا أنه ،

مثل غيره من المؤلفين المسلمين الذين طرّقوا هذا الموضوع ، لم يتخلص من النزعة الأدبية. وتتجلّى هذه النزعة في كتاب « واسطة السلوك » ، في طريقة عرض الأفكار ، وفي فن المؤلف .

أما المنهج الذي سلكه أبو حنّو في معالجة الموضوع ، فإنه يستعين كثيراً بالأسلوب الأدبي ، وذلك أن الآراء السياسية تقترن ، في أغلب الأحيان ، بأمثلة تاريخية لا تخلو من خيال ، وهي في الحقيقة أقرب الى القصّة منها الى التاريخ ، وقد اقتبسها أبو حنّو من كتب الأدب وذكرها بما جاء فيها من أشعار وحكم وأمثال . فنتج عن ذلك تمازج بين القصّة التاريخية ، التي يتخللها أمثال وحكم ، وبين الأفكار السياسية والأخلاقية . وهذا التمازج ، في بعض الأحيان ، يزيد تلك الأفكار وضوحاً ودقّة ، إلا أن طول بعض الحكايات قد ينسي القارئ الغرض من إيرادها ، ومغزاها العميق ، ويجعله يطالعها لجرد التسلية أو يصيبه شيء من الملل والفتور ، إذا كان ينتظر استئناف المؤلف لعرضه ورجوعه الى حديثه . ومن هذا القبيل ، حكاية سابور ابن هُرْمُز ، ملك الفرس ⁽¹⁾ ، وقصة قصير بن سعد والزباء ، ⁽²⁾ وقد تراكت هذه القصص في القاعدة الثانية من الباب الثاني ، وهي قاعدة السياسة ، الى حد أن هذا الفصل يحتمل أكثر من نصف الكتاب ⁽³⁾ .

(1) واسطة السلوك ، ص 34 - 51 .

(2) نفسه ، ص 51 - 57 .

(3) يمتد هذا الفصل من ص 31 الى ص 118 ، من كتاب « واسطة السلوك » .

ويبدو أن هذه الطريقة كانت مستعذبة في عصر المؤلف لما فيها من تسلية ، وليل الناس الى غرائب الأخبار وعجائب القصص ، كما يظهر ذلك في كتاب « ألف ليلة وليلة » وفي « سلوان المطاع » وفي رحلة ابن بطوطة ، وغيرها من المؤلفات .

أما فن أبي حنّو الأدبي، فإنه يمتاز بالإطناب والسجع ، والإسراف في ذلك أحيانا الى درجة التكلف والإكثار من المحسنات البديعية. غير أن هذا التصنع في التعبير لا يبعث الى الملل والضجر ، لسهولة لغته ووضوح معانيه .

ويمتاز كذلك فن أبي حنّو الأدبي بالاستشهاد بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والأمثال ، والأشعار . وتحتلّ هذه الاستشهادات قسماً وافراً من الكتاب ، حتى أنها ، أحيانا ، تغطي على حديث المؤلف ، وتشكّل القسم الأكبر من الفصل أو الباب. وعلى كل ، فلا يحقّ بنا أن نلوم أبا حنّو على ذلك ، لأن هذه الظاهرة كانت متفشية في عصره وفي العصور التي سبقته ، فلا تطالع تأليفا قديما إلا وجدته محشواً بروايات مختلفة ، يرى المؤلف ضرورة إيرادها لتدعيم آرائه وإقناع القارئ ، وليبرهن عن غزارة علمه ، وعلوّ كعبه في المجال الثقافي المطروق .

ب - شعر أبي حمو

لأبي حمو شعر ، لم يصل إلينا منه إلا بعض القصائد وردت في كتاب « واسطة السلوك » ، وفي كتب المؤرخين لدولة بني زيَّان ، مثل « بغية الرواد » ، و« زهر البستان » ⁽¹⁾ . و« نظم الدر والعقيان » . أما كتاب « راح الأرواح » فيما قاله أبو حمو أو قيل عنه من الأمداح ، الذي جمعه التنسي فلا أثر له في فهارس المكتبات العامة التي رجعنا إليها ، ولم نتصل بخبر وجوده في المكتبات الخاصة المشهورة .

ويبلغ ما وصلنا من شعر أبي حمو 21 قصيدة، تحتوي على ما يقرب من ألف بيت ، تدور حول أغراض مختلفة كالغفر والحماسة والثناء ، ومدح الرسول . وقد قيلت هذه القصائد في مناسبات خاصة أراد أبو حمو أن يعبر فيها عن عواطفه ، كبعض المواقف السياسية ، وكرثاء أبيه ، والاحتفال بالمولد الشريف .

ولا شك أن منزلة أبي حمو الاجتماعية ، ونفسيته ، والبيئة التي عاش فيها ، تنعكس كلها في شعره ، وتعطيه طابعاً خاصاً يمتاز بالجِدَّة

(1) يوجد منه مخطوط يشتمل على الجزء الثاني فقط، في مكتبة ريلاندس بمانشستر (انجلترا)، وقد استعملناه في دراستنا هذه .

والتمسك بالعواطف النبيلة ، واجتناب كل ما يحطّ من سعة الشاعر بين المجتمع .

وشعر أبي حمّو ، فيه الغث والسمين ، والرديء والجيد ، وجيده أكثر ما يكون اذا هزّت الشاعر العاطفة الصادقة ، والقريحة الخلاقة ، فعندئذ يسيل نظمه على طبيعته ، من دون تكلف أو تصنع ، ويتجلّى لنا في قوة وروعة وسهولة تجعل القارئ أو السامع يستسيغه ولا يعتريه الملل ، رغم إسراف الشاعر في استعمال المحسنات البديعية ، على طريقة شعراء العصر في المغرب والأندلس .

غير أنّ أبا حمّو لم ينقح نظمه، ولم يحذف من قصائده ما لا يروق من الأبيات . فجاء شعره مزيجاً من النظم الرائق والسخيف الأمر الذي يحطّ شيئاً ما من قيمته الفنية ، ويجعل القارئ ينتقل من الإعجاب الى التثاقل ، ويتأرجح بين هذين الشعورين .

والذي يهمننا كثيراً ، ويساعدنا على دراسة شخصية أبي حمّو هو البحث عن أغراض شعره ، وذكر ميزته من هذه الناحية .

(1) الفخر والحماسة :

يمتاز شعر أبي حمّو بالاعتدال والتوازن ، ويظهر ذلك خاصة في فخره ، فهو يعتمد غالباً على الواقع ، ولا يتجاوز الحدّ المقبول عادة في المبالغة .

والفخر ، عند أبي حمّو ، يدور حول ما قام به من أعمال بطولية في الميدان السياسي خاصة ، ولا يتعداه الى الميدان الأخلاقي الا فيما له علاقة بمنزلته الاجتماعية .

ومما يجدر بالملاحظة أن أبا حمّو ينظم الشعر كلما جاشت نفسه بالاحساسات العميقة والعواطف المؤثرة ، فكان شعره سجلاً للمواقف الحاسمة التي عاشها ، ولما كان يختلج في فؤاده من طموح فهو يقول مثلاً ، لما شرع في حركته الموفقة لإحياء الدولة الزبانية :

حالي يطول ومحنّي لا تنقضي	كم لي بميدات الوغى من محفل
لا بدّ من سوق النجوع مغرباً	حتى تكلّ متونها بالأحمل
وترى الفوارس دائرات بالعدى	تسقي لواردها تقيع الحنظل
يا نجل عامر سر بنا واطو السرى	ليلا لعل الدهر يدني منزلي
يا نجل عامر دارنا مع داركم	قد عمرت من بعدنا بالحنظل (1)

وقد يتحدث عن حركته هذه ، فيذكر الوقائع التي خاضها مع أنصاره ، ويشيد بشجاعة الفرسان والأبطال ، فيقول في قصيدته الميمية :

وضمّر عناجيج على صهواتنا	كرام سمّاح بالنفوس الكرائم
نطاردها فيها الخيل بالخيّل مثلها	فكان على الأعداء كر الهزائم
حملنا عليهم حملة مضرية	فولوا شرادا مثل جفل النعائم

(1) زهر البستان ، ورقة 8 و .

فولت سويد ثم خلت مجيرها وشيخ حماها في الثرى أي جاثم
 وكم خلفوا من بين بكر وبكرة وكم غادة ملتفة في الهدائم
 وكم قبة طاحت وطاح أميرها على الارض ما بين الصفا والوثائم
 فعاز الثنا فيها سقير بن عامر كما حاز من قبل دياب بن غانم
 وطاحت على وادي ملال هشائم من القوم صرعى للنسور القشاعم⁽¹⁾

فهذا الشعر يحمل في طياته صدى المعركة التي نشبت بين بني عامر ،
 أنصار أبي حمّو ، وسويد ، أنصار بني مرين ، أثناء حركة أبي حمّو إلى
 تلمسان ، وفيه يعرب عن شكره لشيخ بني عامر ، ويثني عليه ، ويصف
 جثث القتلى الملقاة في الميادات ، ثم يعود إلى نفسه ويفتخر قائلاً :

نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه وكم بات نهبا شمله دون ناظم
 شدنا له أزراً وشدنا بناءه بأوثق أركان وأقوى دعائم
 فصارت ملوك الأرض تأتي مطيعة إلى بابنا تبغي التماس المكارم
 وجاءت لنا من كل أوب ووجهة تبايعنا طوعاً وفود العمايم
 أننا الملك الزابي ولست بزابي ولكنني مفني الطغاة الأعظم
 فقمنا بأمر الله في نصر دينه وفي كفّ ما قد أحدثوا من مظالم⁽²⁾

ويربط أبو حمّو الدين بالسياسة في فخره ، فهو مؤيد من الله ،

(1) بغية الروادج 2 ، ص 33 - 34 ، واسطة السلوك ، ص 17 .

(2) بغية الروادج 2 ، ص 36 ، واسطة السلوك ، ص 18-19 .

ومكلف بنشر العدل والأمن في البلاد ، فلا يخشى الأعداء ، ولا يهاب
جيوشهم ، لأنها لا تستطيع أن تتغلب على مشيئة الله. فتراه ، مثلاً ،
يقول ، مخاطباً أحد وزراء بني مرين :

تخوض بجرأ ولا تخشى عواقبه وليس تسلك لج البحر بالنجب
عاندت ويحك من أعطاه خالقه ومن سما ذكره في العلم والكتب
ومن يعارض بأمر الله معترضاً يخسر ويصبح على بحر من التعب
من رام ادراكنا رام المحال ولا ينجو من السيف من قدلج في الهرب⁽¹⁾

ويرجع أكثر شعر أبي حمّو في الفخر والحماة إلى السنوات الخمس
الاولى من عهده ، وكانت فترة قوة ، أحرزت فيها الإمارة الزيانية على
انتصارات كبرى ، وتمكّنت من طرد بني مرين من جميع أنحاء المغرب
الأوسط ، فلا غرابة أن يكون مفعماً بالاعتزاز والتحدّي ، والتطاول
على الأعداء .

وقد نظم أبو حمّو قصيدة بمناسبة إجارتها لأحد الأمراء المرينيين
يدعى محمد السبيّح ، فقال فيها مقتعراً :

فما بسوى العلياء هنا جلالة إذا هام قوم بالحسان النواغم
بروق السيوف المشرفيات والقنا أحب إلينا من بروق المباسم
وأما صهيل السابحات لدى الوغى فأشجى لدينا من غناء الحمائم

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 157 .

فيرغب منا السلم كل محارب ويرهب منا الحرب كل مسلم (1)

ثم يلتفت إلى محمد السبيّع ، ويتحدث عنه قائلا :

وياوي إلينا المستجير ويلتجى ويحميه منا كل ليث ضبارم
ألم تر إذ جاء السبيّع قاصداً إلى بابنا يبغي التماس المكارم
وذلك لما أن جفاه صحابه وكل خليل وده غير دائم
ألا أيها الآتي لظل جنبنا نزلت برحب في عراض المكارم
وقوبلت منا بالذي أنت أهله وفاض عليك الجود فيض الغنائم
كذا دأبنا للقاصدين محلنا حمى وندى ينسى به جود حاتم (2)

وهكذا يتغلغل الشعر في حياة أبي حمّو السياسية ، ويضفي عليها
جوّاً أدبياً ، فتتّسم به ، بينما يجد الشعر مادّة حيّة يصوغها ، وهذا
التفاعل ، بين الواقع التاريخي والأدب ، يكسب الشعر حيوية وقوّة ،
ويجلب انتباه القارئ واهتمامه .

وقد بصوغ أبو حمّو شعره في قالب خيالي ورمزيّ ، مثلما فعل في
قصيدته النونية ، وقد ذكر فيها شوقه لتلمسان أثناء غربته ، والحب
المتبادل الذي كان يربط بينه وبين عاصمة ملكه ، التي جسّمها ، فأظهرها

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 93 : زهر البستان ، ورقة 58 ظ .

(2) نفسه ، ج 2 ، ص 94 : زهر البستان ، ورقة 59 و .

في صررة غادة حسناء ، وأجرى معها حواراً غزلياً شيقاً ولطيفاً ، ومما جاء في هذه القصيدة من الحوار ، قوله :

كتمت حيّ فافشى الدمع كتاني	وزاد شوقي على قيس وغيلان
إني فتنت بذات الخال يا خولي	وعذّبت بجفاهها العاشق العاني
قالت وحقّ هوالك اليوم ما نظرت	عيناك عيني إلا ذبت من شاني
الحب من شيمتي والوجد معرفتي	والصبر نافلتي يا آل زيات
إني وحق حياة الحب ما اكتلحت	والله بعدكم بالنوم أجفاني
ولا شغفت بحسن غير حسنكم	ولا أخذت عليكم في الهوى ثان ⁽¹⁾

وبعد أن اتضح أن الشاعر يقصد الإشادة برسوخ حب الدولة الزبائية في نفوس الرعايا ، نراه ينتقل إلى الفخر الصريح فيقول :

يا لائمي في هوى الغزلان لا تلمن	فما خلا من هواهم قلب إنسان
ولا جعلت بنات الحي من شغلي	حتى شغفت بقدر البيض والزان
وقد ألفت من الهيجاء عاطلة	تشب يوم الوغى والحرب نيران
وقد سقيت كؤوس الموت صافية	وقد حميت بحمد السيف أوطاني
وكم عمرت دياراً قل عامرها	وقد جعلت ديار الانس عمران
وقد أقيمت رسوماً قل ناصرها	يوم الهياج وكل الناس عاداني

(1) زهر البستان ، ورقة 59 ظ - 60 و .

حتى ظفرت بشيء كنت أطلبه فالحمد لله في سرّ وإعلان⁽¹⁾
ونرى هذه القريحة الشعرية ترافق أبا حمّو حتى في نكباته ومحنه،
فعندئذ يتذكّر أيام العزة والقوة ، وكأنه يسّلي نفسه بذكرياته ،
ويدعوها الى التأسّي والصبر ؛ فمن قصيدته التي نظمها في منفاه
بتيقورارين (أواخر سنة 773 هـ) قوله :

ولكم ظفرنا بالرضى من دهرنا وأتت لنا الدنيا بوقت مسعد
نجني المني وبنو الزمان عبيدنا والسعد يدني ما لنا من مقصد⁽²⁾
ويذكر الظروف التي أدّت الى هزيمة جيشه ، وخديعة بعض
أعوانه ، فيقول :

واصطفّت الجمعان واحتدم الوغى لكنها خبثت بسعي المرء
حتى تفرّق جمعنا وتشتّتوا بسعاة كل مضلّ أو مفسد
فالبعض منهم قد أذى لعدونا والبعض فرّوا كالنعام الشرّد
نقضوا العهود وخلفوني في الوغى بين الأعادي كالغريب المفرد
كفروا بأنعمنا وخانوا عهدنا وأتوا من الخذلان ما لم يعهد⁽³⁾
وهذان البيتان الاخيران يعبران عن تعاسة الشاعر في الصحراء وشقائه،

(1) زهر البستان ، ورقة 60 و - 60 ظ .

(2) بغيّة الرواد ، ج 2 ، ص 265 .

(3) نفسه ، ج 2 ص 266 - 267 .

فكانها زفرتان تتصاعدان من صدره ، أو دمعتان تسيلان على خده .
غير أنه سرعان ما يتغلب على حزنه ، ويستعيد جلدته ، ويتابع فخره
بالإشارة إلى موقفه عند فشل جيشه ، ومقاومته الأعداء بشجاعة وإقدام ،
وينوّه ببطولة ابنه الشابّ وولي عهده أبي تاشفين . وكانّ هذه الذكرى
قد قوّت عزيمته ، وإيمانه بنصرة الله وعونه ، فيتوجّه إلى الخالق ،
طالباً منه أن يجمع شمله ويعيده إلى عزته وسؤدده ، ويخاطب نفسه
بأبيات كلها رقة وإحساس ، وتفاؤل وتوكل . وذلك بقوله :

يا رب كم أنستني في غربتي يا رب كم فرجت كرب المكدي
يا رب فاجبر ما ترى من حالتي يا رب واجبر قلب كل موحد
يا نفس لا تيئس وإن طال المدى فالله يجمع شمل كل مبعد
ستعود أيام السرور طيبها وتعود عن قرب ليالي الأسعد (1)

(2) - الوداد :

لم يكثر أبو حمّو من الرثاء ، ولم ينظم في هذا الغرض إلا إثر وفاة
أبيه ، وكان شاعرنا يولي والده كثيراً من البر والعناية ، وقد تأثر تأثراً
بالغاً لوفاته ، فلبجأ إلى الشعر للتعبير على لوعته وتفجعه ، وللتخفيف من
ألمه ، ولا يخلو رثاء أبي حمّو من رقة ، ومن عاطفة فيّاضة تنبئ عن
صدق المشاعر وقوتها ، فتراه يتحدث عن أبيه ، ويتذكر الأيام الخالية ،
التي قضاها بجانبه :

(1) بغية الرواد ، ج 2 ص 268 .

قد كان لي في الدنيا أب يساعدي فصار تحت الثرى في لحده اكتنفا
مددت في ظل نعماه يدي زمناً ونلت من رفده في دهره التحفا
يا كابد الدهر في الثرى ليكسبني ويبتني لي في نيل العلى غرفا
يسره إن رأني سرت في ترف ويستزيد على الأعداء بي صلفا
وإن عراني ما أخشاه من دنف بكى ورق وأضحى يشتكى لهفا⁽¹⁾

إننا نلمس ، من خلال هذه الأبيات ، حنان الابن وعطفه على أبيه ،
وانشغال باله بذكرى الوالد الراحل .

ويعصف حزنه وبكاهه ، ويطيل في ذلك ، كأنه يرى في تلك
الإطالة وسيلة للتعبير عن عمق عاطفته ، وشدة ألمه ، فيقول :

فبكيت من أسف لذاك كما بكيت حزناً عليه منازلتي وربوعي
وجزعت من ألم الفراق ولم أكن يوم الكريمة في الوغى يجزوع
لم تنصف الأيام حر فراقه لكنه قد أنصفته دموعي
عجباً لأجفاني سخت بدموعها والقلب محترق بنار ضلوعي
هذي تجود وذا يشحّ بناره فعنيت بالمنوح والمنوع⁽²⁾

وبعد تعداد مناقب الفقيد وفضائله ، كما جرت العادة عند الشعراء
في مثل هذا الموقف ، يعود أبو حمّو إلى ذكر تفجعه وألمه بقوله :

(1) زهر البستان ، ورقة 84 ظ .

(2) بغية الرواد ، ج 2، ص 105 .

يا فقد يوسف ما أبقيت لي جلدًا يا فقد يوسف إن الصبر عنك عفا
 ما مثل يوسف مفقود لفاقده ولا كموسى أخو فقد إذا وصفا
 أصيب بالمعضل الأدمى بوالده كفقد يوسف لكن حتف ذا جحفا
 يا قبر يوسف لا تهدوك هامية من الغنم ولا زال الثرى رعفا⁽¹⁾

وما يزيد في رقة هذه الآيات وعمق تأثيرها، ما جاء فيها من تكرار اسم الفقيد ، يوسف ، وذكره في كل بيت ، وكذلك تكرار 'فقد' ومشتقاتها ، في الآيات الثلاثة الأولى .

ثم يوجّه الشاعر شكواه إلى الزمان ، وكأنه يعاتبه على ما أصابه من رزية ، فيقول :

أفجعتني يا زمان اليوم في خلدي ما أسرع الموت في الأحباب حين وفى
 صارت مساكنهم تحت التراب وقد تمزق الدود ما قد كان مؤتلفا
 الماء والنار مجموعات في كبدي فاعجب لضدين في قلب قد ائتلفا
 نار تشب وأكباد تنوب بها ويح المعبذ بالجنسين يا لهفا⁽²⁾

حقاً ، إن هذا الشعر ينفذ إلى أعماق النفوس ، ويتغلغل في الاحشاء لما يمتاز به من سهولة وخفة ، ولما يحمله في طياته من زفرات وتلهّف ، وشعور مرهف وتفجّع .

(1) زهر البستان ، ورقة 84 ظ .

(2) نفسه ، ورقة 84 ظ - 85 و .

ولا شك أن القارئ يغض الطرف إذا عثر على أبيات أقل جودة ،
وذلك أن الجواهر النفيسة تشفع لديه في الحجارة العادية ، وتنال عطفه
ورضاه .

3 - الموماديات :

تحتل الموماديات مكانة هامة في شعر أبي حمّو الثاني ، وقد أورد منها
صاحب ' بغية الرواد ' 11 قصيدة ، نظمها أبو حمّو بين سنتي (760 و
771 هـ) ، كما أشار المؤرخون لدولة بني زيان إلى اهتمامه بالاحتفال بليلة
المولد الشريف ، شأنه في ذلك شأن بني الأحمر بالاندلس ، وبني مرين
بفاس ، وغيرهم من السلاطين ⁽¹⁾ .

وكانت القصائد التي تنظم في هذه المناسبات ، كثيراً ما تطرق
موضوعات مختلفة، اعتاد الشعراء أن يجعلوها مادة لقريضهم، كالاستهلال
بذكر فضل شهر ربيع الأول ، أو فضل ليلة المولد الشريف ، وقد
يستهلّ الشاعر قصيدته بذكر الأحبة ، وما يعانیه من اشتياق وحنين ،
ثم يبيّن أن أحبته يقطنون بالبقاع المقدسة وأنه يود اللحاق بهم وزيارة
قبر الرسول (صلعم) ، وقد يشير الشاعر إلى انهياكه في حياة اللهو
والملاذات ، وإلى ندمه على ما فاتته من ذنوب ، وضرورة توبته وإقلاعه

(1) انظر ، مثلاً ، نفع الطيب للمقري ، ج9 ص 215 - 218 ،
وأزهار الرياض ، له أيضاً ، ج 1 ، ص 243 - 245 .

عن زخرف الحياة الدنيا ، ورَجَّاهُ لشفاعته الرسول (صلعم)
يوم القيامة .

وبعد هذه المقدمة ، يأتي الموضوع الرئيسي ، وهو مدح الرسول ،
وذكر معجزاته وفضائله ، والإشادة بفضل ليلة المولد الشريف .

ويتلو ذلك ، غالباً ، مدح السلطان ، وذكر مزاياه ونبله وكرمه
وعدله ، وغير ذلك مما يدخل في باب مدح رجال السلطة .

وتنتهي المولديّات بالدعاء للسلطان ، وطلب المغفرة والرعاية من
الخالق تعالى .

وقد تقيّد أبو حمّو بهذه التقاليد في أغلب مولديّاته ، فاستهلّها
بذكر اشتياقه للأحبة ، وألمه للفراق ، كقوله :

أَلِفْتُ الضّيّ وألفت النحيباً وشب الأسى في فؤادي لهيباً
وحقّ لنفسي أسى أن تذوبا وللدمع من مقلتي أن يصوبا
وقد كنت بالوصل منكم قريباً فأصبحت بالهجر منكم غريباً
جفاني الحبيب فسرّ الحسود وأدنى البعيد وأقصى القريباً⁽¹⁾

ويسهب شاعرنا غالباً في الاستهلال فيكثر من ذكر بكائه ،
ونحول جسمه ، ويخاطب أحبّته ، فيعاتبهم على هجرهم وبعادهم ،
ويتألّم لبينهم وفراقهم .

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 162 ؛ واسطة السلوك ، ص 167 .

وقد يكتسي هذا الموضوع طابعاً دينياً ، فيتحدث أبو حمو عن أيام اللهو والصبا ، ويعترف بندمه عما سلف في حياته من المعاصي ، ويرجوه إلى الله تعالى ، فينشد مثلاً :

هوينَا الطُّبَا وألفنا الطُّبَى وكم من فؤاد إليها صبا
إلى أن بدا الشيب في مفرقي وأجريت من خيله أشهبها
فأيقظني الشيب من غفلتي ففي لمتي من حديثي نبا
فوا أسفي من ذنوب مضت تقضيتها في زمان الصبا⁽¹⁾

وكثيراً ما يخاطب أبو حمو حادي الابل ، المتوجّه نحو الشرق حيث الحرم الشريف ، ويطلب منه أن يبلغ سلامه إلى تلك الأراضي المحبوبة وإلى أهلها ، ويعرب عن رغبته في اللحاق بهم وزيارة البقاع المقدسة ، ويتضح عندئذ أن اشتياق الشاعر خاص بتلك الأراضي ، وأن قلبه مشغول بحب الرسول ، وإليك مثلاً عن ذلك من شعره :

ويا حادياً يحدو الركاب إليهم أنخ بربي نجد وسلم على طبي
وأخبرهم أني أراعي ذمامهم فما لذمامي عندهم غير مرعي
فيا ليت شعري والديار قصية متى تسمح الأيام لي بلقا الحبي
عسى الدهر يدنيني ويسمح باللقا فيشفي غليل القلب من ذلك الرئي⁽²⁾

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 137 .

(2) نفسه ، ج 2 ، ص 66 ؛ نظم الدر والعقيان ، مخطوط باريس رقم

1875، ورقة 60 و .

وبعد هذا يصل شاعرنا إلى لب الموضوع ، فينتقل إلى مدح الرسول ، صاحب الشفاعة ، ويذكرنا بما أتى به من معجزات أثبتت صحة نبوته ، ومن ذلك قوله :

بلاد مقدسة حلها	نبي الهدى المصطفى المجتبي
ف شهر ربيع أتى برفيع	نبي شفيع لمن أذنبنا
نبي أتى رحمة للعباد	وأظهر للحق نوراً خبا
ونيران فارس قد أخذت	قلله ذلك ما أعجبا
وكسرى تساقط إيوانه	وذاق من الرعب كأس الظبا
وكلمت الوحش للمصطفى	ونطق الذراع له أعجبا
وحنّ له الجذع مستوحشاً	وكلّمه الظبي مستغرباً
وشق له البدر عند التمام	وردت له الشمس أن تغرباً
وأسرى به ليلة الارتقا	إلى قاب قوسين أو أقربا
وكم معجزات لخير الورى	تجلّ عن الوصف أن تحسبا (1)

ويبدو أنّ أبا حمّو يختصر هذا الموضوع في أغلب مولديّاته ، حتى أن بعض قصائده لا تشير إلى شيء من ذلك ، كأنها لم تنظم بمناسبة المولد الشريف ، والجدير بالملاحظة أن هذه القصائد نظمت في فترات خاصة من حياة أبي حمّو السياسية وأن السلطان الزيّاني انصرف بكليته إلى التعبير عمّا يشغل باله أو يهزّ نفسه ، من فخر أو قلق أو شكوى ،

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 138 - 139 .

وغير ذلك ، ففي القصيدة التي نظمها بمناسبة مولد (سنة 760 هـ) ، نراه
يدلي بعجزه عن زيارة الأراضي المقدسة ويعتذر لذلك بما يقوم به من مهام
سياسية ، فيقول .

سرت الابل امّا ارتحلوا قلبي حملوا في ركبهم-
طافوا بالبيت وقد وقفوا ودعوا إذ ذاك لربهم-
وغدا المشتاق بزفرته في مغربه يبكي بدم-
جسمي بتلسان دنف والقلب رهين بالحرم-
قد قيّدني ما قلّديني من أمر حكيم ذي حكم-
ولاني أمير الخلق فلم أسطع سيراً من أجلهم-⁽¹⁾

فالشاعر يشير هنا الى قرب انتصابه على عرش أجداده، والى مواجهة
المشاكل التي لا زالت تقف حجر عثرة أمام تحقيق أهدافه السياسية، ونجد
نفس الفكرة في القصيدة التي أنشدها في حفلة مولد (سنة 768 هـ) ،
وكان إذ ذاك يعاني من شدة الاضطرابات التي تلت هزيمته الكبرى أمام
بجاية (8 ذي الحجة سنة 767 هـ) ، : فهو يقول :

في كل عام يسير الركب مرتحلاً وقد تقيدت عن فرضي الذي وجبا
لولا الخلافة شدتني قلاندها لم أقتنع بخيال أو بريح صبا⁽²⁾

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 43 ؛ واسطة السلوك ، ص 11 .

(2) نفسه ، ج 2 ، ص 188 ؛ واسطة السلوك ، ص 171 .

وكذلك في قصيدة مولده (سنة 770 هـ) ، نرى أبا حمّو يستعيض
 الاشادة بمعجزات الرسول وفضائله ، بشكوى قساوة الدهر ، وتأثره بما
 كان يواجهه من فتن وثورات في المناطق الشرقية ، فيقول :

لقد كنت والدهر لي مسعد	فاغضبني ليت ما أغضبا
فما باله اليوم محلولا	وما زلت أعهد مذهباً
فخان وأخنى وجوراً جفى	وظهر انجن لنا قلباً
فصرت أعاتبه اذ عتا	فأسلمني بعدما قرباً
فلادر درك يا دهر قل	أيرجع منك الذي قد نبا
فقال مجيباً أأست الذي	على الرغم فرقت آل سبا
وأرزأتهم كل ما ملكوا	وأضحت معاهدم سبباً
وأنت أبا الصبر مهلاً اذا	بساحك خطب الدنيا طنباً
ففتاحها الصبر ان ضيقت	فصبراً فبالصبر يرجى الحباً
فبشراك موسى بنيل المنى	بفضل الإله فما أقرباً (1)

وهكذا ، فاعتناء أبي حمّو بإحياء إياي المولد الشريف لا يمنعه من
 الالتفات إلى قضايا الساعة ، واغتنام الفرصة للتسكين من روع الاتباع
 والرعايا ، ومحاولة تقوية معنويات أنصاره وكسب ثقتهم ووفائهم
 لعرشه .

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 209 .

وأخيراً ينهي شاعرنا نظمه بخاتمة مألوفة ، تتضمن التوجّه الى الله
لطلب مغفرته أو الى الرسول لطلب شفاعته ، ويؤفّ له سلامه العاطر ،
مثل قوله :

فيا سيداً قد حباه	الاله	على الخلق طرّاً بما قد حبا
ويا من سما قدره رفعة		ويا من علا في العلى منصبا
يخصّك موسى بأزكى سلام		يروق النفوس كنشر الكبا
ومسك فتيق وزهر أنيق		بروض شريق حوته الربى ⁽¹⁾ .

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 139 .

الخاتمة

والآن ، وقد حاولنا تسليط بعض الأضواء على حياة أبي حمّو الثاني السياسية ثم الأدبية ، نريد أن نعود الى رسم شخصيته كما تتبينها من كل ما سبق ، مع مراعاة ما قد يكون طراً عليها من تطوّر ، من جراء تأثير الوقائع السياسية والبيئة الاجتماعية .

لقد كان أبو حمّو ذا همّة عالية وطموح كبير ، لم يفتأ يسعى الى بلوغ مرامه في بسط نفوذه على أقطار المغرب الأوسط، ومقاومة الأخطار التي كانت تهدّد الدولة العبد الوادية ، وكان رجلاً سياسة وتدير ، وتعقل وتبصر ، لا يقدم على الأعمال الا بعد روية وتفكير ، ولا يتأخّر عن بذل الاموال والإقطاعات لكسب صداقة قبائل الأعراب القويّة ، وجعل حدّ للفتن والثورات ، أو مقاومة احتلال بني مرين لبلادهم .

لقد استطاع أبو حمّو الثاني أن يبعث الدولة الزيانية بعد إندثارها ، وأن يعيد لها مجدها وعزّها ، رغم تقلّب الأوضاع في شتى المناسبات ، وتظافر الأسباب لإزعاجه مراراً عن عاصمته وحمله على التغرّب

والتجوال في المناطق المقفرة النائية ، إلا أنه لم يستسلم لليأس ، وواجه صروف الدهر برباطة جأش وصبر وعزيمة .

وكان عهد أبي حمّو الثاني فترة حاسمة في تاريخ المغرب الأوسط ، تعرّضت فيها الدولة الزيّانية إلى أخطار جسيمة ، فجاس بنو مرين خلالها مراراً ، وحاولوا استضافتها الى مملكتهم فلم يوفقوا في شيء من ذلك ، لما كان يحدث في بلادهم من فتن تشغلهم عن تحقيق أمنيتهم وتمكين سلطتهم .

كما أن عرب زغبة ، من بني عامر وسويد وحصين وغيرهم شكّلوا عاملاً رئيسياً لتطوّر الأوضاع السياسية والاجتماعية في المغرب الأوسط أثناء عهد أبي حمّو الثاني . فقاموا بدور هامّ في جميع الحوادث وانطلق منهم قوم لإثارة الفتن ، وإحداث منافس للسلطان الزيّانيّ ، وانحاز آخرون إلى جانب أبي حمّو يعضّدون أمارته ويحمون عرشه ، فكانّ الأوضاع السياسية استحالّت إلى صراع بين عرب زغبة حول امتلاك أراضي التلّ ، وتهافتهم عليها ، وكانّ بني عبد الواد أصبحوا لا يلعبون الأدوار الرئيسيّة ، ولا يصلون إلى غرض من الأغراض إلّا بما يحصلون عليه من نصرّة القبائل العربيّة وتأييدها .

في هذه الظروف المضطربة ، تمكّن أبو حمّو من الحفاظ على عرش أجداده أكثر من ثلاثين سنة ، بفضل دهائه وحنكته ، وسعيه الحثيث إلى كسب الأتباع ، والتحالف مع الأنصار .

وكان أبو حمّو رجلاً ذكياً عاقلاً ، ذا أدب وثقافة ، فشجّع الحركة الفكرية ، وأكرم العلماء والشعراء ، وأحلّهم منزلة سامية في بلاطه ، فكان عهده عهد ازدهار علمي وأدبي ، وتقدّم ثقافي .

وكان أيضاً رجلاً ديناً وتقوياً ، وحلماً وحياءاً ، وأخلاقاً كريمة باراً بوالديه ، محباً لأبنائه ، معتنياً بتربيتهم وتثقيفهم . محسناً إلى المعوزين ، محترماً للأولياء والصلحاء ، مشجعاً للعلماء والطلبة ، يحضر بنفسه للدروس الدينية ، ومجالس الوعظ والإرشاد ، فكان لذلك كله أثر محمود في البلاد ، وتدعيم للدين والقيم الأخلاقية في عصره .

غير أنّ أبا حمّو اصطدم بأوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية خاصّة ، جعلت المغرب الأوسط يعيش في فترة من أشدّ فتراته اضطراباً وغلياناً ، وأقلّها استقراراً وتوازناً ، مما كان له تأثير عميق في حياته السياسية وتطور الامارة الزيانية أضف الى هذا أن تحقيق مطامح أبي حمّو ، في التوسع من الجهة الشرقية كان يقتضي إنشاء جيش قوي ، والحصول على أتباع أوفياء ، وقادة مهرة مما لم يتوفّر لأبي حمّو الا في السنوات الأولى من عهده ، ولقد استقامت أمور دولته ما دام على رأس جيوشه الوزير الشجاع عبدالله بن مسلم الزردالي .

ولكن بعد وفاة هذا الأخير ، في أواخر سنة (765 هـ) ، أخذت الأحوال تضطرب . وانتشرت الفوضى في الناحية الشرقية ، وعرف أبو حمّو هزائم شديدة ، أضعفته بصفة محسوسة ، وجعلت بلاده تسير

بخطى حثيثة نحو الانحطاط والتأخر . ومما زاد في الطين بلة ، ما قام بين أبنائه من منافسة على الحكم وتهافت على المناصب الادارية العليا . ولما تحولت تلك المنافسة الى صراع عنيف بين أبي حمّو وابنه أبي تاشفين ، كان السلطان الزياني شيخا يناهز السبعين عاما، قد أبلته الشدائد والفتن ، وكذّرت صفو عيشه وأضعفت معنوياته . ولم يكن له آنذاك ، نفوذ واسع وأنصار أقوياء ، فاختلّ أمره وانهار ، ومُنيَ بالفشل والخسران ، وترك عرشه لابنه الأمير أبي تاشفين .

ولاشك أن أباحمّو كان يتمتع بشعبية واسعة ، لما امتاز به من فضائل وخصال محمودة ، ولأنه حقق أمنية رعيته مدة ، فخلصها من الاحتلال المريني ، وضمن لها الأمن والرخاء والأزدهار .

ولذا فلم تمح الايام ذكره ، ولم تفتأ الأجيال المتلاحقة تذكره وتوليّه احترامها ومودّتها ، ولم يزل هذا السلطان الأديب يحتل الصدارة بين رجالات المغرب ، وشخصياته البارزة ، ويعدّ مفخرة لبلاده ولقومه .

القسم الثالث

مختارات من آثار أبي حمو الثاني

الباب الأول

منتقيات من كتاب « واسطة السلوك »

1 - توصية ترشد إلى حفظ الجيوش والاجناد والامراء والقواد (1).
اعلم يا بني أن الجيش أنصار ، وبهم تستفتح الأمصار ، فاحرز
جيشك بآلك ، فهو أصلح لآحوالك ، ولا تقوّ عدوك بضعف أنصارك ،
فيعودوا أعواناً عليك يوم إيسارك ، فبالجيش تنال المقاصد ، وتستجلب
الفوائد ، ويكبت العدو والمعاند ، والجيش أبهة الخلافة ، وحصن منيع
من المخافة ، وهم سيوف الإرهاب ، وحماة الطعان والضراب .

فمن كثرت أجناده ، عمرت بلاده ، وهابه أعداؤه وحساده ، ومن
كثر جيشه ، قلّ خوفه وطأب عيشه ، ومن قلت أنصاره ، ضعف
انتصاره ، ومن فرط في جيشه ، سقط عن عرشه ، وأعان على نفسه
أعداءه ، وشتت بالتضييع آراءه .

واعلم يا بني أن جيشك عزك ، وأنصارك حركك ، وهيبتك قوادك ،
وحرمتك (2) أجنادك ، وبجيشك تستقيم أحوالك ، وينفذ أمرك

(1) نفسه الباب الأول ، الفصل الرابع ص 12 15 .

(2) وفي مخطوطه واسطة السلوك ، في المكتبة الوطنية بالجزائر : وحمائك

ومقالك ، فاستعمل قلوبهم بوداك ، يدينوا بجميل اعتقادك ، وأفض
عليهم أياديك ، ليعمر بهم ناديك ، وأوف لهم بحقوقهم ، تأمن من
عقوقهم .

يا بني ، إكرام الجيش إستبعاد ، وإهانتهم استبعاد . واعلم ان افساد
قلوبهم ، يوجب إظهار عيوبهم ، فلا تغضب كبيرهم ، ولا تحقر صغيرهم ،
ونوّه قوادهم ، وفضل أنجادهم ، وأعدل في أرزاقهم ، يتواطؤوا اليك
باخلاقهم ⁽¹⁾ ، ولا تضع لأحد فعلته ، ولا تحقر لخدم خصلته ، ولا تنس
له سبقيته ، ولا تفسد في سبقيته نيته ، ولا تخلهم من إحسانك ، وسائسهم
سياسة على وفق زمانك ، وعليك بتفقد أحوالهم ، والتفكر في
مصالحهم ومآلهم ، فانك ان حفظت أجنادك ، حفظت رعيته وبلادك ،
وان أهملتهم خذلوك ، وان أعرضت عنهم ملوك .

واعلم ، يا بني ، أن الملك بلا جيش ، كالأرض لا نبات لها
والطائر لا ريش له ، والطائر لا ريش له يوشك أن يؤخذ لحينه .

يا بني ، إياك والمخاطرة ، فانها غير محموده إلا في طلب الملك والسلطان ،
فانها محموده في هذا الشأن ، لأن الملك اذا خاطر بنفسه في طلب سلطانه ،
واسترجاع بلاده وأوطانه ، حذت مخاطرته في سره وإعلانه ، فانه إن
نجح سعيه ، وأنتج رأيه ، نال غاية مطلوبه وبلغ نهاية مرغوبه ، وان

(1) واسطة السلوك : بأكتافهم (أي باجماعهم ، والأكتاف ، جمع كَتَف ،
وهو الجانب وكذلك الجناح) .

عاقه حلول منيته ، دون بلوغ أمنيته ، فله في ذلك أوضح عذر ، وأجل ذكر ، وأعظم فخر ، كما قال امرؤ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقد خاطرنا نحن في ذلك ، وسلكنا بحول الله أحسن المسالك ،
وأوردنا العدى موارد المهالك . وذلك لما هاجتنا الحمية ، ودعتنا النفوس
الآبية ، للانتصار للمكنا وسلطاننا ، واستخلاص بلادنا وأوطاننا ، وردّ
دولتنا الى نصابها ، واستخلاصها من أيدي غصابها . فطوينا المراحل ،
وحشنا الركائب والرواحل ، ورحلنا ⁽¹⁾ مستعينين بالله سبحانه في كل
سكنة وحركة ، مغترفين ⁽²⁾ من الله عز وجل كل يمن وبركة .

فكان ابتداء حركتنا السعيدة من تونس بالجد والاعتزام ، عاملين على
مدينة تلمسان حضرة أسلافنا الكرام ، فارتحلنا من البلاد الإفريقية الى
البلاد الجريدية ، وكان عدونا السلطان أبو عنان ابن السلطان أبي الحسن
ابن عند الحق المريني بالبلاد القسنطينية ، فبادرنا من حيننا اليه ، برسم
أن نشن الغارة عليه ، ولم يكن بيننا وبينه الا مرحلة ، وعصابتنا

(1) واسطة السلوك : وحللنا .

(2) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، وفي النسخة المطبوعة :
مغترفين .

السعيدة اليه مقبلة ، وعندما علم بإقبالنا ، ونجدة حماتنا وأبطالنا ، وافق ذلك أن وقع بينه وبين قبيله الشتات والشنآن ، وخشي الفضيحة في تلك الأوطان ، فترك بقسنطينة قائداً من قواده ، وحصة من أجناده ، وعاد راجعاً الى بلاده ، وكذلك فعل بميلة، ⁽¹⁾ ترك فيها شرذمة قليلة، فقصداً الى ميلة لنتنزه فيها — الفرصة ، ونوقع بتلك الحصنة ، فاستفتحناها من يومها ، فآخذنا الشرذمة وعفونا عن قومها .

ثم ارتحلنا الى الزاب ، وفي صحبتنا جملة من الأعراب ، من وجوه عرب رياح ، المعروفين بالجلاد والكفاح ، وهناك وصل الينا عربنا بنو عامر ، ولاحت لنا الفتوحات والبشائر ، فبادرنا حضرة ملكنا أجل مبادرة ، وخاطرنا في ذلك أعظم مخاطرة ، ويسر الله لنا في الفتح أتم مياسرة ، ونزلنا ساحتها ورياح النصر على راياتنا خافقة ، ودلائل السعد تشهد مقدماتها أن نتائجها صادقة ، فالفينا بها ابن سلطان مرين، فازلناهم ⁽²⁾ وساء صباح المنذرين ، ليخرجوا عن بلادنا وميراث آبائنا وأجدادنا ، فأبوا إلا تمادياً في عنادنا ، فبرزوا الينا بظاهر مدينة تلمسان ، في عدة تنيف ⁽³⁾ على ألفين من أنجاد الفرسان ، يقدمهم المهدي ابن

(1) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، وفي النسخة المطبوعة : بالمسيلة .

(2) هكذا في النسخة المطبوعة وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر . ولعل الصواب أن يقال : فنازلناهم .

(3) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر . وفي النسخة المطبوعة : نيف .

السلطان أبي عنان ، فلما التقى الجمعان ، وشرعا في الضراب والطعان ، رأوا منا ما لا قبل لهم به ، ولا طاقة لمن هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا بحربه ، فاحجموا بعد الإقدام ، وتزلزلت منهم الأقدام ، وانهمزوا هنالك أيّ انهزام ، حتى كان البطل الشجاع من أبطالنا يقدم منهم عشرة من أمام ، طعنا بالرمح وضرباً بالحسام ، كما قيل :

وأمر كانّ المصطلين بحره وإن لم تكن نار وقوف على الجمر
صبرنا له حتى تناهى وإنما تفرّج أيام الكريهة بالصبر

فنكصوا على أعقابهم ، وسيوفنا متحكّمة في رقابهم ، ولجئوا الى الفرار ، وأيقنوا بالتباب والثبار ، وحلّ بهم الخسار والبوار ، ولم ينفعهم التحصّن بالأسوار ، من شبا سمر الرماح وظبى بيض الشفار ، وتركناهم إلى غد ذلك اليوم ، لإبقاء منا على القوم ، ولم تكتحل أجفانهم تلك الليلة بنوم .

فلما كان من الغد افتتحناها عنوة عليهم ، وخلصنا من جميع جهاتنا اليهم ، وذلك غرة ربيع الأول من سنة ستين وسبعائة ، فتشفعوا إلينا ، بالفقهاء والصلحاء في الإبقاء عليهم ، وخلصهم الى غربهم بجميع ما لديهم ، فأسعفناهم بما طلبوا من العفو ، وسوغناهم من الأمان العذب والصفو . وذلك هو المعهود منا ومن أسلافنا الكرام . وخيرناهم بين الانصراف والمقام ، فمن انصرف فبلغ المراد والمرام ، ومن أقام للخدمة الرضية فمرعيّ الذمام ، ومحمول على ساعد البر والاكرام ، كما قيل :

جئحوا الى السلم التي سلموا بها لما انبرى ليث الشرى ليصولا
وتوهموا شهب النجوم أسنة وتخيّلوا لمع البروق تصولا
حملوا شروطا لم تكن محمولة لكنّ من خاف استخفّ ثقيلًا

فاستقللنا بحضرتنا العليّة ، والبلاد كلها مريّنة ، واستولينا على ما
كان بتهسان ، واستقرّ لنا بها الملك والسلطان ، ومرّين محدّقة بنا من
كل جهة ومكان ، ليس بيننا وبينهم الا مسيرة يوم أو نصف يوم ، ومن
شدة الحزم لم تكتحل أجفاننا بنوم ، فلم نزل ، يا بني ، نستعمل معهم
المحاولات والمكاييد ، وننصب لهم الاشرار بكل المراصد ، الى أن
استخلصنا جميع⁽¹⁾ بلادنا من أيديهم وجازيناهم على تعدّيهم ، وذلك بين
محاولة وقهر ، ومساعدة دهر ، وتأييد ونصر ، ولقد دخلناها عليهم دون
كثير جيش ولا مال ، فبلغنا بالسياسة والمحاولة غاية الآمال ، الى أن
صارت أموالنا أكثر من أموالهم ، وأحوالنا أحسن من أحوالهم ،
وأعدادنا أكثر من أعدادهم ، واجنادنا أوفر من أجنادهم ، وبلادنا امهد
من بلادهم ، وقد شرحنا جلية أمرنا ، وجل قصد خبرنا ، في قصيدتنا
الميمية التي سارت بذكرها الركبان ، وافتخرنا ببلاغتها على جملة
الأقران ، وهي: ⁽²⁾

(1) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر . وفي النسخة المطبوعة :
أكثر .

(2) وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، عوض ما سبق ابتداء من
« وقد شرحناه بما يلي : وقد شرحنا ذلك في قصيدة نظمناها ومقتضى
الحال ضمناها ، وهي قولنا .

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم لما شحطتها من هبوب الرواكم.
2 - مراتب أعوان السلطان ⁽¹⁾ .

اعلم يا بني ، أنه ينبغي لك أن تُنزل الناس منازلهم ، وترتبهم في مراتبهم ⁽²⁾ بحسب أقدارهم عندك ومناصبهم ، وذلك على طبقات :

الطبقة الأولى : اعلم يا بني انه ينبغي لك أن يكون أول داخل عليك مزوارك الموصوف ، وعونك المعروف ، ليعرفك من ببابك ، من وزرائك وحجّابك ، وأرباب دولتك وكتّابك ، فأول من يدخل عليك كاتبك ووزيرك ، اذ بهما صلاحك وتديرك ، وذلك أهمّ ما تبدىء به من أمرك ، لتلقي الى الكاتب ما أردت من سرّك ، ويعرض عليك الكتب الواردة من أقطارك وأمصارك ، وذلك بحضور وزيرك ، الخصوص برأيك وتديرك ، ليجمع معك على الرأي والتدبير ، والجليل من أخبارك والحقير ، فان الوزير إذا كان على ما وصفناه ، بالصفة التي ذكرناه ، فلا ينبغي لك أن تخفي عليه ⁽³⁾ شيئاً من أمرك ، بل تشاركه في حلوك ومرّك ، وقلّك وكثرك .

(1) كتاب واسطة السلوك ، الباب الثاني ، القسم الثاني ، من قاعدة السياسة ص 81 - 85 (وعنوان النص من إنشائنا) .

(2) في مراتبهم : ساقط في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر .

(3) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر . وفي النسخة المطبوعة عنه .

ويجب على هذا الكاتب الذي تقدمت صفته ، ووصفت نبأته ومعرفته ، أن يكون درياً بقراءة الكتب وسردها ، متحرزاً عند قراءتها من ألفاظ شائنة ، أو وصمة في ضمن الكتاب كامنّة ، فانه ربما يجد فيها ما يكون في حق الجلّساء وصماً ، وقبيحاً يستحق في الوقت كتماً ، فيتجاوز الكاتب ذلك ⁽¹⁾ اللفظ المشين ، ولا يبينه في ذلك الحين ، ثم ينتظر به خلوّه ⁽²⁾ اليك ، فيعيد قراءته عليك ، ويظهر لك ما أخفاه عن الجلّساء ، فيعدّ ذلك من قوة ⁽³⁾ فطنته والذكاء .

فاذا فرغ الكاتب من عرض كتبك ، وتلقى بالتوقيع ما أردته من أربك ، خرج لكتابة ما أمرته به ، ويجري على أحسن مذهبه ، وتبقى أنت مع وزيرك تتفاوض فيما يصلح الدولة ، ويعود عليها بالمنفعة على التفصيل والجملة . يابني : ينبغي ⁽⁴⁾ أن يكون مجلسك مع وزيرك مجلس هيبة ووقار ، وتعظيم وإكبار ، وتفاوض في الأخبار ، وأخذ في المصالح ، وتدير يعود بالمنافع والمناجئ ، لا مجلس هتار ومزاح ، ولا مباشرة أطراح ، فانه إذا مزحت وزيرك ، أسقط المزاح عنده هيبتك وتوقيرك ، لانه ربما تكلمت بما تزول به عند الوزير هيبتك ، وربما أيضاً تكلم الوزير بما تستخفّ به عقله فتسقط رتبته عندك .

(1) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر . وفي النسخة المطبوعة : عن ذلك .

(2) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر . وفي النسخة المطبوعة : خلوّه .

(3) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر . من جملة .

(4) وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر : ينبغي لك .



مِثْزَة حَامِيع الْمَنْصُورِيَّة

وبعد دخول وزيرك وكتبتك ، وقضائك ما أردته من مآربك ،
يدخل صاحب أشغالك ، الموكل بجبايات أموالك ، يعرفك بما تجمل
وتصير من مالك ، وبمحاسبات عمالك ، وبجميع أشغالك المختصة
بدارك ، في إيرادك وإصدارك ، مثل أصناف الحلي وأنواع الثياب ، وغير
ذلك من الأثاث والأسباب ، وليتلقي منك ⁽¹⁾ ما تأمره به ، جارياً على
غرضك في تقبله ، مما يستأنف في يومه من الأشغال ، وما يليق به من
الأعمال .

ثم يدخل صاحب شرطتك ، وحاكم بلد حضرتك ، ليخبرك بما
تزايد ⁽²⁾ في ليلتك ، حتى لا يخفى عليك شيء من أحوال رعيته ،
وبلدك مع ضبط مملكته ، فتسأله عن القليل والكثير ، والجليل من
الامر والحقير ، لئلا يتوصل أهل العناية ، للرعية بالمضرة والاذاية ، ⁽³⁾ .
ولا يقع من الحاكم جور في البلد ، ولا ظلم لأحد ، فإنه إذا علم الحاكم
وغيره من أهل العناية ، وأهل الدعارات ⁽⁴⁾ والجنايات ، بأن الملك لا

(1) منك : ساقط في النسخة المطبوعة .

(2) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. وفي النسخة المطبوعة :
تزيد .

(3) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. وفي النسخة المطبوعة :
بمضرة ولا إذاية .

(4) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. وفي النسخة المطبوعة :
الدعاوى .

يغيب عنه شيء من أحوال بلده ، يمتنع كل منهم من استطالة يده ، فيقف الناس عند حدودهم ، ويأمنون من الجور في صدورهم وورودهم . وفي هذا ابقاء لنظام الملك ، وأمان للرعية من الهلك .

يا بني ، وينبغي لك ان تختير صاحب الشرطة ، لأنها عند الملوك أكبر خطة ، فتقدم لها من يكون صاحب ديانة ، وعفة وصيانة ، وهمة ومكانه وسياسة ، ورأي وفراسة .

ثم تدعو للدخول عليك الأقرب فالأقرب من خاصتك وخلصائك ، وأشياخ قبيلك وأوليائك ، فتشاركهم فيما ظهر لك من آرائك ، وتأخذ معهم فيما عليهم وما لهم ، وما يصلح أحوالك وأحوالهم . ثم تدعو الى الدخول أشياخ القبائل ، المقربين لخدمتك ، وقواد أجنادك المستمسكين بخدمتك . (1)

يا بني ، وينبغي لك أيضاً أن تتخذ طعاماً تجعله عادة مستمرة ، لتستجلب به القلوب للمسرة ، لإطعام من ذكرناه لك من القبائل ، ومن يرد عليك من قبل الملوك بالرسائل . فإذا فرغ الناس من أكل الطعام بين يديك ، قمت الى منزلك ، ودخلت اليه وانصرف الناس ما عدا الحاشية ، ثم تعود إلى مجلسك ثانية .

(1) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر . وفي النسخة المطبوعة :
التمسكين بخدمتك .

ثم تدعو للجلوس وزيرك وخاصتك ، وتتخذ ذلك سيرة وعادة⁽¹⁾ فيكون مجلسك⁽²⁾ معهم مجلس وقار وهيبة، وسكون ورغبة، يصغون لحديثك وأخبارك، غير مذيعين لأسرارك، يعلمون⁽³⁾ بما انطوت عليه سراير خدامك وجميع أجنادك ، فتفاوضهم فيما يصلح أمور دولتك ، ويعود بالمنفعة عليك وعلى رعيتك، ويكون جلوسك معهم بقدر ما يقتضيه⁽⁴⁾ الحال ، ويحتمله المجلس من المقال .

ثم تدخل إلى دارك، لراحتك واستقرارك ، وتصرف الخاصة اثر ذلك ، ويتربص الوزير قليلاً هنالك ، لقضاء حاجة من لا يبلغ اليك ، ولا يجد من سبيل ولا مسلك للوقوف بين يديك ، فاذا استوفى مآرب الناس على اختلاف الأنواع والاجناس، رتب الحراس على باب⁽⁵⁾ القصر، وقد استوفى ما قبله من الأمر .

(1) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. وفي النسخة المطبوعة : سيرتك وعادتك .

(2) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. وفي النسخة المطبوعة : جلوسك .

(3) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. وفي النسخة المطبوعة : يعلمونك .

(4) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. وفي النسخة المطبوعة : بما يقتضيه .

(5) وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر : أبواب .

فاذا أذن العصر خرجت للصلاة ، وترتبت للجلوس في أحسن الهيئات ، ثم تجلس بمجلسك المعتاد ، وتأذن لوزيرك بالدخول دون الخاصة والقواد ، فتفاوضه فيما يختص بك وما تراه من مطلبك ، ثم تأمر بدخول الخاصة بعد ذلك ، تسلك معهم في الحديث أحسن المسالك ، وتأخذ معهم فيما يظفر بالأعداء ، ويصلح على حماةك الأولياء ، وكيف تتوصل لأخذ بلاد العدو المعاند ، والمناوىء الحاسد بوجوه المقاصد .

وليكن جلوسك ذلك متصلاً بالعشاء الآخرة ، تقطع ذلك في المفاوضة والمذاكرة ، ثم تدخل لدارك ، وقد نلت من التدبير معهم غاية اختيارك ، فتخرج الخاصة إلى ديارهم ، ويبقى الوزير قليلاً بعد انتشارهم ، يرتب لك الحراس للبيات ، وتغلق⁽¹⁾ بعد الترتيب على البيات ، ويأخذ الحراس بالطواف على القصر من خارجه ، ويحصن بالتحفظ على جميع مناهجه .

وعلى هذا تكون عادتك في سائر الأيام ، على الاستمرار والدوام ، ماعدا يوم الجمعة ، فانه يوم⁽²⁾ راحة وسعة ، فيه تستعد للصلاة ، ويعتمد الخدام لركوبك في أحسن الهيئات ، فتتطيب وتتعطر ، وتنظف وتنظف ، وتخرج في أحسن اللباس نوعاً ، على الترتيب

(1) لا يتضح معنى هذه الجملة على هذه الصورة ، ولعل هنا تنقص كلمة :
الابواب .

(2) يوم : ساقط في النسخة المطبوعة .

المطلوب شرعاً ، وبعد فراغك من الصلاة تجلس بمجلسك للشكايات ، وتأخذ في قضاء الحاجات ، والفصل بين الخصماء ، والانتقام من الظلمة الغشائية ⁽¹⁾ ، فتقمع الظالم وتقهزه ، وتحمي المظلوم وتنصره ، وتحضر الفقهاء في مجلسك حين الفصل بين الناس لازالة ما يقع في ⁽²⁾ الاحكام من الالتباس ، وهذا المجلس في هذا اليوم المذكور ، مخصوص بالرعية وبالجمهور ، فيه تتفقّد الضعفاء والمساكين ، والأرامل والأيتام المحتاجين ، وتنظر في أهل سجونائك ، وفيما أخذ المأخوذ من رعياتك ، فتسرح من ترى تسريحه ، وتردّ إلى السجن من لم يرد الله أن يريحه ، وتواسي ذوي الحاجات ، ومن يستحقّ المواساة ، فمن كان له حق من الحقوق الشرعية ، رددت أمره الى قاضي البلد ليفصل في القضية ، ومن كان في غير ذلك من الأحكام ، التي لا يقضي فيها أحد سوى الامام ، فصلته بما يقتضي نظرك السديد ، ورأيك المصيب الرشيد ..

(1) وفي النسخة المطبوعة : الغناء .

(2) وفي النسخة المطبوعة : الى .

3 - موقف السلطان من العدو ⁽¹⁾

اعلم ، يا بني أن العدو بالنسبة الى الملك على ثلاثة أقسام: عدو أقوى منك ، وعدو مساو لك ، وعدو أضعف منك .

القسم الاول :

أن يكون العدو أقوى منك، فيجب عليك أن تدافعه بنفسك، لأنه ليس من دهائك ولا من كيسك . فمن رأيك الذي يندفع به عدوك ، ويرتفع به سموك ، أن تكون لك جواسيس في بلاد العدو ، يرتقبون أفعاله على البعد والدنو ، وعيون تلاحظ أعماله ، وتشاهد أحواله ، لا يفارقونه ليلاً ولا نهاراً ، يسألون عن أحوال العدو سرّاً وجهاراً، فكما رام هذا العدو خداعاً، وأظهر فيك أطماعاً، جاءت الجواسيس بأخباره، وما أكنّنه في بلاده من أسرارهِ ، فتأخذ في قوام مدافعتهِ اما بحيلتك

(1) هذا النص لا يوجد في النسخة المطبوعة ، وقد أخذناه من مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، ورقة 56 ظ الى 66 ظ وهذا النص هو الباب الثاني من القسم الرابع من قاعدة السياسة : وهي القاعدة الثانية من قواعد الملك .

ومصانعتك وذلك بقدر حزمك وجدك، وسياستك وكيدك ، وذلك بأن تكتب كتاباً إلى عدوك ووزرائه وخاصته وأهل رأيه ، تعدم باعطاء الأموال، والزيادة الكثيرة من الأفضال، وتعاملهم بالتعطف ، والسياسة والتلطّف ، حتى تخدمهم بمالك ، وتستميل قلوبهم بنوالك ، فان صحت معاملتك باعطاء الأموال ، ونلت بغيتك في كل الأحوال ، سكّنت عدوك من غلوه ، وحططته من سموّه .

وإذا لم تقدر على دفع عدوك بما ذكرناه ، ولا تجد في خاصته من يقبل ما توثره به بل يرده ويأباه ، فتتحيل بوجوه الحيل ، لتنال من عدوك غاية الأمل، وتأخذ بضروب من المخادعات، لا بالاعطاء ولا بالمصانعات ، فرب حيلة، أنفع من قبيلة، ومنها أن تزور كتباً بعدها أجوبة، وتزخرها بزخارف معجبة، وتبدع في تزويرها، وتحسن في تصويرها، كأنها وردت عليك من خاصة عدوك ، وتظهر بها غاية سلوك ، فتقرأها على خاصتك الأقربين ، وتعلمهم أن خاصة عدوك في جنابك محبين ، وأن خواص العدو قد كتبوا اليك ، بما يعود بالمنفعة عليك، فتشيع ذلك بين خواصك الأخيار، وتناولها أهل الحضرة الحضار، وفي هذه مكرمة عجيبة، وحكمة غريبة ، وذلك أنه إذا سمع الصديق بذلك قرّت عينه باستماعه ، وانشرح صدره لإيذاعه ، وإذا سمعه غير الحب في جنابك تغيّر في نفسه، وأشرب في حسّه ، فاما أن يحمله البغض على أن يكتب للعدو ، ويعرفه بما عليه خاصته من البغي والعتو، فيقع الفساد بين العدو وخاصته، إذا اطلع على هذا الكتاب المفضي لآفته ، واما أن يخاف المبعض على نفسه فلا يكتب

إلى الأعداء ، فينقطع عنك هذا الداء ، وفي هذا لك مصلحة في كلا الوجهين ، وقطع المادة من الجهتين .

فإذا قرأت هذه الكتب المزورة على خاصتك ، لما أردت ودبرت من مصلحتك ، أمرت بالجواب عليها ، بما يناسبها وينضاف إليها ، منها أن تضمن لهم ما طلبوه في كتبهم ، وتعين لهم ما عبّئوه من مطلبهم ، ويضبطها كاتبك بأمارات كأنها حق عند السامع ، وصدق وتقرع السامع ، وتبعث هذه الكتب صحبة من يبلغها الى العدو .

وكيفية ذلك أن يكون لك ، يا بني ، قريب من دخلتك، تستخلصه لنفسك برسم أسرارك وخدمتك ، تجعله يكتب للعدو ويريه الخدمة والنصيحة له، ليبلغه ذلك العدو أملة ، ويأخذ معه على ذلك المواثيق والعهود ، ويبقى على حاله المعهود، وينبغي ألاّ يطلع أحد على سره ، ويكتم عليه سريرة أمره ، فإذا فعل ذلك فلا بدّ أن يكتب للعدو في أوقات معلومة ، وحركة مخدومة ، حتى يأنس العدو لذلك ، ويرى أنه سلك في خدمته أحسن المسالك، ويكون هذا القريب منك يكتب للعدو بأمور لا تضرك . فإذا استمر الأمر بينها على هذا الحال، واتصلت بينهما الأرسال ، فتكون أنت من هذا تطلع على أسرار العدو من قبل الكتب الواصلة منه الى القريب ، بما يحدث عند العدو من أمر غريب ، ويكون أيضاً حامل الكتاب وهو السفير، يطلعك على أحوال العدو القليل منها والكثير ، حتى كأنك تشاهد حاله عياناً ، ويخبرك مشافهةً وامتحاناً .

فحينئذ تعطي الكتب التي زوّرتها جوابات، لمن يوصلها الى خاصة العدو بما سطرت فيه من الأمارات، ثم تأمر ذلك القريب أن يكتب كتاباً للعدو ويعرفه بأنك قد كتبت لخاصته، كما استمرّ معك على عادته، ويصف له صفة رجالك المصروفين بكتبك، المعدودين لأربك، وتقدم بهذا الكتاب على العدو رجلاً، وتأمره أن يصل قبل حامل الكتب المزورة، سيما في وقوع الشتات، بين العدو وخاصته الثقات، فإنه لا بد أن يتخيّل العدو بسببها، ويجد في نفسه شيئاً يحمله على طلبها، فيأخذ العدو على خاصته الحنق، ويزيد في الاكتتاب والرهق، فيعلمهم بما صدر من أحوالهم، وما أتوه من قبيح أفعالهم، فتدعوهم الضرورة إلى الإيمان، والشجاء بين الخاصة والسلطان، فيكون العدو حذراً من خداعهم، والخاصة غير آمنين لسوء اصطناعهم، هذا إن لم يعجل بعقوبتهم في الحال، وإن عجل بعقوبتهم بلغت فيهم الآمال، وهذه مكيدة مودنة للعدو بالفساد، وقاضية عليه بالشتات والنكاد.

وبذلك، يا بني، احتلنا على موسى بن إبراهيم اليرنياني⁽¹⁾ حين أراد أبو سالم أن يستوزره ويقرّبه، كما كان عند أبيه، وقد كان من وزراء أبيه المعتبرين، ومن يسوس هو وأبوه⁽²⁾ دولة بني مرين، وكان

(1) عن موسى بن إبراهيم اليرنياني، انظر: الاستقصاء، ج 3، ص 137 - 138.

(2) هو إبراهيم بن عيسى اليرنياني، انظر: الاستقصاء، ج 3، ص 101، 105 - 106، 114.

من أهل الدهاء، مشتهراً بالحيل والآراء ، ولم يبق من وزراء أبي الحسن أدهى منه في أمر، ولا أكفى منه في مكر، فاتفق أن أرسل أبو سالم أرسالا برسم المكيدة إلينا ، والحديعة علينا ، فرددنا مكيدتهم عليهم ، وقلبنا خديعتهم إليهم .

وكيفية ذلك أنا استعملنا عليهم كتباً مزورة على لسان الأمير عبد الحليم ابن أخي أبي الحسن ، وسلكننا فيها كل مسلك حسن، فضمننا أن موسى بن إبراهيم المذكور ممن دان بطاعته ، وانخرط في سلك جماعته ، وأنه تحدث في ⁽¹⁾... مع أبي سالم والاحتتيال عليه ، وأنه تحالف مع عبد الحليم وركن إليه ، واستعملنا أرسالا أشعنا أنهم أتوا من عند عبد الحليم... ⁽²⁾ وهي التي زورناها، واستعملنا الحيلة بها ودبرناها ، فعرفنا بذلك إرسال أبي سالم الذين كانوا عندنا ، وأحضرناهم في خفية حتى سمعوا نص الكتاب ، فعادت قلوبهم لهذا السبب متغيرة ، وأشعنا الخبر بذلك، وسلكننا في ذلك أحسن المسالك ، فلما انفصلوا ووصلوا إلى مرسلهم أبي سالم ، أعلموه بما سمعوه ، وما من نص الكتب علموه ، فلما سمع أبو سالم ما ذكره أرساله ، فسدت معه لهذا الخبر حاله، وتسبب في أخذ موسى بن إبراهيم المذكور والقبض عليه ، فأخذه بعد أن تسبب إليه ، فنكل به وحبسه ، ووبخه ونكسه ، ففرّ ولده محمد السبيعي بن

(1) هنا بياض في الأصل .

(2) بياض في الأصل .

موسى إلى عبد الحليم لما قبض أبو سالم على أبيه ، وتشئت شمل جميعهم
بما تحب النفس وتشتهي ، وما زال السبيح يكتب إلينا رغبة في خدمتنا ،
ويعترف أنه متمسك بجبل ذمتنا ، وأنه راغب في الدخول في طاعتنا ،
والانخراط في سلك جماعتنا ، وقد قدم لنا قصيدة قبل أن يقدم علينا ،
يتملق فيها لدينا ، فأجبناه بهذه القصيدة ، وهي :

تذكرت أطلال الربوع الطواسم وما قدمضى من عهدا المتقادم⁽¹⁾

فتأمل ، يا بني ، هذه المكيدة ، واعتبر هذه الحركة ، يا بني ، وإذا
رأيت عدوك الذي هو أقوى أراد التحرك عليك ، والمبادرة اليك ،
وكان قليل السياسة ، مع كثرة جيشه وماله ، وأمداده وأبطاله ، فيرجى
لك الظفر به والنصر عليه ، وذلك لعدم سياسته وسوء تدبيره في
فعله ، كما اتفق لنا في ابتداء أمرنا مع الحسن بن عمر الفودودي⁽²⁾ حين
استقلاله بمملكة المغرب ، وتقديمه محجوراً لنيل المطلب .

وكيفية ذلك أنا لما دخلنا تلمسان على بني مرين⁽³⁾ تحدث مع
الأشياخ المعتبرين ، وقال : يا بني مرين ، ما ترون في بني عبد الواد ،

(1) انظر باقي القصيدة فيما يلي من مختارات شعر أبي حمو الثاني .

(2) عن الحسن بن عمر الفودودي ، انظر : الاستقصاء ج 4 ، ص 3 -
5 ، 7 - 8 ، 32 - 33 .

(3) عن الحوادث التي سيثير إليها أبو حمو في هذا الصدد ، انظر ، فيما
قبل ، ص 93 - 94 .

وكيف أخرجوا اخوانكم من البلاد ، فاضطربت آراءهم وأحوالهم ،
فاجمعوا رأيهم أن يبعثوا ستة آلاف فارس ، من حماهم الشوارس ،
دون من انضاف اليهم من الحشود ، وما أعدوه من الجنود ، وأقبلوا
بعدد وافر ، وجيش متكاثر ، فلما قربوا من البلاد ، وتهيؤوا بما جاؤوا
به من الأمداد ، وفي هذه الفترة التي كانت بين أخذ تلمسان ، ومجيء بني
مرين الى هذه الأوطان ، أرسلنا الجواسيس إلى المغرب لنتعرف الاخبار ،
ونقف على الصحيح من الجد أو الاقتصار ، فانتقنا الجواسيس بأنهم في
أوائل البلاد ، في غاية العزم والاشتداد ، فلما تحقق عندنا إتيانهم لهذه
الأوطان ، وأنهم عاملون على تلمسان ، استخرنا الله في الخروج الى
ملاقاتهم ، والعمل على الضرب في صدورهم وساقاتهم ، فخرجنا بالأهل
والولد ، والأثاث والعدد ، وحماتنا الانجاد ، وقبيلتنا بني عبد الواد ،
وقصدنا إليهم ، عاجلين عليهم ، إلى أن قربوا من وادي الزيتون ، بما
جاؤوا به من الحشد والزبون ، فعندما رأونا إلى قتالهم مبادرين ، وعلى
ملاقاتهم ماثرين ، وطبولنا تزار عليهم ، وخيلنا تحمحم إليهم ، وشارفت
خيولهم خيولنا ، وعابن قبيلتهم قبيلنا ، تأخروا عن وادي الزيتون ،
خائفين من ملاقات المنون ، مقهقرين ، على الأعقاب ناكسين ، فأضربنا
عن رأي الملاقاة ، وذلك أنه كان بقية جيشنا في البلاد ، مفترقين في الملل
والوهاد ، وإن وقوفنا في الوقت في صدورهم ، تخويفاً لهم في وردهم
وصدورهم ، بحال ما بعثنا أثقالنا ، وصرفنا أولادنا وأموالنا ، وبقينا
منفردين في الحماة الانجاد ، وأجوادنا بني عبد الواد ، وقدمنا الخيرة في

الدخول إلى الصحراء ، ورأيناه من أحسن الآراء ، وقصدنا متوجهين إلى أعرابنا بني عامر ، بما معنا من الأهل والولد والدخائر ، وتركنا لهم تلمسان خالية ، لنمكن بهم مرة ثانية .

فلما سمع بنو مرين دخولنا إلى الصحراء ، ودخلوا تلمسان واستبشروا بالاستيلاء ، ولم يعلموا أن ذلك منا خدعه ، لنستأصل أصل العدو وفرعه ، فدخلوا البلاد في يومهم ، ورأوا ذلك من جدّهم وعزمهم ، ولم يروا أنهم تورطوا في المهالك ، وسلكوا في مبادرتهم شر المسالك ، فاقتضى نظرنا أن نبعث إليهم من يتجسس عليهم بالجهات الوجدية ، ويعرفنا بما هم عليه بالكلية ، فلما سمع بنو مرين أن الطريق قطعت عنهم المعقل ، ⁽¹⁾ علموا أنهم رموا بالداء المعضل ، فعمدوا إلى ألفي فارس أو يزيدون ، من حماهم الذين بهم يقتدون ، وطاروا برسم المعقل بظاهر وجدة ، وأظهروا في أنفسهم غاية النجدة ، فعندما التقى الفريقان في القتال ، وقتل قائدهم ابن ماساي ، وأدركوا أن ما صنعوه ليس الرأي ، فانهزموا هزيمة شنيعة ، وقتلوا قتلة ذريعة ، فتدخل بنو مرين من الرعب والطيش ، لمّا لم يعد إليهم إلا القليل من الجيش ، وبات كل واحد يقلب كفيه ، ويحسب كل صيحة عليه ، وأتيناهم من حيث لم يحتسبوا ، وحقّ بهم سوء ما اكتسبوا ،

(1) في هذه الجملة بعض الغموض وذلك أن المؤلف أخر اسم ان لاجل السجع وعوضه بالمفعول به (الطريق) ، والمعنى فلما سمع بنو مرين أن المعقل قطعت عنهم الطريق .

وخيَّب الله آمانياتهم ، ببغيهم وفساد نياتهم ، وطفقوا يريدون الحيلة في سبب النجاة ، وكيف يخلصون إلى غربهم وتلك غنيمتهم المرجاة ، فعقدوا لأحدهم البيعة ، وخرجوا معه بعد أن عقدوا عقد الصلح على أنفسهم بالمهادنة ، والموالة بيننا وبينهم بالمحاسنة ، وعاهدونا بعهد وثيق وعقد متين ، ألاّ مفاتنة بيننا وبينهم إلى يوم الدين ، وأن يسرحوا من أيديهم من بني عبد الواد ، ويستقرّ كل منا في بلاد الآباء والأجداد ، وخرجوا في ليلهم ، مبادرين لغربهم برجلهم ورجلهم ، ولم يكن عندنا علم حتى هربوا إلى أوطانهم الى أن قربوا من وادي ملوية ، واتصلوا بأول بلادهم المنجية ، وذلك خوفاً من سيوفنا ، وهرباً من زحوفنا ، ولما استقروا ببلادهم نقضوا ما عهدوا ، وأخلفوا ما وعدوا ، فأوقع الله بينهم الشتات والشحناء ، والعداوة والبغضاء ، حتى صار بعضهم يقتل بعضاً ، ثم عدنا تلمسان ، وكان من أمرنا ما كان .

ثم تبين لنا أنهم عهدوا ثم نكثوا ، وحلفوا ثم حنثوا ، وكذبوا بما حدثوا ، وكم بدعة أحدثوا ، فلما جاملناهم ولم يجاملوا ، عاملناهم بما عملوا ، فانعطفنا على من كان منهم في بلادنا الشرقية ، مثل مليانة والمدية ، فاستولى عليها والدنا المرحوم ، وعمل فيهم سيفنا الخطوم ، فوجه إلينا منهم أربع مائة فارس مصفدين في الأغلال ، ليذوقوا العذاب والنكال ، وسيقوا في أسوأ حال وطبولنا تزار عليهم أسداً ، وقد كان الأولى قتل هؤلاء الأعداء ، فمنهم كان الظلم والعداء ، لكن أبقينا عليهم ليكونوا عوضاً عن من في أيديهم ، ورأينا أن نعاقبهم بهذا الأمر المشه لقوله تعالى : « وإن

عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، .

يا بني ، وإن كان لك معقل تلجأ إليه ، لكنك لا ترجح التعويل عليه ، وترى ان قالت الحكماء أن كل محصور مقهور ، وحاله سائر مشهور ، فينبغي لك حينئذ أن تحصن معقلك الذي أعدته لحصرك ، وتلجأ إليه في مهم أمرك ، وتضع به أثقالك ، وأموالك ، وأثاث جيشك وأولادك وحماتك ورجالك ، ثم تتسع لعدوك عن البلاد بما عندك من الأجناد ، خارجاً عن طريقة ذلك ، راكباً المعطشات والمهالك ، قاصداً لبلاد العدو ، لتسكنه من الغلو ، وتصدّه من العتو .

وذلك أن العدو إذا قصد بلادك ، وأراد قهرك ونكادك ، فإنه يأتيك بجميع أحشاده وأنصاره وأمداده وقواده ، ويترك بلاده خالية من الحماة ، ومعرضة للآفات ، فتقصدها أنت لفرصة تنتهزها أو وقية تنجزها ، فتفعل ذلك في بلاده ، لتقابل ما أفسد من بلادك ، وفي ذلك مسفة على العدو القاصد ، لما يلحق بلاده من المفاصد ، فإنه إذا سمع العدو أنك قد أوقعت في بلاده الشتات ، وشذنت عليه الغارات ، مرضت نفسه لذلك ، وأيقن أنه واقع في المهالك ، وساءت ظنون أتباعه من القبائل والعساكر ، وانقلب سرورهم إلى تغيير الخاطر ، لما مسهم من تشتيت بلادهم ، والخوف على أهليهم وأولادهم ، فيصيرون إليه لا عليه ⁽¹⁾ ،

(1) كذا في الأصل .

ومتأخرين عنه وإن كانوا بين يديه ، فيرجع العدو ناكصاً على أعقابهِ .
خاسراً في مجيئه وذهابه ، وهذا كان حالنا مع عدونا أبي سالم ، حين رأينا
أنه إلى بلادنا قادم .

وكيفية ذلك ، يا بني ، أن أبا سالم كان له قواد بالجزائر ، يكتبون له
في الباطن والظاهر ، يطلبون منه الانتصار ، لما ضيق عليهم والدنا
الحصار ⁽¹⁾ ، ويعرفونه بالزور ، ويسهلون عليه الأمور ، بضعف بني
عبد الواد ، وقلة ما لهم في البلاد ، ويقبحون له المحاسن ، ويحسّنون له
القبائح في المواطن ، ولم تزل كتبهم تتواتر عليه ، وتصل في كل يوم إليه ،
إلى أن أخذته العزة والنجدة ودعته الثورة ، وهاجته الحمية ، وحط
النفس على الحركة إلى البلاد الشرقية ، فجمع الأجناد الوافرة ، والأعداد
المتكاثرة ، ولم يترك بالمغرب خيلاً ولا رجلاً ، ولا شاباً ولا كهلاً ،
والرماة المترجلة من المغرب ، ليرجف بها ويرهب ، ولينال بذلك غاية
المطلب ، ولم يزل يستعمل الحال بالمسير ، إلى أن وصل أطراف البلاد
في الزمن اليسير ، وعندما تحققنا إتيانه ، وأنه قد نقض عهوده وأيمانه ،
وأنه قاصد للبلاد ، وأنه لا يصده عنها صاد ، أخذنا في الترجيح بين
الخروج إلى الصحراء ، أو ملاقاته في هذه الأنحاء ، ثم نظرنا إلى بلادهِ
قد خلت من الأجناد ، ولم يبق بها أحد إلا القواد ، فاقتضى نظرنا أن

(1) راجع ، فيما يخص الحوادث التي يشير إليها هنا أبو حمّو إلى ما جاء
فيما قبل ، ص 98 - 99 .

نخرج من تلمسان ، ونقصد إلى بلاده بمن معنا من الحماة والفرسان ،
فوجهنا إلى والدنا بالبلاد الشرقية ، فالتحق بنا بمن معه من الجيوش
العبد الوادية ، وخرجنا إلى الصحراء نخويها على بني مرين ، ونحن في
الحقيقة إلى بلادهم قاصدين .

ولما توغل أبو سالم في البلاد، وظن أنه بلغ غاية المراد، واستقرّ بدار
تلمسان ، وأنه تأثّل له فيها الملك والسلطان ، قصدنا بلاده فالفيناها
خالية من الحماة ، وطعمة للغارات ، فاتينا على حصونها نخرب ونهدم ،
ونحرق وندمدم ، ونسلب ونسلم ، إلى أن ملأنا الأحقاب بالأسلاب ،
والسعات بالأمّعة والأسباب ، وهدمنا القلوع والحصون ، وأذقنا من
تعرض إلينا كأس المنون ، وأبو سالم يظن أنه قد ظفر بتلمسان ، وملك
هذه الأوطان ، فبينما هو بالفتح . سار منتظراً لما يرد عليه من الأخبار ،
إذ كتب إليه أهل بلاده بالاعسار ، يطلبون منه الانتصار ، ويعرفونه
بما لقوا من البوار ، وأنه إذا لم يبادر البلاد ، استولت عليها بنو عبد
الواد ، فعندما سمع أبو سالم بأخبارنا ، وما دهم بلاده من حماتنا وأنصارنا،
طاش لبه فرقا ، وصارت دعته قلقاً ، وعلم أنه مخذول ، وعقده محلول،
وحده مفلول ، ولم تنفعه أحشاده، ولا حماته ولا أجناده، وكاد جيشه
يكون عليه ألماً ، لما ملئت قلوبهم رعباً ، فلم يقتض نظره إلا تقديم حفيد
أبي تاشفين اتّامن بتقديمه قلوب بني مرين ، ويشير الفتنة بهذا الوطن بمن
يترك معه من المفسدين ، فلم يقيم أبو سالم في البلاد إلا ثلاثة أيام ، بعدما

أراد أن يصيرها دار مقام ، طريدهم من مخافة سيوفنا شريدهم ولم يرجع إليه عقله ، حتى اتصل بفاس هو وأهله ، وعدنا إلى بلادنا سالمين ، وبما نلناه من الأعداء غانمين .

ولما سمع بنا حفيد أبي تاشفين أخذ في الهرب ، فجددنا في أثره الطلب ، فنجنا بنفسه ، ولم يفلت إلا برأسه ، ثم بعث إلينا أبو سالم بالمصالحة والمحاسنة ، والموالاتة والمهادنة ، ولم يزل يعرف لنا هذه الفعال ، ويدركه من حركتنا الاذهال ، وقد كانت مصالحته لنا على رغم أنفه ، ولم يزل يحاملنا إلى أن لحق بجثفه ، وهذا باب من السياسة ، ونكتة من الرياسة ، ونبذة من الحزم ، أدت إلى غم .

يا بني ، وإن كان العدو صاحب حزم ، ووحيد عزم ، وترى أنك لا تقدر على ملاقاته ، ولا قبل لك بجيوشه ولا ساقاته ، وهو مواز لك في الدهاء ، والسياسة والآراء ، ولم يقدم على بلادك بأجناده ، حتى حصّن معاقل بلاده ، فيذبغي أن تخرج عن صوبه وطريقه إلى أن ينزل معقلك ، ويهم بتضييقك ، فإذا نزل معقلك فتحرّك عليه ، وآت بجيشك قاصداً إليه ، فما يمكن عدوك المذكور ، إلا ترحزحه عن معقلك المشهور ، وقصده إلى ملاقاتك بمن معه من الجمهور . فاذا رحل العدو عن ذلك المعقل اشتد أهله وانتعشوا ، وأنسوا بالفترة بعدما استوحشوا ، ووقعت الرجفة في جيش العدو ، وسكن من ذلك الغلو ، فاذا صم العدو للقائك قاصداً ، ورحل إليك مواجهها جاهداً ، فترحل مرحلة من أمامه ، تحل بها عقدة

اعتزاه، فلا يزال دأبك كذلك، ترصده في وجوه المسالك، كلما دنا منك العدو وتعرفت مكانه وأينه، فجعلت مسافة بينك وبينه، لا يقدر فيها على التوصل إليك، ولا أن يقاتلك ويهجم عليك، فيضطرب العدو في أحواله، ويضعف في ترحاله، فلا يقدر على العودة إلى الحصار، فيتوقف بين الأقدام والفرار، وتضعف حينئذ حركته، وتنكسر شوكته وتقل نجدته، وينكسر جيشه، وينخفض عرشه، فما يرى أرجح من الرجوع إلى بلاده، ليربح نفسه وجملة أجناده.

يا بني، فإن لم يرحل العدو عن معقلك الذي نزله، ولم يرد إلا نكايتك حين قدمت له، فيذبغي لك أن تنجز من خيلك وحامتك، وأهل نُصرتِك وكفاتك، وتغير على أطراف محلته، ولا تترك من أتباعه من يتحرك في حيلته، فيكره مقامه ويجنح إلى رحلته، فلا يزل ذلك دأبك مساء وصباحاً، حتى تضيق عليه المسالك قتالاً وكفاحاً، فتمنع عنه القوافل، وترصد فرسانه في الخنادق والمخاض، حتى يصير محصوراً بعد أن كان حاصراً، ومقهوراً بعد أن كان قاهراً، فتضيق حاله حينئذ بأجنادك، وتقل قوتهم فيضعف عن استبداده، ولا يتحصل بجواده، فتشتت عليه الأجناد، وتختلف عليه آراء القواد، وتضعف نجدة الاحشاد، فيرحل عن المعقل بغير اختياره، ويود أنه لم يخرج من داره، فإن وجدت فيه فرصة فانتزها، وإن تيسرت لك عدة فانتجزها.

يا بني، وإن كان العدو حين أتى مصمماً إلى معقلك، قاصداً إلى

محلّتك ومنزلك ، تابعاً لك ليلاً ونهاراً ، عاملاً عليك سرّاً وجهاراً ، وكان العدو مثلك في الدهاء ، ونظيرك في الحزم والآراء ، ينبغي لك أن تتظفر به وإن كنت مطلوباً ، فتغلبه وإن ظنك مغلوباً ، فإن المطلوب يغلب الطالب حتماً ، ويستولي عليه رغماً ، لأن الفرض أن التابع أكثر جيشاً وأثقالاً ، وأكثر حركة وانتقالاً ، وفي الجيش الكبير القوي والضعيف ، والثقل والخفيف ، والطالب أبداً على اختياره ، والمطلوب لا يهتم إلا بفراره ، والانتشاء لأخذ ثاره ، وهو أقوى جلدأً وصبراً ، فلا يأمن الطالب منه ، لا سيما في المواضع المعطشات ، والمهامه المدهشات ، فإنه لا يأمن من الطالب أن ينثني عليه ، فيهلكه فيلقى امتحانه .

وكذلك اتفق لأبي الحسن المريني ، ⁽¹⁾ وكيفية ذلك أن أبا الحسن لما أخذ تلمسان واستطار صيته في جميع البلدان والأوطان ، تأقت نفسه لأخذ البلاد الأفريقية ، وأن يقطع ذكر خلافة التوحيد ، وأن يعم أمره القريب والبعيد ، فاستعمل حركته التي كانت آخر حركاته ، وأعظم معركاته ، وأعدّها الأعداد وحشد لها الأحشاد ، وأمدّها الأمداد ، وقاد أهل المغرب بأسره ، واستظهر بأمواله وقوته ووفره ، عاملاً على أن لا يترك بالبلاد المشرقية إلا من يدين بطاعته ، ويدخل تحت إيلته وفي سمط جماعته ، وهو على اعتزاه يظن ألاّ راية تعلو رأيته ، ولا خلافة

(1) راجع ، فيما يخص الحوادث المشار إليها هنا ، ما جاء فيما قبل من 23 - 25 .

إلا خلافته ، وذلك لما استولى عليه من البلاد ، وما تحت إيلته من الحماة والأجناد . فخرج من حضرته فاس الى مدينة تلمسان، وقد طبق الأرض بما حشد من الفرسان ، ثم استخلف ولده أبا عنان ، وجعل له النظر على جميع البلدان ، واستوثق بولده في البلاد ، ورأى أن ذلك من الحزم والاشتداد ، ولم يدر أن القدر سائقه لحينه ، ومزعجه من ممكن أمنه ، إلى أماكن حصره وسجنه . فلم يزل يستعمل الركاب ، ويرحل المضارب والقباب ، ويقطع الأرض طولاً وعرضاً ، ويخوضها رفعاً وخفضاً ، إلى أن بلغ بجاية ، فاستولى عليها وبلغ منها الغاية ، فاستفتحتها من غير طعان ولا ضرب ، بل بأذاغة الصيت والارهاب .

ثم إخرج صاحبها إلى محلته ، وأدخل عامله إلى البلد في ليلته ، ثم ارتحل إلى قسنطينة يريد حصارها ، لما ظهر له من تحصينها وشدة أنصارها ، فلم يلبث إلا ثلاثة أيام ، وخدمه أهلها على الأمان التام ، فأخرج من كان بها من أهل التوحيد ، وأدخل عامله اليها على حسب ما يريد ، بعد احتوائه منها على الطارف والتلديد ، ثم تمادى الى بلد العناب ، فخدمه أهلها من غير ضرب ، ثم دخله العجب الموزن بالهلاك ، المفضي بصاحبه الى الانتهاك . ثم قصد تونس لا يصد عنها صاد، ولا يرد لقوته راد ، وقد أعجب من أعداده المتكاثرة، المديدة الوافرة ، فعزم على ملاقاته الأمير أبو حفص عمر ابن أبي يحيى ، وأراد صده عن تونس لو ساعده القدر وكانت من أهل الدنيا ، فقتله أحد قواد أبي الحسن ، وخمدت بموته شحنة المحن ، وعندما أوتي أبو الحسن برأسه عظم في أعين أناسه ،

وأيقنوا بالتمهيد في البلاد، وأنهم أعفوا أثر التوحيد وبلغوا غاية المراد . ثم استقبل تونس والبلاد ترتج لسلطانه ، وتبتهج بإتيانه ، وقد أجمع على طاعته أهل تلك البلاد ، ورغب في امتثال أمره جميع العباد ، فدخل تونس بجيش يضيق عنه المتسع ، ويذل له الممتع ، ولا يخالفه المتبع ، فأظهر بها صيتاً عظيماً وملكاً عتيداً أزال بذلك زي أهل التوحيد ويأبى الله إلا ما يريد ، فخدمته البلاد الافريقية ، وتلتها البلاد الجريدية ، ففرق عماله في البلاد ، وبعث إليها بالحصص والقواد ، وأتته القبائل والأعراب ، وانتادت لخدمته الصعاب والصلاب ، ثم انه حمله حال الاعجاب ، على أن يأخذ المراهين من أولئك الأعراب ، وأن يغير عليهم عاداتهم ، وأظهر أموراً أفضت به إلى معاداتهم . فعندما علم العرب بذلك انسلوا من حضرته انسلال الطل ، وصاروا له أعداء أسرع من فيء الظل ، فأخذته الأنفة من فرارهم ، وسولت له نفسه في أخذهم وانتهارهم ، ولم يعلم أنه كالباحث على حتفه بظلفه . والجادع مارن أنفه بكفه .

ولما استحققر العرب واستقلّهم ، وأراد أن يأخذهم ويستذلهم ، فاستعمل حر كته من تونس عاملاً عليهم ، ومنتهضاً اليهم ، ليقطع آثارهم من البلاد الافريقية ، ولا يترك بها من بني كعب بقية ، فخرج في طلبهم مبادراً ، وعلى غزوم مثابراً ، ولم يزل في أثرهم طالبا ، وفي استنصاهم راغباً ، وهم مع ذلك يظهرون الفرار بين يديه ، ويطلبون انثناء الوثبة عليه ، قد دخلوا أمامه الى الصحراء يستجذبونه حيث ضعفت له جملة النصر ، وعندما أجهد في أثرهم أجزأه ، وأتعب جيشه وقواد ،

حتى سئمت جيوشه من الصبر ، وأيقن أعداؤه فيها بالظفر ، فعندما عاينوا فرصتهم فيه ، أثنوا أعنتهم عليه حيث لا ينفعه تلافيه ، فكانت ساعة حينه ، فانهزمت جيوشه الوافرة ، وانخذلت أمداده المتكاثرة ، فتلافى القيروان ، منفرداً مع أفلال من الفرسان ، واستولت العرب على أمواله ، وأثاثه وجلة أثقاله ، ولم ينفعه عزمه ، لما انتقض حزمه ، وذلك من سوء التدبير ، واحتقار العدو الحقير ، فلو كان يقظان ما احتقر عدوه ، حتى سكن علوه ؛ فكانت هزيمته تضرب بها الأمثال ، وبسببها آل ملكه للزوال ، فلا تخش يا بني ، من عدوك وإن كان قوياً .

القسم الثاني :

أن يكون العدو أضعف منك ، وكان ذا رأي وحزم ، وانتهاض وعزم ، وله معاقل حصينة ، وأماكن أمينة ، ينحصر فيها ويمتنع ، ويأمن فيها وينقطع ، فلا يقدر قائد من قوادك عليه ، ولا أنت إذا قصدت بنفسك اليه ، أما بتحصنه بمعاقله الحصينة ، وأما لركوبك المعطشات التي يبلغ بها مينه ، فيذبغي حينئذ أن تغزوه مرتين في السنة ، ولا تغفل في لحظة ولا سنة ، وذلك في زمن الصيف والخريف ، وحين تستوي الخيرات من بلاده من كل ثالد وطريف ، فتستعد له الاستعداد التام ، وتنهض له بالجد والاعتزام ، فتدخل الى بلاده ، فتأكل زرعهم في أوان حصاده ، وثماره في إبان جنائها ، وترزلهما في جميع انحاءها ، حتى تضيق عليه كل التضيق ، وتخرج الرعيّة من طاعته بالتشتيت

والتفريق ، لعدم دفاعه عنهم ، وإمكان جيشك منهم ، وخراب بلاده ،
وقلة جيشه وأعداده ، فيضعف بعجزه عن الخروج الى المعطشات، ولقلة
صبره على المدهشات ، فيسامه جيشه ، ويزداد كربه ووحشه ، وينكره
خاصته والأقربون ، ويعودون عليه بالزبون ، ولا يمثل أحد من أتباعه
أمره ، ولا يوافقه فيما جهر به وأسرّه ؛ فحينئذ تقصد إلى حصونه
وبلاده ، لقلّة أعداده وضعف أجناده ، فتأخذ منها الأقرب فالأقرب ،
وهذا مما لا يتم به المطلب ، فكما أخذت من حصون عدوك ، زاد في
قوتك وعلوك ، واستغنت عليه بما أخذته من حصونه ، وذلك زائد على
ضعفه وهونه ، فتستولي على مجاييسها وأموالها ، وحماة البلاد ورجالها ،
فتضيّق عليه بأنواع التضييق، وتحاصره محاصرة القوي المطيق لأنك استغنت
ببلاده على بلاده ، وبمدده على أمداده ؛ ثم تأخذ في البناء والتضييق عليه ،
بكل وجه ترى أنك تصل به اليه ، فتبني على كل برج من بروج معقله
برجين ، لم تفتر عنه طرفة عين ؛ ثم تشحن الأبراج بالرماة والرجال ،
والآلات التي يحتاج للقتال ؛ ثم تدبر بمعقله الحفائر ، والخادع التي تليق
بالمحاصر ، وتستعمل الدركات ، والانفاط والمنجنيقات ، وتستأصل
الرمي على ذلك المعقل في كل الأوقات ، فبالضرورة تأخذه عنوة .
وتغلب عليه سطوة ، ويسلم لك المعقل بالاضطرار ، لشدة ما يلقي أهله
من الحصار .

أن يكون العدو مساوياً لك في جيشك وبلادك ، وحزمك وجلادك ، وكفاءتك وسياستك ، ونجابتك ورياستك ، فينبغي لك إذا رأيته موازياً لك في الدهاء ، وأحواله جارية معك على السواء ، أن تحاوله بالمصالحة والمهادنة ، والموالة والمحاسنة ، فتكون مصالحتك له من جملة المكائد ، ومن الدهاء الذي يبلغ للمقاصد ، لأن مصالحة العدو متى تظفر به مكيدة ، وتلك سياسة وكيدة ، وإن كانت عند الناس مذمومة ، وصفتها بالغدر موسومة ، فهي عند الملوك محمودة ، وآثارها مشهورة مشهودة ، ومع ذلك لا تأمن عدوك في مهادنة ، ولا في موالة ولا محاسنة .

وقد اتفق لنا ذلك مع السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن ، حين وجهنا إليه للآندلس بكل فعل حسن ، وكيفيته أن أهل المغرب لما أرغناهم بالخروج من بلادنا ، وانتزعنا من أيديهم إرث آبائنا وأجدادنا ، وعاهدناهم على قطع المقاتنات ، وصالحناهم على الموالة والمحاسنة ، لم تزد نفوسهم الا شحذاً ، ولا حركاتهم إلا أذى ، ثم اتفقوا على نقض العهد ، وتمادوا على حقد الآباء والجدود ، ألا نعقد معهم صلحاً الا نقضوه ، ولا نوليهم صلحاً إلا رفضوه ، ولا نوافقهم على الكف عن شيء الا تعرضوه ، إلى أن تبين لنا ان غاية مطلوبهم الفتن ، وأن التردد اليهم من الحن ، وان أظهرت ظواهرهم الموالة ، فإنما حشوها الحقد والنكيات ، وعندما تواتر شرهم ، وتبين

غدرهم وقلّ خيرهم ، أخذناهم بالمحاولات ، فلم تنفع فيهم في كل الحالات ، ومتى أردنا تسكيننا ومهادا ، أبدلوه هرجا ونكادا . فاقضى رأينا السيد السالم ، أن نبعث للأندلس لآبي سالم ، لنثير عليهم الفتنة ، ونديقهم بخروجه أليم الحنة ، ليستغل بعضهم ببعض ، بموجب ما أسلفوه من نقض وبغض ، فعندما وصلت أرسالنا لآبي سالم تحضه على الجواز ، وتعلمه أن أوان الفرصة قد آن للانتهاز ، وأن يكون جوازه الى بلادنا ، لنمده بمهماتنا وأنجادنا ، على عهد لازم ، وأمر بالمهادنة قائم ، وأن يبادر في حينه ذلك ، وأن يسلكه في ذلك أحسن المسالك . فلما وصلت أرسالنا بالكتب اليه ، وصلوا بغرناطة قادمين عليه ، أعمل الحيلة في خروجه في الحال ، واحتال غاية الاحتيال ⁽¹⁾ وخاف أن يشعر به ، فيصد عن مطلبه ، وكان هنالك بعض قبيلنا الخلاء ، وحامتنا النصحاء ، فوجهنا اليهم في محاولته ليجوزوه إلينا ، ويقدموه علينا ، فلم يجدوا لخروجه سبيلا ، وتعذر عليهم بسبب البحر لما رأوا في ذلك تطويلا ، فاقضى نظرهم السيد ، ورأيهم المصيب الرشيد ، أن يتوجهوا به الى الفنش الطاغية ، ورأوا ذلك أقرب الى المغرب من الجواز به الى هذه الناحية ، فانا شوقناه الى مغربه ، وأرينا بما ندبناه غاية مطلبه ، وحضضناهم على الامتنان بدار ملك أسلافه ، ومبادرة المغرب قبل تلافه ، فجوزوه الطاغية حين وصل إليه في غراب البحر ، فانزله بظاهر أصيلا ومنها تعين له

(1) قارن بين ما يلي وبين ما جاء في كتاب الاستقصاء، ج 4 ص 7 - 8 ، حول خروج أبي سالم من الأندلس .

بارق النصر والظفر ، فاستقلّ من عامه بالخلافة ، وركب مرقى الإنافة ، وحلّ بحضرته وداره، على حكم اختياره ، ومن هناك اجتاز الى المغرب ، وبلغ غاية الأمانى والمطلب ، فتحصل على ايدينا بدار لمكه وسلطانه ، واستولى على جميع بلاده وأوطانه، فراسلنا بالمحاولات والمصالحة، والمهادنة والمناصحة ، وكان ذلك منه خداعاً ومكرأ ، ودهاء وغدراً ، ومع ما أظهر من موالاته ، ومناصحته ومصافاته ، لم نزل نخذر من مكائده ، ونتقي سوء مناكده ، وقد كتب لنا بخط يده على ختمة من القرآن العظيم ، بعهد وثيق وعقد سليم مستقيم ، وجعل كتاب الله حكماً بيننا وبينه أن تكون بيننا المجاملة في المعاملات والموالاة والمهادنة ، والمصافاة والمحاسنة، وأن لا يتبدل عن الحال التي وقع عليها العقد، وكتب على ظهر المصحف العهد .

فلما استقل بسلطانه ، أول شيء أبداه بنجدلانه ، أن نقض العهد ، وحلّ العقود، وحشد الاحشاد ، وأمد الأمداد، وقصد الى بلادنا ، عاملاً على قتالنا ، ولم يراع العهد والايمان ، ولا ما خطه من عهده على مصحف القرآن ، فكان من إتيانه ما كان ، وما اتفق له في دخوله الى تلمسان ، كما قدمناه آنفاً في غير هذا المكان ، فعلى هذا يا بني، لا تأمن عدوك في حال، لا في المصالحة ولا في القتال .

واعلم ، يا بني ، أن المصالحة بين الملوك مكيدة ، وهي عين المحاولة الوكيذة ، والحركة الشديدة ، فلتكن لعدوك يقظان ، وفي محاولته دهقاناً .

يا بني ، أكثر لعدوك الهدايا ، وفیض على إرساله جزیل العطايا ،
وأنسه وواله ، وأكرمه وصافه ، وأظهر له الوداد ، وأربن له الاعتقاد ،
ووال خاصته بالاكرام ، وعاملهم بجزيل الإنعام ، وأظهر للعدو
الشفوف عليك في الحال ، حتى یظن أنك تخافه ، وأنه ظفر منك
بالآمال ، وأنت تهدايه لأجل الخفاف ، وتواليه على وجه الاستعطاف ،
وكذلك تكاتب خاصة عدوك ، الذين یوصلون الهدايا ، لیعلموك إذا
رجعوا ما هو عليه وما فعل في بلاده ، وما أحدث من زیادة في أجناده ،
وما درك من الجيش في عامه ، وما أحدث من الحوادث في مدة مقامه ،
فتفعل أنت ما یقابل ذلك ، وتزید أضعافاً على ما هنالك ، من حیث
لا یكون للعدو بك شعور ، ولا یعرف ذلك عند الخاصة ولا الجمهور .

والعمل في ذلك ، يا بني ، أن لا تظهر زیادة بحضرتك ، ولا تفشي
ذلك في امرتك ، بل تفعل ذلك في البلاد التي لا تلي العدد وهي منه
بعیة ، وذلك إذا فعلته من وجوه المكيدة ، فلا تزال في زمان المهادنة
تدرک الفرسان والأجناد ، وتستعدّ لعدوك أتم الاستعداد ، ولیکن
اشتغالك بتوفير العدة ، وآلات الحرب التي تكون بها النجدة والشدة ،
وكل ذلك بحيث لا شعور للعدو ، ولا یعلم وجه تسبیه ، لأن العدو یكون
آمناً من عناياتك ، لأجل مهادنتك ومصالحتك ، وعاملاً على أحوالك التي
تفعلها في أقصى بلادك ، وعن تدريکك وجملة أجنادك ، لأنه یراک
أخذاً في مناصحته ، متمسكاً بمهادنته ومصالحته ، موافقاً یجميع أغراضه

واختياره ، مؤثراً له على خاصته وأخياره ، وتلك مكيدة أردتها ،
وخديعة حسنة دبرتها .

وفي أثناء هذا كله ، على عقد الأمر وحله ، تكون عادتك ضم جيشك
للأعياد ، تجمعهم من سائر البلاد ، وتحض قوادك والأجناد ، يعبدون
لعيدك ، ويمثلون أمرك في وعدك ووعيدك . يا بني ، في الأعياد تكون
هداياك لعدوك ، وفيها تظهر إقامتك وسموك ، لتتعرف أحواله في
أعياده ، وما يزداد في أجناده وقواده ، يعلمونك إذا رجعوا إليك ،
حتى لا يخفى شيء من حاله عليك ، حتى يأنس العدو بذلك ، ويرى
أنك جريت معه على أحسن المسالك ، فيأمن العدو من غوائلك ، لحسن
محاولتك وتراسلك .

فإذا تحققت ، يا بني ، أن جيشك أكثر من جيش عدوك ، وأنجادك
أكثر من أنجاده ، ومددك أوفر من أمداده ، ورأيت فرصة فانتهازها ،
واقترح عليها وانتجزها ، فإذا فعلت ذلك على حين غفلة ، فيرجى لك
الظفر به من أول وهلة ، لأجل افتراق جيش عدوك في البلاد ،
وطمانينته بترك الاعتداد ، فإنك إذا أقبلت إليه لا يسعه إلا ملاقاتك ،
إذا ظهرت له راياتك وساقاتك ، لأنه يرى أنه مواز لك في العدد والعدة ،
والدهاء والكفاية والنجدة ، فإن خرج إلى لقائك ، فالغالب أنك تغلبه ،
وتظفر به وتنكبه ، لأنك أكثر أهبة واستعداداً ، وأقوى جيشاً وأوسع
أمداداً ، وإن لزم العدو موضعه ولم يخرج إلى لقائك ، لعدم وجدان

جيشه هنالك ، فينبغي لك أن تدخل إلى بلاده ، وتسعى في اشتاته
وفساده (1) ...

4 - هي الشجاعة واقسامها (2)

اعلم، يا بني ، أن الشجاعة وصف محمود، وبها يتفاخر الوجود، واعلم
أن ثمة الشجاعة لم يكن مثل صاحبها في الدنيا وخصوصاً في الملوك ، فانها
لماثرها كالوسائل في السلوك ، وأصل الشجاعة الصبر في المواقف، وربط
الجأش عند المخاوف ، ورأسها الحذر والتوقي ، وسياستها الممارسة عند
التلقي .

يا بني ، إذا وضعت قتالك في موضعه، وحذرت ما يتقى من مصرعه،
كنت شجاعاً كاملاً ، وفي الحروب شهياً (3) بأسلاً ، وإن تركت الحذر في
حين القتال، وتوكلت على شجاعتك في ملاقات الأبطال ، والمباشرة بنفسك
للاحوال ، كانت شجاعتك هوجاً ، وقوام حربك عوجاً .

واعلم، يا بني إذا كان الملك شجاعاً ، كان منصوراً مطاعاً ، ترهبه

(1) توجد بقية هذا الباب في النسخة المطبوعة ، ابتداء من ص 115
س 21 .

(2) واسطة السلوك ، الباب الثالث القاعدة الأولى وهي الشجاعة ، ص
129 - 135 (وعنوان النص من إنشائنا) .

(3) وفي النسخة المطبوعة : شهلاً .

الأعداء ، وتطمئن إليه ⁽¹⁾ الأتلياء ، يعتد به جيشه في مواقع الحروب ، ويخاف سطوته الطالب والمطلوب .

فالشجاعة ، يا بني ، مكلمة للمحاسن ، محبوبية في كل المواطن ، فرَبُّ الشجاعة بالرعب منصور ، وفي زمانه معظَّم مذكور ؛ وينبغي لك يا بني ، وإن كنت شجاعا ، أن تتحذر الوقائع ، التي تخاف فيها المصارع ، واعلم بأن الشجاعة والكرم أخوان ، كما أن الجبن والبخل أخوان ، ودليلهما أن الشجاع يجود بنفسه فأحرى أن يجود بماله ، والبخل يبخل بماله فكيف يجود بنفسه في حاله . والشجاعة تنقسم على أربعة أقسام :

القسم الاول : وهو للشجاعة التي يصحبها الرأى .

اعلم ، يا بني ، أنه ينبغي لك أن تكون حاضر الذهن عند الملاقاة ، رابط الجأش عند تلاقي الساقات ، لا ترحزحك الرياح العواصف ، ولا ترهبك القواضب القواصف ، ولا الحروب على اختلاف أنواعها ، ومعظمت إيقاعها ، وقد قدمنا لك أنه ينبغي لك أن تخاطر بنفسك ، ولو كنت أشجع أبناء جنسك ، فإن المخاطرة غير محمودة إلا في طلب الملك والسلطان ، فإنها محمودة في كل أوان .

يا بني ، وإذا اقتحمت القتال ، واختلطت الأبطال بالأبطال ، فغايتك

(1) وفي النسخة المطبوعة به .

ان تكون حاكما على نفسك صابراً ثابتاً في جأشك، ناظراً على ساقاتك التي هي قلب جيشك ، فلتلزم بها الثبات، ولا ترحزح الى جهة من الجهات ، ولتشد بثباتك الانجاد والحماة، والمقاتلين الكعاة ، وان انكسر أحد الجناحين من جيشك فلا تهتم به، ولا تنتقل بسببه ، فان انكسار الجناحين مع ثبات القلب لا يضر ، والصبر في مثل هذا عائد عليك بما يسر ، لأنه اذا كانت رايات القلب تحقق وطبوله ترأر كان ذلك حصنا للجناحين ، وأمانا للعسكر من الحين ، وأرجى للظفر بالعدو عند رجوع الجانبين ، يا بني ، اذا لاقيت عدوك في الحرب ، فاجعل راياتك أمامك ، ونظرك أمامك ، ولا تلتفت يمينا ولا شمالا ، فان الالتفات يورث خبالا ، لانك ربما رأيت في أحد الجناحين انكسارا ، فيتشوش خاطرك لذلك ويدعوك الشره ابتدارا ، فتميل إليهم بمن معك من العساكر فيكون ذلك سبب [فسادك في الباطن والظاهر ، لا ريب أنك سبب] ⁽¹⁾ الفساد ، وخروج ⁽²⁾ عن الاقتصاد ، لأنه اذا رآك جيش ملت الى أحد الجهتين حسبوا أنك منهزم دون مين ، مع أنك لا تقدر على جبر الجانب الذي انهزم ، والركن الذي انثلم ، لما دخل الرعب قلوبهم ، وافسد الترحزح أسلوهم ، فالذي يجب عليك أن تجمع خاطرك، وتثبت في عدوك ناظرك مصمماً اليه ، عاملاً في اللقاء عليه .

(1) ما جعل بين حاصرتين ساقط في النسخة المطبوعة .

(2) هكذا في النسخة المطبوعة . وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر خروجاً . ولعل الصواب أن يقال : خارج .

يا بني ، لا تخل شجاعتك من الرأي ، تنجح مطالبك في كل سعي ،
ويرجى لك الظفر والنصر ، والاستيلاء على العدو والقهر .

يا بني ، رتب جيشك يوم الحرب واللقاء ، فإن في ترتيبه إرهاباً
للأعداء ، وهيئته تهيباً حسن الانتظام ، مضبوط الانقسام ، على أربعة
أقسام : ميمنة من حماة أنجادك ⁽¹⁾ ، وميسرة من كفاة أجوادك ، وتقدمة
من أبطال فرسانك ، و ساقة من أسود شجعانك ؛ وتقدم على كل واحد
من الميمنة والميسرة قائداً مقداماً ، بطلاً ضرغاماً .

فأما التقدمة فتقدم منهم فرساناً بين يديك ، يكونون في نحر العدو
إذا قصد إليك ، من أنجاد قبائلك الشجعان ، وأهل دخلتك العارفين
بالضراب والطعان ، وتقدم عليهم قائداً من الأبطال ، الخاضعين بحور
الاهوال ، واجعلهم على قسمين : قسم يلي الميمنة بين يديها ، وقسم يلي
الميسرة بين يديها ، ويكون قتال كل قسم من هاذين القسمين ، اللذين في
الجهتين ، مستنداً لمن خلفه من الميمنة والميسرة ، فتكون الأجنحة بأولئك
الحماة منتصرة .

وأما الساقة ، وهي قلب جيشك ، فاعلم ، يا بني ، أن الساقة لا
تكون ⁽²⁾ توازي الميمنة والميسرة ، فإن القلب يوقف الجيش ويشده ،

(1) وفي النسخة المطبوعة : أنجادك .

(2) لا تكون : ساقط في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر .

ويصد العدو ويرده، فلا يكون فيه إلا أهل الشجاعة والنجدة، والكفاية والشدة، من كل بطل مقاتل، وشهم في الحروب بأسل، تخافهم الأبطال، وتقيمهم أسود النزال، فترتب هذه الساقة وتجعل عليها من زعماء حاصتك الأنجاد، وحماكتك الأسود الأفراد، قائداً عن يمينها، وقائداً عن يسارها، يضبطانها ويحفظانها، في إقبالها وإدبارها، وإيرادها وإصدارها، لتبقى الساقة موفورة، وحماتها مضبوطة محصورة، بحيث لا يفل أحد من الساقة ولا يختل، ولا يتزحزح ولا يتحول، ولو انكسرت الميمنة والميسرة فإن الساقة تثبت معه على حالها، منعقدة بحماتها وأبطالها ..

وليكن تشوفك إلى عدوك غير ملتفت كما قلنا، ولا ناظر إلى شيء⁽¹⁾ سواه، وتوكل في جميع أمورك على الله ...

يا بني، وإذا قربت من عدوك فلا تعجل عليه بالحملة، ولتاخذ في أمرك بالتأنّي والمهلة، فإنه لا بد لكل دفعة من رجعة، ولكل كبوة⁽²⁾ من رفعة، وليكن انتهاضك إلى عدوك زحفاً، فإنك ترهبه خوفاً ورجفاً، فإن أبطالك تقاثل بين يديك، معتمدة في قتالها عليك، فإن انهزم العدو وفر أمامك، ونلت من هزيمته مرامك، فلتبادر من فورك إليه، ولا تمهل في مسيرك عليه، ولتكن خلفك محللك وأثقالك، وأسبابك وأموالك، ولتصل في أثره مسيرك في ليلك ونهارك، حتى

(1) وفي النسخة المطبوعة: لا تناظر لشيء.

(2) وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر: كرة.

تنال من عدوك غاية اختيارك ، فإنك إن بادرتَه أخذت أمواله ، وحويت أثقاله ، وقتلت حماته وأبطاله ، وربما قعد بالعدو جواده ، وخانته أجواده ، أو كبا حصانه أو عثر ، أو دهش وتعذر ، فتظفر بعدوك من غير تجديد طلب ، ولا تكرير تعب ، وإن نجبا العدو برأسه ، وفر بنفسه ، ثم وصل إلى أمنه وحصنه ، وحضرته وكنّته ، فإن كنت في اتباعه عازماً ، وفي طلبه جازماً⁽¹⁾ ، فيرجى لك أن تأخذه في بلده الذي لجأ إليه ، وحصنه الذي عول عليه ، لأنه لا يصل إلا في جهد وضعف ، وتزلزل ورجف ، منقطعاً عن حماته ، متفرداً من أنصاره وولاته ، فيسهل لك أخذه من غير تطويل ، ويتيسر لك الاستيلاء عليه عن تعجيل .

يا بني ، وإن كان الأمر عليك لا إليك ، وتفرق جيشك من بين يديك ، ولا ترتجي له جبراً⁽²⁾ ولا عودة ، ولا عطفة ولا نجدة ، ولم يقف عليه⁽³⁾ أحد من حماتك ولا قوادك ، ولا من أنصارك ولا أجنادك ، فحينئذ تحتاج إلى جوادك الذي أعددته ، وإلى وزيرك الذي تخيرته واستحسنه ، فتتفرد بوزيرك ، المخصوص بتدبيرك ، المشاور في قليلك وكثيرك ، فتقصد معه إلى معقلك الذي أعددته لحصارك ، واستخلاصه ملجأ لك⁽⁴⁾ ولأنصارك ، فإذا استقررت في حصنك ، الذي هو موضع

(1) وفي النسخة المطبوعة : حازماً .

(2) وفي النسخة المطبوعة : خبراً .

(3) وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر : عليك .

(4) وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر : إليك .

أمنك ، ومنشأ سلطانك ، وقاعدة بنيانك ، فتتحيّل على عدوك بأنواع الحيل ، وضروب المكائد التي تبلغ بها الأمل ، وتأخذ في مدافعته ⁽¹⁾ عن حصارك ، ولا تغفل عنه في ليلك ولا في نهارك ، ولا تكل أمر معقلك إلى أحد من خدامك ، ولتباشره بنفسك في كل أيامك ، فإذا كنت ، يا بني ، بهذه المثابة في الاجتهاد ، فلا يتصل منك العدو بمراد .

القسم الثاني من الشجاعة :

ما يصحبه العقل دون الرأي ، وهو أن يكون الملك عاقلاً في نفسه يقظان في أحواله ، دهقاناً غير طالب فتنه ، ولا جالب لمحنة ، يشتغل بتأخرته ، ويغفل عن رعيته ، ولا ينظر في أمر جنده ، ولا في شأن من دخل في عهده ، ويرى أنه من زهده لا يضرّ أحداً من الأعداء ، ولا تصله يد الاعتداء ، حتى إذا نزل به أمر ، أو ساءه من عدو مكر ، أظهر حينئذ شجاعته ، وأبدى براعته ، وذلك حين لا ينفعه إظهارها ، ولا تستجرّ له نارها ، ولا يغنيه استحضارها .

فهذا ، يا بني ، شجاعته غير محمودة ، ومن قلة النجاة معدودة ، لأنها شجاعة عن الرأي قاصرة ، فهي مذمومة بالنسبة إلى الدنيا والآخرة

القسم الثالث :

أن تكون شجاعته غير مفرطة ، بل بين ذلك متوسطة ، غير أنها

(1) وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر : مرافعته .

يصاحبها الرأي المصيب ، وينتفع بها مع الرأي في الموقف العصيب (1) .

فهذه ، يا بني ، شجاعة محدودة الأثر ، جميلة السير ، وإن كان الذي قبله أشجع منه ، فهما لأجل الرأي يقصران عنه ، فإن الشجاعة المتوسطة إذا صاحبها الرأي ، لا يكون صاحبها إلا ناجح السعي ، لأنه يحاول برأيه ما لا يحاول بقدرته ولا بشجاعته ، وينتفع بنفسه ان التجأ الى براعته ، فبرأيه يقصر عن الحروب ، ويبلغ غاية المرغوب ، لأنه يحاول في دفع المكاره ، ويلقي ملاقة الأسد الشاره .

فهذا ، يا بني ، اذا حل به كرب ، أو دهمه من عدو خطب ، لا يرجف له قلب ، ولا يداخله رعب ؛ هذا وان لم يبلغ من شجاعته الغاية ، فهو في تديره في غاية النجابة والكفاية ، كصاحب القسم الأول الذي قدمناه ، وبالشجاعة والعقل ذكرناه ، فمثل هذا ، يا بني ، اذا كان الأمر عليه ، وجد من رأيه ما يرجع اليه ، فهذا أحسن حال من الذي قبله ، وان لم يكن في الشجاعة مثله .

القسم الرابع من الشجاعة :

وهي التي لا يصحبها عقل ولا رأي .

فهذا ، يا بني ، شجاعته مذمومة ، وبالجهالة موسومة ، وهي في الحقيقة

(1) وفي النسخة المطبوعة : الصعيب .

هور ، والعمل بها خطر ، لأنه اذا كان حرب لم يتمالك أنت ينغمس في القتال ، ويلجج بهوره في معمعة الأبطال من غير رأي ولا تدبير ، ولا نظر في الأمور ولا تقدير ، فمثل هذا يا بني أوله للهلك ، وآخره لزوال الملك .

5 - هي الفراسة ، وهي خادمة السياسة ⁽¹⁾ :

وينبغي أن تكون فراستك في وزيرك وكاتبك ، وقاضيك ومفتيك ، وصاحب شرطتك وعمالك ، وصاحب أشغالك وقوادك ، وصاحب ⁽²⁾ أجنادك وعدوك والأرسال الواردة عليك ، بل ⁽³⁾ المتوجهة من قبلك إلى الملوك أمثالك ، والكتب الواردة عليك من العدو وغيره .

فأما فراستك في وزيرك ، اعلم ، يا بني ، أنه ينبغي لك أن تتفرس في وزيرك ، الذي اتخذته لرأيك وتديريك ، وشاركته في قليلك وكثيرك ، وتنظر إلى أقواله وأفعاله ، وكافة أحواله .

فاذا تكلم في المسائل المرة بعد المرة ، فيما لا ينفع الخلافة ولا يعود

(1) واسطة السلوك ، الباب الرابع ، ص 141 - 162 .

(2) كذا في النسخة المطبوعة ، وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر : وسائر .

(3) والأرسال الواردة عليك ، بل : ساقط في النسخة المطبوعة ، وعوض بكلمة : والرسل .

عليها بمسرة ، مثل اذا تعين لك عند أحد مال ، تعرض لك في تركه في نفس الحال ، أو ألحّ عليك في الكلام عليه أو أظهر لك وجوها من الاعتذرات بضعف المطلوب وإقلاله ، وقلّة وجدّانه ورقة حاله ، فتعلم أنه أراد منفعة نفسه فازجره يا بني عن مقاله ، ومره إلا يعود الى مثاله ، فإن تمادى عليك بالالحاح وجدّ في ذلك ، فتعلم أنه قد رشي على مالك ، وإن كف بعد أن زجرته ، ولم يعد الى الكلام الذي عنه آخرته ، فتعلم أن كلامه عن صحة من غير غرض ، ولا داعية تدعوه الى أخذ عرض .

يا بني ، وإن كان لك خديم ناصح في خدمتك ، مسوف لجميع حقوقك وحرمتك ، ويريد وزيرك أن يوقع به عندك ، ويغيّر خاطرك عليه ويفسد نيتك وقصدك ، فخذ معه في ذم ذلك الخديم ، وقل ما ليس فيه من حادث وقديم ، فإن رأيتّه وافقك على ذلك ، وسلك في ذمه كل المسالك ، ثم أتى بما هو أشنع علمت أن وزيرك عدو لذلك الخديم ، طالب نكبته بكل فعل ذميم ، وأن كلامه باطل ، وحاله معه حائل ، إذا كرر عليك المرة بعد المرة ، وتمادى عليه بالذم والمضرة ، فإن قال ⁽¹⁾ قولا وتغافلت عنه ولم تنتهره ، وتغافل هو أيضاً ولم يذكره ، ولا أعاد كلاماً ولا أكثر به اهتمامه ، فتعلم أن الحق ما قال وزيرك ، وإنما هو نصيحك فيه ومشيرك ، فابحث على ذلك واختبره ، وتأمله واعتبره ، تجده إن شاء الله تعالى .

(1) وفي النسخة المطبوعة : كان .

يا بني ، لا تسمع كلام أحد من أول وهلة ، حتى تأخذه بحكم
الفراصة على التفصيل والجملة .

يا بني ، اذا أردت أن تتفرد في وزيرك هل هو كامل العقل أو
ناقص العقل ، فاذا رأيت أن أدنى الأمور يغضبه ، ويكرهه ،
وأدنى الأمور يرضيه ، وأقلها يسليه أو يفضيه⁽¹⁾ فتعلم انه ناقص العقل ،
مضطرب الفعل⁽²⁾ ، فان كان لا يغضب إلا من أشد⁽³⁾ الأمور ،
ولا يكثرث إلا بأمر مشهور ، ويكون راضياً بما يأتيه منك ، ويتحملة
عنك ، لكنه يرى بوافر عقله أنك أنزلته تلك المنزلة الكريمة ، وأحلته
محلا وارادت به تعظيمه ، فيقابل جميع ما يصدر عنك بالقبول ،
ويتلقاه بالسرور المأمول ، إلا فيما يضربك فلا يوافق عليه ، ولا يجنح بعقله
اليه ، فتعلم أنه كامل العقل ، وحيد الفضل ، شديد المحبة في جنابك ،
متودد لك آخذ في جميع آرائك .

يا بني ، اذا كان وزيرك كامل العقل ، آخذاً بشائيل الفضل ،
فتتفرد في حال انبساطه وانقباضه ، وعلوه وانخفاضه ، فان

(1) كذا في النسخة المطبوعة ، وقد سقطت هذه الكلمة من المخطوط
المشار إليه .

(2) كذا في المخطوط ، وفي النسخة المطبوعة عوضت العبارة الأخيرة
بالجملة التالية : وعقله أخف من ريشة في الميزان ، ولا هو في عقله رجحان .

(3) كذا في النسخة المطبوعة : شدة .

رأيت في حال إقباله إليك مسروراً ، مبسوطاً طلق الوجه محبوراً ، فتعلم أنه أتى إليك بمسرة سمعها في جنبك ، أو صدرت له عند بابك ، فاختبره فإن أبدى لك ذلك فالمسرة في جنبك ، وإن أخفاها فتعلم أنها في جانبه منك وإن أقبل إليك على حالته المعتادة ، فتعلم أنه لم تزايد عنده زيادة ، وإن أقبل إليك مطرق الرأس ، منقبضاً ⁽¹⁾ غير طيب الانفاس ، فإنه سمع مقالة تسوؤه في جانبك من أمر عدوك ، أو ما يسوء جانبه من قبلك ، فإن أخبر بذلك وأظهره ، فتعلم أن ما سمع في جنبك غيره ، وإن كنتم ذلك عنك ، فتعلم أن ذلك صدر منك .

يا بني ، إذا سمعت عن وزيرك سقطت في جانبك وأردت اختيار حقها من باطلها ، وهل صدرت منه كما سمعت من قائلها ، ويظن وزيرك أنك سمعتها عنه ، فتفرس في وزيرك ، فإن رأيت منه زيادة في البشاشة ، والخضوع والتذلل والهشاشة ، وتلك خلاف عادته فإن ذلك دليل على الريبة ، وتحقيق لتلك السقطة المعيبة ، فحقق ذلك من غير ارتياب ، فإنه لا تخفى حالة المرتاب ، وإن لم ينتقل عن حالته المعتادة ، ⁽²⁾ ولم يظهر في كلامه نقصان ولا زيادة ، فتعلم أنه بريء مما قيل لك فيه ، لأن ظاهره دلّ على ما يخفيه .

(1) كذا في النسخة المطبوعة : منفض .

(2) كذا في النسخة المطبوعة : عن حالته المرتابة ، ولا عن طريقته المعتادة .

يا بني ، إذا أردت استخراج ما في ضمير وزيرك العاقل فخذهُ بالرفق والتلطف ، والايناس والتألف ، واثته من الباب الذي يوافقهُ ويحبه حتى يستخرج ما في ضميره بحسن السياسة ، وحكم الرياسة .

يا بني ، وأما من كان من وزرائك ناقص العقل ، فلا تمهله بالقول ، وأكثر عليه من الكلام ، فإنه من ضعف عقله لا يقدر على الاكتتام ، فيخرج لك ما في ضميره ، من قليل الأمر وكثيره .

يا بني ، وأما جلساؤك ، فينبغي لك أن تتفرس في جلسائك وتختبرهم ، وتنظر في طباعهم لتعتبرهم ، من هو المحب في جنابك ، اللانذ بيبابك ، المرع لقضاء آرابك ، ⁽¹⁾ ومن هو على غير ذلك ، واختبر المفشي منهم لأسرارك ، والمحافظ على أخبارك ، من رأيته كثير الكلام ، شرهاللاقدام ، لا يتوقى المقام ، لا يخفي شيئاً من أسرارهِ ، ولا من أسرار غيره ، ولا له في إفشاء ذلك منفعة ، فتعلم أنه غير محافظ على سرك ، فاحذره فإنه كما لم يحافظ على سرهِ فكذلك لا يحافظ على سرك ، وكذلك من هو متهم ، فامرهِ أعظم وأهم ، فإن المتهم يختبر بمعرفته بالناس ، وبتألفه وكثرة الجلاس ، وإن كان أقل كلاماً في مجلسك ، فلا تأمنه في سر على نفسك ، لأن معرفته بالناس تدعوه الى إفشاء الاسرار ، واذاعتها على وجه الاسرار .

يا بني ، ومن رأيته من جلسائك قليل الكلام ، غير مخالط للأنام ،

(1) كذا في النسخة المطبوعة : آرائك .

ولا يجالس أحداً ، ولا يرى فيها مقصداً ، ولا يتكلم إلا في محل الكلام ولا يأخذ الا فيما يجمع عليه الخاص والعام ، وتعلم أن صمته أكثر من كلامه ، وإمساكه معرب عن جوابه ، وعقله غالب عليه ، وعارف بكلامه ما يؤول اليه ، فذلك ممن يكتم الأسرار ، ويأخذ بفعل الاختيار⁽¹⁾ فاودعه جميع شرك ، وما تقتضيه من خيرك وشرك .

يا بني ، وان أردت أن تعرف من جلسائك من هو محب فيك ، عامل على خدمتك وتصافيك ،⁽²⁾ أو من هو بخلاف ذلك ، سالك في خدعك شر المسالك ، فتفرس في طباعهم ، وانظر الى تملقهم واصطناعهم ،⁽³⁾ واختبرهم اذا ورد عليك سرور على غفلة ، وأتاك بشير وارد بعجلة ، وكيفية اختيارهم أن تنظر إلى وجوههم في الحين ، فتتبين منهم أحوال المحبين وغير المحبين ، فمن رأيت وجهه متهللاً داخله السرور ، فتعلم أنه محب بسرورك محبور ، ومن رأيت منقبض الوجه حين تنظر اليه ، فتعلم من بغضه ما انطوى قلبه عليه ، لأن الانبساط والانتقباض يفيضان من القلب على الوجه⁽⁴⁾ فيبدو ما في الباطن على

(1) كذا في النسخة المطبوعة ، وفي المخطوط المشار إليه : وخذ بفعل الاختيار .

(2) كذا في المخطوط ، وفي النسخة المطبوعة : عامل على خدمتك ومنتشل ما يخرج من فيك ، وعلى جميع ما يرتفك

(3) كذا في المخطوط ، وفي النسخة المطبوعة : وأصناعهم .

(4) زائد هنا في النسخة المطبوعة : فيدل على صاحبه انه بسرورك راض .

الظاهر ، ⁽¹⁾ وتطلع من ذلك على السرائر ، وإن أبدى لك غير المحب بشاشته ، حين يظهر هشاشته ، لأن السرور يكسو الوجه طلاقة ⁽²⁾ وجمرة ، حتى يصير كأنه جمرة ، والحدق يكسو غيرة ، أو كورة أو صفرة ، وذلك لسأهه مالا يريد ، ولشدة تغيره وحقد له يسود ويزيد ⁽³⁾ .

يا بني ، وإذا ورد عليك خبر غير سار ، فإن وجه المحب يعود منقبضاً ظاهر الانكسار ، وربما ظهرت على وجهه غير محبك اماراة الاستبشار ، فاعتبر المحب من غير المحب بهذين الاعتبارين ، يتبين لك في كلا الاختبارين ...

يا بني ، وأما فراستك في أرسال الملوك الواردة عليك ، القاصدين من بلادهم اليك ، إما من قبل الأعداء ، أو من قبل الأولياء ، فإن كان من قبل الأولياء فلا إشكال ، إن ذلك موالاة وافضال ، وإن كان من قبل عدوك فينبغي لك أن تتفرس فيهم تفرس النبلاء الأذكياء النجباء .

فإذا أقبل رسول عدوك اليك ، ورأيت طلق الوجه لديك ، وأسرع في

(1) زائد هنا في النسخة المطبوعة : فتطلع في وجهه البشائر .

(2) كذلك في المخطوط ، وفي النسخة المطبوعة : لطافة .

(3) كذا في النسخة المطبوعة . وفي المخطوط المذكور : ولشدة عقد

تغير يزيد .

مشيه مظهراً للمسرة ، فتعلم أنه يبدي لك من كلام الخير ما أسره ، ثم يفصح بحسن سلامه ، ويظهر الأدب بين يديك في كلامه ، ويقدمك في الشكر والثناء على سلطانه ، ويظهر لك البشاشة في تبيانه .

فإذا كان على هذه الحال فتفرّس فيه بأحد وجهين ، فان فراستك لا تخطيك ⁽¹⁾ من غيرمين ، اما أن سلطانه ضعيف الملك أو ضعيف العقل ، فان كان ضعيف الملك فتفرّس فيه بأحد وجهين ، اما أنه يطمع فيما يناله منك وذلك من خذلانه ، أو يطمع فيما يدفع به المضرة عن سلطانه ، فاذا رأيته كذلك فاذن له بالجلوس في مجلسك ، فانه يظهر ما في باطنه لتأنسك ، فتزيد فراستك فيه يقيناً ، وتظهر لك أحواله تبييناً ، ويسر أهل مجلسك بما عنده من الهزار ، وتطلع أنت على ما أكنه من الأسرار ، ثم تأمره بالانزال عند خلاصتك ، لتبين فيه غاية فراستك ، ويأتيك بما أضمره من سره ، وبما جاء به من خير الامر ⁽²⁾ وشهره ثم تعده بالمطالب الكبار ، وتمنيه بالفوائد الكثار ، فان كتم عن خلاصتك أمر سلطانه ، ولم يطلعه على شيء من أحواله وشانه ، فتعلم أنه رسول ناصح لمولاه ، ليس له من طمع فيما سواه ، ولا هو غادر ملكه ، وانما رأى الثناء عليك أحسن مسلك سلكه ، يا بني ، وتعلم أن ثناءه عليك لضعف سلطانه ، وقلة ذات يده وامكانه ، وعلامة ذلك أنه لم يشتمله

(1) وفي المخطوط المشار اليه سابقاً : لا تخطيه .

(2) كذا في المخطوط المشار اليه وفي النسخة المطبوعة : الأمور .

طمع ، ولا في غرضه إلا ما به ينتفع ، لكن قدمك في الثناء على سلطانه لدفع مضرة يتيقيها ، وأظهر لك البشاشة والتودد ليحافظ على المحاسنة ويبقيها ، فأعرض عليه حينئذ ، يا بني ، بعض ما تريد من الاشتراط ، مما ترغب فيه وتحتاج غاية الاحتياط ، وخذ معه في الامور التي لا ينفر عنها ، ولا تأخذ عزة الانفة منها ، ولا مما لا يعود عليه بوصم ، ولا من سلطانه بدم ، فان قبلها من أول وهلة ، فتتحقق ضعف مملكة من أرسله ، فلا تترك فيه فرصتك فانها قد أمكنت ، ومهابتك عند مرسله قد تمكنت ، فان أردت المصالحة على وفق اختيارك ، وان شئت القصد اليه بمجاثك وأنصارك ، فان عدوك ضعيف ، وهو منك على تخويف ، وأما الرسول فنعم الرسول ، ولا لأحد فيه ما يقول .

فان كان سلطانه قوياً بالجيش⁽¹⁾ والمال ، والحماة والانصار والابطال ، مع ما صدر من الرسول من البشاشة ، والثناء والشكر والهشاشة ، فتعلم أن سلطانه ضعيف العقل ، لا يفرق بين الفرع والاصل ، وعلامة ذلك أن رسوله لم يوف له حقاً ، ولا أحسن اليه فعلاً ولا أجاد نطقاً ، بل أسقط حرمة ، وأساء خدمته حين أخره في الذكر ، وقدمك عليه في الثناء والشكر .

واعلم ، يا بني ، أن الرسول الذي يتصف بهذه الصفة ، فقد خرج

(1) كذا في النسخة المطبوعة ، وفي المخطوط المذكور : قوي الجيش .

عن طريق المعرفة ، وأنه ما صدر الا لما يرتجيه من المطامع ، ولا قصد له الا في نيل المنافع ، وتلك المنافع عائدة على سلطانه بالمضار ، وجالبة عليه مناكذ الحين والبوار ، وأيضاً انما كانت هشاشته لمكيدة ، عرضت له في جانبك ومكيدة .

وقد اتفق لنا ذلك مع عمر بن عبدالله ⁽¹⁾ وزير ملك المغرب أبي سالم حين أرسله اليينا ⁽²⁾ بالجد العازم ، والعهد اللازم ، ليتحيل بعض الحيل علينا ، ويخادعنا بين أيدينا ، فتفرسنا فيه المخادعة ، لما أظهر من التذلل والمصانعة ، ولما أظهر من البشاشة ، والثناء علينا والهشاشة ، فعلمنا من ثنائه علينا وتذله لدينا ، مع قوة سلطانه ، ورفيع مكانه ، أن تذله انما هو لمكيدة ، أو لمطعمة تنال منا مفيدة ، فانزلناه عند وزيرنا عبدالله بن مسلم ، لما بينهما من تودد ⁽³⁾ متقدم ، وكانت رغبة عمر المذكور في ذلك ليتوصل الى غرضه من هنالك ، ثم أمرنا وزيرنا باستخباره ⁽⁴⁾ إذا أطلععه على أسرارهِ ، واستخراج ما عنده ، لنعلم مراده وقصده ، فوجدناه على ما تفرسنا فيه من المكيدة والطمع ، والمحاولة والخدع .

(1) عمر بن عبدالله بن علي الياباني ، انظر : الاستقصا ، ج 4 ، ص 45
52 ، 53 .

(2) عن هذه السفارة ، انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 90 .

(3) كذا في النسخة المطبوعة ، وفي المخطوط المذكور سابقاً : من تأكيد صدر .

(4) كذا في المخطوطة المذكور سابقاً ، وفي النسخة المطبوعة : باختباره .

فلما علمنا منه ذلك حاولناه وأوعدناه ، بما أراده منا وتمناه ، إلى أن عادت مكيدته على سلطانه ، فكانت سبب هلاكه وخراب أوطانه ، أما المكيدة التي أتى بها ، والمخادعة التي تسبب بأسبابها ، فامرآن : أحدهما أنه أتى بمال يد به أهل وهران ، ويعينهم على التمادي على الطغيان ، الثاني أنه أتى إلى وزيرنا ليخذه ، ويرده إلى جانب سلطانه ويطمعه ، وذلك لما تقدم بينهما من الوداد ، وصفاء المودة والاعتقاد ، وقد تفرسنا ، يا بني في وزيرنا أنه لا يخذه عمر المذكور ، ولا يغتر منه بزخرف الغرور ، من أجل محبته وخلوص نيته ، وصفاء طويته ، وعلمنا من حزم وزيرنا أنه يخذه ويرد عليه مكيدته ، ويحل عزيمته وعقيدته ، ولذلك أنزلناه عنده وأريناه بذلك بغيته وقصده .

وكنا ، يا بني ، ندخله إلى خلوات مجالسنا ، وننره ⁽¹⁾ بمجادثتنا ونغشيه بمواعدتنا ، حتى استملناه بكليته ، واستخرجنا ما في طويته ، وكان يتخيل بعقله أنه يستخلص أسرارنا ، ويطلع على أخبارنا ، ونحن نكيد به بوجوه المكائد ، ونشيع ما جاء به من المقاصد ، إلى أن يبلغ خبره لسلطانه ، بما يريد ⁽²⁾ بذلك انخفاض مكانه ، وأبطاننا به في الوداع ولم نودعه حتى علمنا أن سلطانه ساء به ظنا ، وأنه إذا وصل إليه لا يلقي منه سلامة ولا أمنا ، وأنه غرس عنده ثمار الحقد ، لسوء ما أتاه من القصد ولما علم أنه جنى كبيرة ، ولم يحسن السيرة ، أطلعنا على أمرار مولاه ،

(1) النسخة المطبوعة ، وفي المخطوط المذكور سابقاً : نسره .

(2) كذا في النسخة المطبوعة ، وفي المخطوط المذكور سابقاً : نريد .

وأظهر لنا ما أسره وأخفاه ، أخذنا معه فيما يضر بسلطانه ، ليخلص مما
جنّاه من خذلانه ، فأجاب الى ذلك ووافق عليه ، وهجست نفسه بما
نذب إليه ، فكان من قيامه على سلطانه ما كان ، الى أن أزال عنه الملك (1)
والسلطان ، وغلق في وجهه أبواب فاس الجديد ، ولقي منه أليم
التنكيد ...

فينبغي لك ، يا بني ، أن تتفرّس في أرسال عدوك اذا قدموا عليك ،
ووصلوا بالرسالة إليك ، فتسايسهم أحسن سياسة ، وتمارس حالهم أجل
ممارسة ، وتحادهم بالطف التحادعات ، وتصانعهم بوجوه المصانعات ،
حتى يظهر لك الحبيب والنصيح ، والباطل والصحيح ، فتعامل كلا
منهم بما يليق به ، وتجري معه على ما تراه من مذهبه ..

يا بني ، فان كان الرسول وزيراً أو ما يقاربه ، فتكون فراستك
فيه على نحو ما تبين لك مناقبه ، وإن كان دون ذلك ، فتجري على ما تراه
من أحوالك ، وليكن نزول كل رسول عند أمثاله من خدمك ، ولتكرم
كل واحد بما يليق به من إكرامك ، وذلك سبب لاستخلاص الاخبار ،
واختبار ما يكتنه من الأسرار .

يا بني ، وإن أقبل عليك رسول عدوك حين دخوله عليك منقبض
الوجه ، بطيء المشي مظهر الكراهة في الزي والوجه ، فتفرّس فيه

(1) كذا في النسخة المطبوعة ، وفي المخطوط المذكور سابقا ... الحكم .

بأحد وجهين : اما أن يكون ذلك من قبل الرسول المذكور ، يريد بذلك غاية الظهور ، وذلك من خبث طباعه ، وسوء اصطناعه،فلتأمره بالانزال عند من يختبر حاله ممن يكون في الطبقة مثاله ، بعد أن تأخذ الكتب الواصلة صحبته ، وتتفرّس فيها من عدوك رغبتة ، ومنها تستدلّ على حقيقة الخلل ، ولا تخفى عليك الحقيقة من الحال ، فإن كان مالا يليق بك ولا يرضيك لا من خطاب ولا من جواب ، فتعلم ان الرسول من طبع المرسل والكتاب ، فتحضره بعد ذلك بين يديك ، وتخلي له مجلسك حتى لا يطلع أحد عليك ثم تخفي حديثه كما تخفي (1) كتابه ، ثم تعطيه بعد ذلك جوابه ، وان كان في الكتاب ما يسرّ ويرضي ، وبأنواع المسرة يقضي ، فتعلم أن الخبائثة في طبع الرسول ، إذا لم يكن في الكتاب الا معاني الأمن والسول ، فتنعم عليه بالاحسان ، وتستميل قلبه بالامتنان ، لأن فعله ذلك سبب للانتفاع ، وخبائثة من جهة الاطماع ، فإذا أخذ منك وأعطيتة ، وأكرمتة ومنيتة ، دعتة الخبائثة (2) الى إفشاء سر سلطانه ، لأن إحسانك إليه حملة على اختيانة .

وهكذا ، يا بني ، كنانتفرّس في الأرسال ، فنجدهم على ما تفرسنا فيهم من الصحة والاعتدال

(1) كذا في المخطوط المشار إليه : وفي النسخة المطبوعة سقطت العبارة التالية : تخفي حديثه كما .

(2) هكذا في المخطوط المشار إليه ، وفي النسخة المطبوعة : الخيانة .

الباب الثاني

شعر أبي حمو الثاني

الشعر السياسي

حان الفراق⁽¹⁾

حان الفراق فكنت منه بمنزل ودنا الرحيل فكنت فيه بأول
وتحكم البين المشتت والنوى فينا بفتكة سيفه المتكلل
وبدا غراب البين في عرصاتها يرثي عليها منزلاً في منزل
والوصل ولّى راحلاً في اثره قاضي الفراق على كتيب محجل
خلت المعالم والطلول دوارس وذوى الرياض وكل ربع مزبل
والدار أمست بقلعاً من أهلها يرثي عليها كل طير أليل
والورق⁽²⁾ نائحة على أغصانها نوح الشجي⁽³⁾ المدنف المتعلل
فسمعت هاتفة على أفنانها تشكو بصوت يئن لم يجهل

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة في بلاد افريقية قبيل قيامه بحركته
الموفقة لاحياء الدولة الزيانية ، وضمنها شوقه وحنينه وحزنه لفراق
أحبابه ، وبعث بها الى أبيه الذي كان آنذاك بمدينة فاس ، وهي
من بحر الكامل ووزنه : متفاعلن متفاعلن متفاعلن ، هذا ولم نعث
على هذه القصيدة الا في كتاب « زهر البستان » المشار إليه سابقاً
ورقة 7 ظ - 8 ظ .

(2) وفي الأصل : والارق « وهو خطأ بين » .

(3) وفي الأصل : السجي .

فنشدتها عن حالها فترغت
 قالت وأشواق النوى لعبت بها :
 أو ما رأيت الروض أسمى مقفرا
 هادي دياركم وهاذي أرضكم
 دعني أنوح عليهم طول المدى
 فشفيقت لما أن علمت حديثها
 ناديتها والجسم مني قد فني
 لو ذقت يا ورقاء ما قد ذقته
 كم حرقه كم زفرة كم لوعة
 وشواهيدي هم هؤلاء كما ترى
 دمعي يسبح وزفرتي لا تنقضي
 لو ذاق قاسي القلب ما قد ذقته
 أو حل ما بي بالجبال تدكدكت
 والحال تنبئ والكواكب تشهد
 حالي يطول ومحنّتي لا تنقضي
 لا بد من سوق النجوع مغرباً
 وترى الفوارس دائرات بالعدى
 وإمامها قطب الوفا بحر الندى

وبكت وأبكت صم صخر الجندل
 عن غير حالي يا ابن آدم فاسأل
 لعبت به ريح الصبا والشمال
 بالأمس قد كانوا بهذا المنزل
 أبكي عليهم جدولاً في جدول
 والجفن يفرق بالدموع الهطل
 وعلى فؤادي غمرة لم تنجل
 لحرقت أغصان الأراك الميل
 يحلولديها كل صعب مذهل
 بانوا وكل مبين لم يجهل
 والسهر أنخلني وعذل العذل
 لغدوا سكارى في محل مهمل
 دكاً وأمست مثل كحل المكحل
 أني أراقبها ولم أتحيل
 كم لي بيمدان الوغى من محفل
 حتى تكل متونها بالأحمل
 تسقي لواردها نقيع الحنظل
 عطاها يوم الوغى باليعطل⁽¹⁾

(1) وفي الأصل : باليعضل (وهو خطأ) . واليعطل : هي الحنساء الطويلة العنق ، يعني الرمح ، وعطل الأبل أو الخيل : تركها بلاراع أو فارس .

صدامها رداخها حكمها
 موسى الهام ابن السراة دوي العلى
 لا بد من طي⁽¹⁾ السرى لبلاهم
 وأسير في اعلائه متبخرأ
 وقبيل عبد الواد محدقة بنا
 ولها عوال كالشهب اذا بدت
 والخيّل تعثر⁽²⁾ في الاعنة ضمراً
 يا نجل عامر سر بنا واطو السرى
 يا نجل عامر سر غرست النخل في
 يا نجل عامر طال قولي انني
 يا نجل عامر دارنا مع داركم
 وأسير من شد السرى متايلاً
 ياسر ما عندي اذا لاحت لنا
 ويعود دهر قد مضى بسبيله
 فابلغ سلامي يا نسيات الصبا

شرادها ورادها بالفصل
 من قدرقي في العز أعلى معقل
 من فوق صهال أغرّ محجل
 متوشعاً متقلداً في جحفل
 من كل ليث ضارب بالمنصل
 قد عدلت للحرب أي تعدل
 من أشقر وأدم ومحجل
 ليلاً لعل الدهر يدني منزلي
 أوطانها تحني كطعم السلسل
 أحمي الحمى يوم الوغى بالمنصل
 قد عمرت من بعدنا بالحنظل⁽³⁾
 فوق الأغرّ ومقلتي لم تقفل
 يوماً على تلك الرسوم المحل
 ويعود حسن الروض بعد تذبل
 نحو الشقيق الوالد المتفصل⁽⁴⁾

-
- (1) في الأصل : سوق «وهو غل بالمعنى» . والمقصود : الرحيل الى بلاد
 أحبابه وأقاربه ليلاً . ولعل الصواب ما أثبتناه .
- (2) في الأصل : تعثرى «وهو يخالف للوزن وغل بالمعنى» .
- (3) يعني احتلال البلاد الزبانية من طرف بني مرين .
- (4) تفصل : تمزق وتقطع عضوا عضواً ، يعني من شدة الحزن والأسى .

أعني أبا يعقوب مولانا الذي
من آل زيان الكرام نتاجه
من نجله موسى الذي هو لم يزل
ثم الصلاة على النبي المصطفى

نرجو رضاه وهو غاية من يلي
ياقوتة في وسط سلك مجتبل
بين الخلائق كالسماك الأعزل
ما دام سلطان القديم الأول

2 — جرت أدمعي (1)

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم
وقفت بها مستفهماً (2) لخطابها
وسرت على جون أقب مضمهر
وجلّت بطرف الطرف في عرصاتها
وصفقت ما بين الطلول خوامسي
وقلت لصحي لا تمّلوا من السرى
سلوا ساكنات الحي (4) أين تحملوا
ديار عهدناها بها الشمل جامع
وكم ليلة بات السرور مساعدي
فعادت رسوم الدار بعد أنيسها

لما شحطتها من هبوب الرواكم
وأى خطاب للصلاد الصلادم
كلمعة برق أو كلمحة صارم
كجولة واه أو كوقوفه هائم
وفاضت سواقي الدمع مثل الأراقم
ولا يزدريك في السرى لوم لائم (3)
فقد عيل صبري بين تلك المعالم
مع الغانجات الآنسات النواعم
بسعدى وسلمى والمنى أم سالم
هشياً ولا تخفى بقايا المراسم

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة بعد أن قام بحركته الموفقة ، ودخل
تلسان أول ربيع (760 هـ) وهي من بحر الطويل ، ووزنها : فمعلن
مفاعيل فمعلن مفاعيلن .

(2) وفي زهر البستان : مستغرباً .

(3) نفسه : ولا تزدريك اليوم لومة لائم .

(4) نفسه : فسل سامرات الحي .

وكم نسجتها من جنوب وشمال
كافي بهم والله يوم تحمّلوا
قطعت⁽²⁾ الفيافي بالقلاص وإنما
وقد خلتها بين الرياح زوابعاً
مكحلة الأحداق فيها هشاشة
ومعها أسود الحرب تطوي بها الفلا⁽³⁾
وخضت الفيافي فدفا بعد فدفا
وكم ليلة بتنا على الجذب والطوى
على متن صهال أغر محجل
تسرّبت كردوسين من آل عامر
رجال اذا جاش⁽⁵⁾ الوطيس تراه
وجبت الفيافي بلدة بعد بلدة

وكم سجعتها من لغات الحمام
وحادي النوى يحدو بذات المباسم⁽¹⁾
تجّاب الفلا بالحف أو بالناسم
تسابق في البيدا ظليم النعمائم
مهملجة الأطراف سود المباسم
يرون المنايا بعض تلك المغائم
لنيل⁽⁴⁾ العلى والصبر إذ ذاك لازمي
نراقب نجم الصبح في ليل عاتم
مديد الخطى لم يخش صعب الصلادم
ومن آل ادريس الشريف بن قاسم
أسود الوغى من كل ليث ضارم
وطوعت فيها كل باغ وباغم

(1) وفي واسطة السلوك : هوادي الرواسم والرواسم الابل التي تنسج مشياً شديداً .

(2) وفي زهر البستان قطعنا .

(3) نفسه : السرى .

(4) نفسه : لطلب ، وفي واسطة السلوك ، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر : لقصد .

(5) زهر البستان : هاج .

وجئت لأرض الزاب تذرف أدمعي⁽¹⁾

لتذكّر أطلال الرسوم⁽²⁾ الطواسم

وشبكت عشري⁽³⁾ فوق رأسي فلم أجد

بها مخبراً غير الربى والمعالم

وجاوزتها ما بين هوج هجائن رقاق الهوادي⁽⁴⁾ عاليات القوائم

وجزت بأرض ريغ راغت بأهلها بيلقعة قفر قفتها عزائي

سالت ربوع الدار فيها⁽⁵⁾ فلم أجد بها معلماً يأتي إلي بعالم

شدت عرى للنجع من كل جانب وصيرتها مثل الرياح الرواكم

تخيلتها مثل القطا في سيرها وفوق ذراها كل شهم وحازم

وحفت بنا الإبطال من كل جانب يذكرها عهد الهوى بالصامم

وجئت لواجلاً وجزت مصابها ولا مخبر غير الصلاد الأعاجم

ومازلت أطوي سهلها وأكامها⁽⁶⁾ وأحطمها بين الربى والهضائم

قطعت الحمادى والسراب غدورها على هيكल عبل الذرا عين هاجم

مكر بيوم الحرب لا يشتكي الونى مفر اذا طالت عظام الهزائم

(1) زهر البستان : فاضت مدامعي .

(2) وفي بغية الرواد : الربوع .

(3) وفي زهر البستان : شعري .

(4) نفسه : العوالي « والهوادي ج هادية وهي عنق الناقة » .

(5) نفسه : يوماً .

(6) نفسه : أطوي سيرها بأكامها :

الى أن بدا لي واد زرقون أزرقاً وبانت عليه شاجبات الغياهم
طرقت برأسي واستفزيت بالكرى (1)

وكم من ليال بتّها غير نائم وجددت في طلب السرايا مسربلاً
وكم من فياف (2) قد قطعت اكامها بسير حثيث أو سرى متداوم
وبين ضلوعي زفرة مستكنة وكم نسمة جادت عليها نسائي
وبتنا نسوق النجع في غيب الدجى يصعدها فيض الدموع السواجم (3)
الى ملل ملنا وما ملت السرى وخرصاننا فيها كشهب عواتم
ولما بدا لي غيب (4) القوم ظاهراً سرايا ركاب كالقسي السواهم
جبدنا مجاذيباً وجدت جيادها وحيهم بين الظلال الغياهم
وضمر عناجيج على صهواتها وجات كما العقبان بين السقام (5)
نطاردها فيها الخيل بالخيل مثلها كرام سماح (6) بالنفوس الكرائم
فكان على الأعداء كر الهزاعم

(1) هكذا في جميع المصادر ، والمقصود : استفززت بالكرى ، أي استخففت ، ولعله قال : استفزيت ، لاجل الوزن .

(2) وفي بغية الرواد : بلاد .

(3) وفي زهر البستان ورد هذا البيت كما يلي :

وكم زفرة تملو من القلب صاعداً جواها وكم دمع على الخد ساجم .

(4) وفي بغية الرواد : منزل (والغيب هنا السواد من الخيل) .

(5) كذا في واسطة السالك وزعر البستان وسائر مخطوطات بغية الرواد .

(6) وفي زهر البستان : مجهود .

حملنا عليهم حملة ⁽¹⁾ مضرية فولوا شراداً مثل جفل النعائم
 فولت سويد ثم خلت مجيرها وشيخ حماها في لجوج المصادم ⁽²⁾
 وكم خلفوا ما بين بكر وبكرة وكم ⁽³⁾ عادة ملتفة في الهدائم ⁽⁴⁾
 وكم قبة طاحت وطاح أميرها
 على الأرض ما بين الصفا والوثائم ⁽⁵⁾
 وجالت خيول للحجاز ⁽⁶⁾ كأنها
 عقاب تمطى بين فرق الحمام
 فحاز الثنا فيها سقير بن عامر كما حاز من قبل ذياب بن غانم ⁽⁷⁾
 وطاحت على وادي ملال هشائم
 من القوم صرعى للفسور القشاعم ⁽⁸⁾

-
- (1) وفي زهر البستان : شدة عليهم شدة .
 - (2) بغية الرواد : في الثرى أي جائم .
 - (3) في بغية الرواد : ومن .
 - (4) نفسه : بالهدائم .
 - (5) في واسطة السلوك : الرثائم ، وفي زهر البستان الزنائم وكل المفردتين غير مناسبة لفعل الصواب ما أثبتنا (والوثائم جمع وثيمة وهي الحجارة)
 - (6) كذا في واسطة السلوك . وفي زهر البستان : للحجازي .
 - (7) سقطت هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة في بغية الرواد .
 - (8) وقد ورد هذا البيت في زهر البستان كما يلي :
 وطاحت هباشيم على الأرض طعمة بوادي ملال للفسور القشاعم .

فكانوا⁽¹⁾ الى الطير الغشيم⁽²⁾ فرائساً

وكانت على الأعداء شؤم الذمائم

وهبت رياح النصر من كل جانب وجاءت الينا مبهمات الغنائم

ولما قضينا الأمر في الحرب منهم رحلنا بعون الله نحو المعالم⁽³⁾

وخضراء كبود تبدت هضابها وهبت رياح عاطرات النواصم

درجنا الى درج ولاحت بشائر بهلك الأعداء التاعسين الأشائم

ألا أيها الناعي البشير الذي نعى أمير مرين حزت أسنى المقاسم

لقد قرب الله البعيد بهلكه فبشراك بالخيرات يا خير قادم⁽⁴⁾

ولاح لنا فرتون فافترت المنى الينا ابتساماً للشغور⁽⁵⁾ البواسم

وصارت أسود الغاب تأتي مطيعة وعادت لنا الأيام مثل المواسم

قطعنا الثنايا والخيس مسربل صلاصله مثل الرياح القواصم

وعجنا وعرجنا على واد يسر وجزنا الخاض كالليوث الضراغم

(1) وفي بغية الرواد ، فكانت .

(2) وفي واسطة السلوك : الغشيم .

(3) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .

(4) سقط هذان البيتان في بغية الرواد .

(5) وفي زهر البستان وواسطة السلوك : بالشغور .

وفي يسر آمالنا يسرت لنا فجددت (1) للأوطان فيها عزائمي
وبتنا وبات النوم غير مساعدى واني على جد السرى جد عازم
وسرنا ضحى والنصر يهفو أمامنا برايات سعد فوقنا كالغمام
قدمنا وكان الفتح يرجو قدمونا وكان على الأعداء شر المقام
وصفوا صفوفاً ثم صفت صفوفنا وسالت دموع القوم مثل العنادم
وجالت ليوث الحرب بين صفوفها وخطبها الخطي بين الحلاقم
ولاح شعاع الهند بين خميسها كبرق تبدى بين درج الأراقم
سمونا إلى (2) اصططيف (3) واشتد بيننا

حروب تشيب الرأس قبل الفطائم
كررنا عليهم كرة بعد كرة

وقد سمرت (4) للحرب نيران جاحم
بضرب يزيل الهام عن مستقره وطعن مضى بين الكلى والحيازم
فهذا أسير صفدته يد الوغى وهذا قتيل في عجاج المصادم
فطوبى لعبد الواد عند ازدحامهم لقد جدلوا في الحرب كل مزاحم

(1) وفي واسطة السلوك : وجرحت ، وفي زهر البستان : وجددت .

(2) وفي بغية الرواد : علونا على .

(3) وفي بعض النسخ : الصفصيف (وهو النطق الحالي لاسم هذا النهر الصغير الذي يسيل قريباً من تلمسان) .

(4) وفي بغية الرواد : شعلت .

وجالت خيول العامرية فوقها⁽¹⁾

أسود⁽²⁾ الشرى في موجهها⁽³⁾ المتلاطم

وعاد شعاع الشمس في الجو أصفراً

وجال ذباب السيف بين الغلاصم

جعلنا كراديساً على كل ربوة وطالت رقاب الأسد تحت العمام

شدنا عليهم شدة بعد شدة فولّوا فراراً والتجوا للمعاصم⁽⁴⁾

وداروا بأسوار المدينة كلها

كدور سوار فوق أبي المعاصم⁽⁵⁾

وقد برزت من خدرها كل غادة درجن على الأسطاح درج الحمام

وقد عاد ذاك الجمع منهم مكسراً يجمع لنا بين الكتائب سالم

فراحت مرين الصلح بعد فرارها وقد ظلموا عهداً ولست بظالم

فلا صلح حتى تضرم الحرب نارها وتساقط الأبدان تحت الجماجم

وتغلى من الأعداء دار عهدها مع الأنسات⁽⁶⁾ الناعمات الكرائم

(1) وفي بغية الرواد : عندها

(2) نفسه : كأسد .

(3) وفي زهر البستان : بحرها .

(4) هذا البيت ساقط في زهر البستان .

(5) وفي زهر البستان : حسن

(6) نفسه : الفانجات .

دخلت تلمسان التي كنت أرتجي كما ذكرت في الجفر أهل الملاحم ⁽¹⁾
فخلّصت من غصّابها دار ملكنا وطهرتها من كل باغ وجارم ⁽²⁾
لقد أسلموها عنوة دون عدّة لقد طلقوها بالقنا والصوارم
ولم يغنهم ما شيّدوا من معاقل ولم يجد هم ما حصّنوا من معاصم
ولا كثرة الجيش اللهم ولا الظبى ⁽³⁾

ولا ما أعدّوا من قسيّ سواهم
إذا لم يكن للمرء سعد مساعد فما يغنه عد ⁽⁴⁾ الجيوش الخضارم
نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه وكم بات نهبا شمله دون ناظم
شددناله أزرأ وشدنا بناءه يا وثق أركان وأقوى دعائم
فصارت ⁽⁵⁾ ملوك الارض تأتي مطيعة الى بابنا تبغي التماس المكارم
وجاءت لنا من كل أوب ووجهة تبايعنا طوعاً وفود العمام
أنا الملك الزابي ولست بزابي ولكنني مفني الطغاة الاعاظم ⁽⁶⁾
إذا ما أتت من بعد ستين سبعة نبسّد مرينا كل طاغ وجارم

(1) وفي زهر البستان : كما ذكروه في كتاب الملاحم .

(2) نفسه : ظالم .

(3) وفي واسطة السلوك وزهر البستان : مدرعا .

(4) كذا في بغية الرواد ، وفي زهر البستان : فما يغن تعداد ؛ وفي واسطة السلوك : فما يغني اعداد .

(5) في زهر البستان : فعادت .

(6) وفي بغية الرواد : الطباطم .

واني لفنيهم ومفني جموعهم وهادم ما قد شيدوا من معاصم (1)
سطيح وشق (2) خبروا في جفورهم (3)

بذلك حقاً تحت حسن التراجم (4)

فقمنا بأمر الله في نصر دينه وفي كف ما قد احدثوا من مظالم
فله منا الحمد والشكر دائماً وصلى على المختار من آل هاشم

(1) كذا في واسطة السلوك ، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، وفي
زهر البستان : معالم .

(2) سطيح : كاهن عاش في الجاهلية ، والشق اسم عرافين عاشا
كذلك قبل الاسلام .

(3) يعنى الكتب التي سجل فيها مؤلفوها أخبار العصور القادمة .

(4) سقطت هذه الابيات الثلاثة من بغية الرواد ، ومن واسطة السلوك
(النسخة المطبوعة) .

3 - دمع ينهل من المقل⁽¹⁾

<p>لقبيح كان من العمل فالقلب لذلك في شغل وتولّى الصبر فما حيلي ركبت نفسي طرق الزايل والذنب تكثر من خلي دمعي درر برني علي هلا نظرت ما يصلح لي وقد اشتها ، والأمر جلي لمن الملجا ، بارت⁽³⁾ حيلي</p>	<p>دمع ينهل من المقل وجوى في الصدر له حرق ونهيت النفس فما ازدجرت⁽²⁾ ناس ركبوا التقوى ولقد أبأذني الوقر فما سمعت ليلي سهر يومي فكر نفسي ضجرت لما افتكرت اتمي كثيرا ، شدي ظهرا في القلب شجا ، كيف المنجى</p>
--	---

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة في أول امارته ضمن فيها حسن نواياه وما يتعلّق به من خلال حميدة ومزايا تجعله صالحاً للملك وتعود بالفوائد الجمة على رعيته: والقصيدة من بحر المتدارك ، ولم يذكرها صاحب بغية الرواد .

(2) في واسطة السلاوك : فما قبلت .

(3) وفي زهر البستان : حارت .

من ينقذني من يسعدني
 الا مولى ، يسدي الطولى
 منشي الرمم ، معطي القسم
 أحيا وأعاد قبيل أبي
 أحياها بي ، وباعراي
 بي أحياها ، بي أنشاها
 الله قضى ، والحكم مضى
 فله الشكر وله الأمر
 حملني الملك ومن يقوى
 إلا بمعونة خالقنا
 أحمي المظلوم وأنصره
 أنزلت (4) الناس منازلهم
 وأنا (5) للطفل كوالده
 والرفق كذلك من شيمي (6)

من يرحمني من يغفر لي
 ربي الأعلى ، شافي علي (1)
 بارى النسم ، يحيى الدول
 من عبد الواد أولي الأسل (2)
 وأنا الزابي ، والدولة لي
 لي أعطاه ، أزل الأزل
 ولنا فرضا ، فدعوا عذلي
 منه النصر ، لا من قبلي
 يحمل ما فيه من الثقل ؟
 مولى النعماء وخير ولي
 وأقيم الحق على عجل (3)
 وتركت الظالم في وجل
 وأسوق الشيخ على مهل
 والعدل به أعطى أملي

-
- (1) وفي واسطة السلوك : يحيى الدول .
 (2) هذان البيتان ساقطان في واسطة السلوك .
 (3) في واسطة السلوك : بلاميل .
 (4) وفي زهر البستان : نزلت .
 (5) وفي واسطة السلوك : أحنو .
 (6) وفي زهر البستان : شيمتي .

وأنيل القاصد حاجته
وأنا للحرب كعنترها
خيلي للخير ملجمة
وأنا موسى وأبو حمو
سيفي إن صلت بقائمه
وكذا كفّاي إذا انبسطت
أهل تلمسان بدولتنا
تفنى الدنيا ومحبتهم
ولقد بذلوا في خدمتنا
فلهم منا عدل وندي
فبفضل الله ومنّته (5)
وأنا أرجو من رحمته (6)
بعناية أحمد سيدنا
مُبدي الإسلام ومظهره

وأنيل المال بلا ملل
وأنا في السلم أخو جدل
وكذا للحرب (1) ولا تسل
أصلح للملك ويصلح لي
أدني المُرّاق الى الأجل
من كان مقلّا عناد ملي
كالشمس لدى برج الحمل
فينما وحياتك لم تحل (2)
أقصى الغايات بلا كسل (3)
ولهم منا (4) أقصى الأمل
أرشدت إلى أهدي السبل
أن يغفر لي يوم الخجل
وهو المبعوث الى الملل
علم التقوى خير الرسل

(1) وفي واسطة السلوك : للشر .

(2) وفي زهر البستان : فينا أبدا ما ان ترحل .

(3) نفسه : بلا مثل .

(4) وفي واسطة السلوك (النسخة المطبوعة) : ولنا منهم .

(5) وفي زهر البستان : ورحمته .

(6) نفسه : ومنّته .

4 - كتمت حبي⁽¹⁾

كتمت حبي فافشى الدمع كتمانى وزاد شوقي على قيس وغيلان
يا جيرة الحبي إني قد فتننت بكم كم تهجروني كاني مذنب جاني
ناديتهم ودموع العين هامية⁽²⁾ بأي ذنب رضيت اليوم هجراني
يا فتنة القلب كم لي في هواك وكم⁽³⁾ أطلت هجري وحالي صار ضدان
الماء والنار تشكو من فراقكم وحبكم قد رمى قلبي بنيران

(1) لم ترد هذه القصيدة في بغيّة الرواد وفي النسخة المطبوعة من واسطة السلوك ، والظاهر أن أبا حو نظمها اثناء مقاومته للخطر المربني ومحاولته إخراج جنودهم من المراكز التي كانوا لا يزالون يحتلونها ، والغالب على الظن أن تاريخ نظم هذه القصيدة يقع في الفترة التي تلت محاولة أبي سالم المربني للاستيلاء على تلمسان ، أي حوالي صفر (762 هـ) ، بعد عودة أبي حو من حركته الى الشرق لمطاردة أبي زيان القبي وأنصاره ، أو في شهر شوال (762 هـ) ، بعد استيلائه على وهران ، انظره ، فيما قبل ، ص 100-105 ، وهذه القصيدة من بحر البسيط ، ووزنه ، مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن .

(2) وفي واسطة السلوك ، المخطوط المذكور سابقاً : هامة .

(3) نفسه : كم لي لا أو اصلكم .

كم تهجروني وهجري لا يحل لكم
 وإن عزمتم على بعدي فوا أسفا
 يا أحسن الناس ما لي عنك مصطبر
 أنا جلبت الهوى حتى بليت به
 نازعت عيني على ما كان من نظر
 مهما نظرت إلى شيء أراقبه
 وهذه حالتي يا جبرتي ولكم
 إني فتنن بذات الخال يا خولي
 يا قرة العين كم ترضى تفارقتي
 رقت⁽²⁾ لحالي وما قد بان من شغفي

واعطفت بعد ذاك الهجر سلواني
 قالت : وحق هواك اليوم ما نظرت

عينك عيني إلا ذبت من شاني
 الحب من شيمتي⁽³⁾ والوجد معرفتي

والصبر نافلتي يا آل زيات
 إني شغفت بكم منذ زمان مضى
 وأنت لم تدر ما قد كان أجفاني
 رقت حشاشة قلبي من هواك⁽⁴⁾ وقد
 تضاعف السقم في روحي وأبداني

(1) وفي واسطة السلوك : الفاني .

(2) نفسه : رثت .

(3) نفسه : شيمي .

(4) نفسه : هواكم .

إني وحق حياة الحب ما اكتحلت
ولا شغفت بحسن غير حسنكم
ولا شربت لذيد الماء من عطش
ولا جلست إلى قوم أحدثهم
إن كنت مثلي فنعم الحب منقسماً
ضممتها حين زارتني بيهجتها
بتنا وبات نعيم الدهر يأنسنا
ولا رقيب ولا واش يطوف بنا
من كل غانية رقت⁽¹⁾ شمائلها
وكل عاطرة فاحت نواسمها
همُ سبوني وكم أسبوا الذي خطر
قد كان فيما مضى قلبي وإن جهلت

مولى حباب⁽²⁾ وكسرى نوشروان
ذلت لعزتنا أسد الوغى ولقد
كم من كريم وكم من ماجد بطل
أفنى الغرام وكم من عابد عان

(1) وفي واسطة السلوك : رافت .

(2) كذا في الاصل . والمقصود من قوله : مولى حباب (حبابة) يزيد بن عبد الملك الذي احب جاريته حبابة ومات من جراح حبها . وقد أورد أبو حمو قصيدته هذه في كتابه «واسطة السلوك» ليبين خطر الحب على الملوك ، وضرورة اتقائه والاجتهاد في ترك حياة اللهو والترف .

يالاثمي في هوى الغزلان لا تلمن فما خلا من هواهم قلب إنسان
وهذه صفتي⁽¹⁾ يا عاذلي وكفى إن الملام قد أعيأك وأعياني
ولا جعلت بنات الحي من شغلي حتى شغفت بقدر البيض والزان
وقد ألفت من الهيجاء عاطلة تشب يوم الوغى والحرب نيران
وكم سقيت كؤوس الموت⁽²⁾ صافية

وقد حميت بحمد السيف أوطاني
وكم قهرت عدوآ ظالما غشما يوم اللقاء بأطعمان وأطعمان⁽³⁾
وكم⁽⁴⁾ عمرت دياراً قل عامرها وقد جعلت ديار الانس عمرات
وقد أقت⁽⁵⁾ رسوماً قبل ناصرها يوم الهياج وكل الناس عاداني
حتى ظفرت بشيء كنت أطلبه فالحمد لله في سر وإعلان
نعم ولا بد لي من أخذ أرضهم بالرهفات وجرد تحت عقبات
حتى أروي سيوفي⁽⁶⁾ من دماهم ري الحجيج إذا حلت بحسيان⁽⁷⁾

(1) كذا في واسطة السلوك (المخطوط). وفي زهر البستان : قصتي..

(2) كذا في واسطة السلوك (المخطوط). وفي زهر البستان : وقد سقيت
كؤوس الماء .

(3) وفي واسطة السلوك (المخطوط) : بأطعمان وأطعمان .

(4) نفسه : وقد .

(5) كذا في واسطة السلوك (المخطوط) ، وفي زهر البستان : حييت .

(6) كذا في المصدرين ، ولعل الصواب أن يقال : حق أروي سيفي .

(7) وفي واسطة السلوك (المخطوط) ، بفيلان (والفيل : الماء الجاري على
وجه الأرض).

وتسقط الهام والألباب طائشة والخيل عارية من غير فرسان
والبيض تضرم نار الحرب إن خمدت

والسمر (1) مثل شهاب إثر شيطان
والخيل عابسة كلّت فوارسها والأرض كاسية ثوباً كعقيان (2)
فما ترى غير أبطال محدلة ما بين سهل وأهضاب وكثبان
والأرض هامة والأسد داهشة

والبيض ضاحكة تزهو على الزان (3)
هناك نحمي حماها عندما اشتعلت والأسد ما بين سكران ونشوان
ونضرم الحرب صدمات يكل لها أسد (4) الحروب ويغمر بن زيان
وناخذ الثار من قد نأى ودنا ويرجع الشرق بعد الغرب ديواني

(1) وفي زهر البستان : والشمس .

(2) وفي واسطة السلوك (المخطوط) : والارض كاسية من لون مرجان .

(3) نفسه : والسيف ضاحكة تزهو على البان . «الزان شجرة تصنع

منها القسي» ، وتطلق هنا على القوس .

(4) وفي زهر البستان : ليث .

5 - تذكرت أطلال الربوع الطواسم⁽¹⁾

تذكرت أطلال الربوع الطواسم وما قد مضى من عهدها المتقادم
وقفت بها من بعدُ بعد أنيسها بصبر مناف أو بشوق ملازم
تهم⁽²⁾ بمغناهم وتندب⁽³⁾ ربيعهم وأي فؤاد بعدهم غير هائم
تحن إلى سلمى ومن سكن الحمى وما حب سلمى للفتى بمسلم⁽⁴⁾
فلا تندب⁽³⁾ الأطلال وأسأل عن الهوى

ولا تغل في تذكر تلك المعالم
فان الهوى لا يستفز ذوي النهى ولا يستبى إلا الضعيف العزائم
وكل فتى أعطى الغرام قياده وبات على ضم فليس بحـازم
فما⁽⁵⁾ فاز بالعليا سوى كل ماجد مشمر ساق الجد⁽⁶⁾ ماضي العزائم
صبور على البلوى طهور من الهوى قريب من التقوى بعيد المآثم

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة في أول ذي الحجة سنة (762 هـ) ،
وقد شرح الظروف التي نظمها فيها في كتابه «واسطة السلوك» .
انظر فيما قبل : مختارات كتاب واسطة السلوك ، ص 249 - 251
- وهي من بحر الطويل .

(2) وفي بغية الرواد : أهم :

(3) نفسه : أندب .

(4) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .

(5) وفي بغية الرواد : وما .

(6) نفسه : العز .

ومن يبيع درك العلوات (1) ونيلها
ولائمة لما ركبنا الى العلى
تقول بإشفاق أتئسى هوى الدمى (3)
اليك فانا لا يرد اعتزامنا
ألم تدر أن اللوم لؤم واننا
فما بسوى العلياء ههنا جلالة
بروق السيوف المشرفيات والقنا
وأحسن من قد الفتاة وخدها
وأما صهيل السابحات لدى الوغى
إذا نحن جردنا الصوارم لم تعد
نواصل بين الهند والهام (5) والطفى
فيرغب منا السلم كل محارب
نقود (8) إلى الهيجاء كل مضمر

يساو بحلو الشهد مرّ العلاقم
بحار الردى في لجها (2) المتلاطم
وتنثر درأ من دموع سواجم
مقالة باك أو ملامة لائم
لنجتنب اللؤم اجتناب المحارم
إذا هام قوم بالحسان النواعم
أحب الينا من بروق المباسم
قدود العوالي أو خدود الصوارم (4)
فأشجى لدينا من غناء الحمائم
لاغمادها الا بحز الغلاصم
بتفريق ما بين الطلى والجماجم (6)
ويرهب منا الحرب كل مسالم (7)
وتقدم لإقدام الأسود الضراغم

(1) وفي بغية الرواد : ومن يبيع إدراك المعالي.

(2) وفي زهر البستان وبغية الرواد : لجة :

(3) وفي واسطة السلوك (المخطوط) : الدنى .

(4) هذا البيت ساقط في زهر البستان .

(5) هذه الكلمة غير واضحة في المخطوط ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

(6) لم يرد هاذان البيتان الا في واسطة السلوك (المخطوط) .

(7) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .

(8) وفي واسطة السلوك : نعد .

وما كل من قاد الجيوش إلى العدى
 وتنصر مظلوماً ومنع ظالماً
 ويأوي اليأس المستجير ويلتجى
 ألم تر إذ جاء السيِّع قاصداً
 وذلك لما (2) أن جفاه صحابه
 وأزمع ارسالاً اليأس رسالة
 وكان رأى أن المهامه بيننا
 وقال ألا هل من عليم (5) مجرب
 فيبلغ عني الآن خير رسالة
 على ناقة وجنأ كالخرف ضامر
 من اللأ يظلمن الظليم اذا عدا
 يعود إلى أوطانه بالغنائم
 إذا شيك (1) مظلوم بشوكة ظالم
 ويحميه من كل ليث ضارم
 إلى أبنا ينبغي التماس المكارم
 وكل خليل وده غير دائم
 باخلاص ود (3) واجب غير واجم
 فخلى لذات (4) الخف ذات المناسم
 أثبت له ما تحت طي الحيازم
 تؤدي الى خير الملوك (6) الأعظم
 تخيرتها بين القلاص الرواسم
 ويشبهه في جیده (7) والقوائم

(1) وفي زهر البستان : شك .

(2) وفي بغية الرواد : بما

(3) نفسه : بود جديد .

(4) وفي واسطة السلوك : بذات .

(5) نفسه : وقال لامري من حليم .

(6) وفي بغية الرواد : الى خير أعلام الملوك .

(7) وفي واسطة السلوك : في جريه .

إذا اتلعت (1) فوق السحاب جرائنها (2)

تخيلتها (3) بعض السحاب الرواكم

وان هملجت بالسير في وسط مهمه
ولم يأمن الخلان بعد اختلاهم
فقالوا فحملها الحائم قال لا
وما القصد الا في الوصول بسرعة
فقال لنعم المرسلات وإنما
كتابي (6) زهر في كرائم طرسه
فلم يلف فيها للامانة موضعا
فحينئذ وافى الينبا بنفسه
يجوب لنا البيداء قصدا (7) وبشرنا
طلاب العلى يسري مع الوحش في الفلا

ويصحب منها كل باغ وباغم (8)

(1) وفي واسطة السلوك : اتلعت (وأتلعت الناقة في سيرها : مدت عنقها متطاولة).

(2) كذا في المصدرين : وجران البعير عنقه .

(3) وفي واسطة السلوك : تجلى (وهو نخل بالوزن) .

(4) هذه الابيات الثلاثة ساقطة في بغية الرواد .

(5) هاذان البيتان ساقطان في زهر البستان .

(6) وفي بغية الرواد : وكتبي .

(7) نفسه : طوعاً .

(8) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .



بعض اللطائف للسيرة خير من الملهمة

على سلهب ذي صهوتين مطهم
إذا شاء أي الوحش أدركه به
ويقدمه طوعاً⁽²⁾ إلينا رجاؤه
إلا أيها الآتي لظلل جنبنا
وقوبلت منا بالذي أنت أهله
كذا دأبنا للقاصدين محلنا
وهذا جواب عن نظامك اننا
ونحن ذوو التيجان من آل هاشم⁽⁴⁾
بهمتنا العليا سمونا إلى العلى
شدنا بها⁽⁵⁾ أزرا وشدنا بناءها⁽⁶⁾
نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه

من المقربات الصافنات⁽¹⁾ الصلادم
فتحسبه في البيد بعض النعائم
حمایتنا إياه من كل ظالم
نزلت برحب في عراض المكارم
وقاض عليك الجود فيض الغنائم
حمى وندى ينسى به جود حاتم
بعثنا به كاللؤلؤ المتناظم⁽³⁾
لعمرك ما التيجان غير العمام
وكم دون ادراك العلى من ملاحم
وكم مكثت دهرًا بغير دعائم⁽⁷⁾
وكم بات نهبا شمله دوت ناظم

(1) وفي بنية الرواد : من الصافنات المقربات .

(2) نفسه : حبا .

(3) هذا البيت ساقط في بنية الرواد .

(4) وفي واسطة السلوك : حنير .

(5) في بنية الرواد : له؛ وفي زهر البستان : لها .

(6) في بنية الرواد : بناءه .

(7) نفسه : بأوثق أركان وأقوى دعائم .

ورضنا جياذ⁽¹⁾ الملك بعد جماحها فذلت وقد كانت صعاب الشكائم⁽²⁾
مناقب زيانية موسوية يذل له عز الملوك القماقم
يقصر عن ادراكها كل مبتغ ويعجز عن احصائها كل ناظم⁽³⁾
فله منا الحمد والشكر دائماً وصلى على المختار من آل هاشم
ويختصكم منا السلام الأثير ما تضاحك روض من بكاء الغمام⁽⁴⁾

الرثاء

-
- (1) في زهر البستان : جياح ؛ وفي واسطة السلوك ، عياذ ، ولعل الصواب ما أثبتنا .
(2) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .
(3) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .
(4) كذا في واسطة السلوك ، وفي بغية الرواد وزهر البستان : عن .

6- السيف أجدر والخطي من خطب (1)

السيف أجدر والخطي من خطب	فيها اللجاج وقول غير منتسب
خط الكتائب لا خط الكتاب بها	جلية الامر عند السمر. والقضب
والحق فرض على الانسان مفترض	والصدق أفضل ما أودعت في الكتب
ومن غدا السيف في كفيه عارية	فكيف يدرك ما يرجو من الارب
فكم تحاول أمراً ليس تدركه	تخطي الطريق وكم ترمي فلا تصب
قد خنت من بعد أيمان مؤكدة	وتلك عادتكم في سالف الحقب
وكم تجيب لداعي الغي مبتدرا	وان دعوتك يوم الحرب لم تجب

(1) ذكر يحيى بن خلدون الظروف التي نظم فيها أبو حمو هذه القصيدة وذلك أن أبا حمو قام بغارة على الناحية الشرقية من المغرب الأقصى وخصوصاً في ناحيتي دبدو وجر سيف ، في أواخر سنة (766 هـ) وكانت الدولة المرينية آنذاك تعيش في جو فتن واضطرابات ، وكان السلطان أبو زيان المريني تحت سيطرة وزيره عمر بن عبدالله اليباني وفي هذه القصيدة يخاطب أبو حمو الوزير المريني عمر بن عبدالله. عن غارة أبي حمو المذكورة انظر بغية الرواد ، ج 2 ص 155 - 156 كتاب العبر ، ج 7 ، ص 266 - 267 ، انظر كذلك كتاب الاستقصاء ، ج 4 ، ص 50-52، والقصيدة من بحر البسيط .

فانصب إلى الحرب ميداناً تشيب له
قدمت طائر كالمشؤوم أن له
أخطأت في رأي من خابت روايته
تخوض بجرأ ولا تخشى عواقبه
عاندت ويحك من أعطاه خالقه
ومن يعارض بأمر الله معترضاً
أيمنح المرء والقهار يمنعه
كم غاصب قبلكم قد عاد منتهاها
من رام ادراكنا رام المحال ولا
كم رام غيركم ما رمتموه فما
جرتم على الله في أحكامه ولقد
هتكت ستر مريم طالما ستيروا
تعمدا جرءة اخليت دارهم
فلا يفرك ما قد كان من لعب
لما دعوت على بعد اجبتكم
وقد نهضت بعون الله متكلا
بعسكر لجب ضاق الفضاء به
عرمرم زاخر فاضت مواكبها
من كل ليث شجاع فارس بطل
على سوابق خيل ضمير عرب

سود الذوائب بين الحرب والحرب
دلالة ظهرت في منزل خرب
حتى اقتحمت الردى من غير ما سبب
وليس تسلك لج البحر بالنجب
ومن ساذكره في العلم والكتب
يخسر ويصبح على بحر من التعب
أو يوهب الأمر والوهاب لم يهب
وطالب خاب والمطلوب لم يخب
ينجو من السيف من قد لج في الحرب
نالوه وانقلبوا في سوء منقلب
قطعت الدهر بين اللهو واللعب
قتلت مالكم غدرأ بلا سبب
ولم تدع لبني الاملاك من عقب
شمر لزارك جاء الحق فارتقب
وقد دعوتك من قرب فلم تجب
على الاله ومن يرجوه لم يخب
كالبحر أعظم به من عسكر لجب
كانه سحب أربت على سحب
حامي الدمار من الأعجام والعرب
تزهى بحليتها كالخرد العرب

من أحر عسجديّ اللون مذهبه
وأدهم متنه ليل وغرّته
وأشهب كشهاب إن رميت به
فالحر من فلق والشقر من شفق
تشن غاراتها في كل منهلة
بها ووطننا بلادا لا سبيل لها
حيث الهوارج والبوجات مشرقة
وافت بنو عامر من كل ناحية
جاءت الى نصر حزب الله وأبتدرت
ومن امام عبيد الله في ام
كتائب ضاقت الأرض الفضاء بها
بحر على البر مرتجّ غواربه
ونحن تقدمهم والنصر يقدمنا
ثم ارتحلنا لتامسمت مرحلة
الى ثنية بلزوز فحين أتت
ثم ارتحلنا على اسم الله تقدمنا
حتى نزلنا على دبدو وساحته
لما بدا للعدى ألاّ نجاة لهم
تضرعوا وأتوا طوعا لخدمتنا
وقد عفونا وان العفو شيمتنا

وأشقر ك شعاع الشمس ملتهب
صبح فيا حسنه من منظر عجب
شيطان كل عدوّ في الوغى تصب
والدم من غسق والشهب من شهب
فتنشني بالذي نهواه من ارب
وما أردنا تناولناه من كشب
لاحت بمنزل رأس العين كالشهب
في خيلها العرب أو في نجعها الاشب
كالأسد تبدو عليها سورة الغضب
فاضت مواكبها بالبيد والشعب
في ظل ألوية خفاقة العذب
من فوقه قطع الرايات كالسحب
والأرض تهتز بالفرسان والنجب
وكوكب الفتح قد وافى ولم يغب
للمستراح أرحناها من التعب
طلائع الفتح في أبرادها القشب
جالت عساكرنا في السهل والهضب
ولا قرار وقد أشفوا على الشجب
بالذل والذعر خوف الهلك والعطب
ومن تردّى رداء العفو لم يخب

ونال من عفونا ما كان يأمله
ومن هناك لوينا نحو ملويه
ما كل من قاد جيش الزحف قائده
لما دعوناك من قرب فلم تجب
ثنيت عنك عنان العزم محتكما
لا بدّ من ساعة بيني وبينكم
وتكتسي الأرض ثوباً كالعقيق ولا
والخيـل جائلة والأسمـع ذاهلة
هناك تجني ثماراً كنت غارسها
ونأخذ الثار ممن قد دنا وقصا
ثم الصلاة على المختار من مضر
حمو بن زيدان⁽¹⁾ بعد القهر والغلب
وكم تركنا بها من منزل خرب
وليس يذكر غير الماجد الدرب
علمت قولك بين الهزل واللعب
بالرأي والحزم لا عجزاً عن الطلب
تغيب شمس الضحى فيها ولم تغب
تجري الجداول إلا من دم سرب
والأرض عارية من ثوبها القشب
ويحكم الدهر بالآيات والعجب
من العداة وهذا منتهى أربي
خير البرية من عجم ومن عرب

(1) حمو بن زيدان : شيخ قبيلة بني علي من بني ونكاسن ، القاطنين آنذاك ناحية جبل دبدو . وكان قبل ذلك قد تحالف مع وزمار بن عريف شيخ قبيلة سويد بالمغرب الأقصى ، ضد أبي حمو الثاني .

7 - قف بالمنازل (1)

قف بالمنازل وقفة المتردد ما بين نؤي بالطلول وموقد
واذا مررت على الربوع مسلما فاسأل عن القلب الغريب المفرد
حدث بها خبر الأسى عن مدنف بجلى الغرام موشح ومقلد
هجر السلو فما يقر قراره فيظلل حلف تاوه وتنهد
نزحت منازله وشط مزاره ونات أحبتة بغير تعمد
فغدا يكابد عبرة في زفرة للبين بين مصوب ومصعد
يا سائق الأظعان هل لي بعدهم من منجد في حبيهم أو مسعد
ركبوا بدورا في الخدور وأدلجوا فسالت توديعا فقلن الى غد

(1) نظم أبو حو هذه القصيدة أثناء تجواله في الصحراء ، عندما ترك عاصمته والتجأ بناحية تيقورارين في جنوب الصحراء ، أيام استيلاء عبد العزيز المريني على تلسان والمغرب الأوسط . وقد ضمن أبو حو هذه القصيدة ما كان يشعر به في منفاه من الام وآمال ، وما مني به من خداع أنصاره وهزيمة ، وحن ومشاق .
انظر ، فيما قبل ، ص 129-130 ، والقصيدة من بحر الكامل ولم ترد إلا في بغية الرواد .

فغرقت في دمعي وما يغني البكا
 لو كان لي يوم الفراق تخيِّرا
 تركوا المنازل بلقعا وترحّلوا
 سحبت عليها الرامسات ذيولها
 وتعوضت بالاثل بين عراسها
 ومن الأوانس بالرياض نواعما
 من بعد طول تنعم ونضارة
 وغناء غانية سبت بجبالها
 الشعر ليل فوق صبح جبينها
 ولحاظهن صوارم مسلوّة
 ومباسم كالاقحوان تخالها
 ولكم ظفرنا بالرضى من دهرنا
 نجني المنى وبنو الزمان عبيدنا
 لا نختشي في الحي رقبة عاذل
 نلنا الذي شتّنا بدهر طائل
 حتى إذا شهر الزمان سلاحه
 ورمى سهاماً للفراق كأنما
 وأرى بروق القضب في ليل الوغى
 والخيّل تعثر في طلي صرعائها
 من كل أشهب كالشهاب تخاله

ضنوا بتوديع فكيف بموعد
 لفديت ظعنهم بما ملكت يدي
 فغدت معاهدها كان لم تعهد
 من شمال وصبا تروح وتغتدي
 من بعد ذاك الزهر والورد الندي
 بالوحش يرتع في خلاء قدفد
 للعيش فيها بالحسان الخرد
 ترهى بكل مغنّج ومورّد
 يحمي لعقرب صدغها بمجمّد
 فتكت بالباب ولما تغمد
 درأ بسمط في العقيق منضد
 وأنت لنا الدنيا بوقت مسعد
 والسعد يدني ما لنا من مقصد
 كلا ولا نصغي لقول مفند
 من أنعم دامت برغم الحسد
 بيد العدى من اسمر ومهند
 كانت لشت جميعنا بالمرصد
 ذهبت بأبصار العلى والسؤدد
 ما بين مضطجع وبين موسّد
 أو أدهم مثل الغراب الأسود

أو أحمر كالورد لون أديمه
أو أصفر منهمن كالخيري في
أو أبلق حسن الحال مدثر
أو أشقر أصدى فسحرة لونه
وفوارس من فوقهن عوابس
فكانهم أسد الشرى في غايها
فيجول بين جماجم وغلاصم
ومقانب من خلفهن عساكر
من عامريّ ضيغم يوم الوغى
وزنانة من خلفنا وأمانا
وطبولنا زارت كأسد في الوغى
واصطقت الجمعان واحتدم الوغى
وجرت غشائم خاربين لحزبنا
حتى تفرّق جمعنا وتشتّتوا
فالبعض منهم قد أذى لعدونا
تقضوا العهود وخلفوني في الوغى
كفروا بأنعمنا وخانوا عهدنا
فهنالك فرسان العدى طافت بنا
ففضيتها صمصامة رومية
أوردتها علق النجيع من العدى

أو أشقر متجلجل بالعسجد
حسن معارفه كخط باليد
ومدرم ومقصد ومحدّد
سحر وغرة وجهه كالفرقد
بسلاحها من أبتر أو املد
والسيف قرع زناه لم يصلد
ويقدّ كل مدرع ومحدد
طاقت بنا من كل شهم أبجد
أو معقلي بهمة لم يرفد
من كل ليث في الحروب ممجد
وبنودنا خفقت بنصر منجد
لكنّها خبثت بسعي المرّد
من كافري نعمائنا أو جحد
بسعاة كل مضلل أو مفسد
والبعض فرّوا كالنعام الشرّد
بين الأعادي كالغريب المفرد
وأقوا من الخذلات ما لم يعهد
من كل طاغ في الوغى أو معتد
وهزرت منها منتهى ضرب اليد
نهلا وما رويّت بذاك المورد

فلكم كررت عليهم من كرامة
 من فوق ضامرة الحشا وحشية
 فكانها برق يلوح لشائم
 من خلفنا النجل الرضى متسربل
 فكانه في الخيل ليث عابس
 وإذا اثنتى نحو العداة فكم له
 من فوق أشهب ضامر حسن الحلى
 دارت بنا الأعداء فصرنا بينهم
 اثنتان كان الله ثالثنا بها
 ولكم عفا ولكم أنال تفضلاً
 يا رب كم آنستني في غربتي
 يا رب فاجبر ما ترى من حالتي
 يا نفس لا تئس وإن طال المدى
 ستعود أيام السرور وطيبها
 يا رب بالبيت العتيق وأهله
 فرج بحقك كربتي يا موئلي
 ثم الصلاة على النبي محمد

بمشط وبمقرب ومهند
 جرداء حجر نعالها كالجلد
 وكأنها نجم يلوح لمهند
 شهم اللقاء فمثله لم يولد
 يسقي الفوارس في الوغى كساردي
 من فارس فوق التراب موسد
 فكانه ريح تروح وتغتدي
 كالدرّة البيضاء بليلى أسود
 ولكم له عقد الشدائد من يد
 والله ربّي ناصري ومؤيدي
 يا رب كم فرجت كرب المكدي
 يا رب واجبر قلب كل موحد
 فالله يجمع شمل كل مبعدي
 وتعود عن قرب ليالي الأسعد
 وبجاه يثرب والنبي محمد
 وبحق فضلك لا تخيب مقصدي
 ما غرّدت ورق بغصن أملد

الرثاء

8 - دنف تذكر حسرة التوديع⁽¹⁾

دنف تذكر حسرة التوديع وهنيء وصل بالنوى مقطوع
ولما عرا من فقد خير أحبتي ومرارة التوديع والتشييع
فبكيت من أسف لذاك كما بكت حزناً عليه منازل وربعي
لم تنصف الأيام حرّ فراقه لاكنّه قد أنصفته دموعي
عجباً لأجفاني سخت بدموعها والقلب محترق بنار ضلوعي
هذي تجود وذا يشح بناره فعنيت بالمنوح والمنوع
والبين فوق سهمه ورمى به عمداً الى قلب الشجي الموجوع
آه لوصل قطعته يد النوى وحسرة الموصول والمقطوع
والدهر أفجعني وغير باطني حتى أضرب بقلبي المفجوع
فعدمت سلواني وبان تصبري وفقدت خلاني فزاد نزوعي
ولكم خشيت الفقد قبل وقوعه ولكم حذرت مرارة التوديع
يا مسعدي أبصرت ما فعل النوى بكريم قوم في التراب صريع

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة بمناسبة وفاة والده ، في شعبان (763هـ)
وقد وردت في بغية الرواد ، ج 2 ، ص 105 - 106 . وهي من
بحر الكامل .

في طي لحد بالثرى فكأنه
 والقصر أمسى ماحلا من بعده
 وغارق مصفوفة قد زينت
 ومقاصر لم يُبْنَ قط مثالها
 والأسد تخضع والملوك تهابه
 ولكم تراحت الكتاب خلفه
 ولكم عساكر قادها يوم الوغى
 من خير قوم من أجلّ عشيرة
 سبط الحسين ابن البتول وجده
 من كان هذا أصله أو فصله
 قد حاز أشات الحاسن كلها
 جود ومجد والشجاعة والندى
 فبكفه بأس وفيه رحمة
 عدل إذا يقضي وغيث إن يجد
 قد كان كهفاً للأنام وعدة
 حتى دنا منه الحمام فصابه
 ترك الجميع وصار عن أحبابه
 لو كان يعرض للقداء فديته
 وبما ملكت وناظري وحشاشتي
 قد كان لنا منه أباً ذا رأفة

ما كان في عزّ وفي ترفيع
 ومنازل تزهى بكل صنيع
 من درّها المنظوم بالترصيع
 من قبل اللاموت والمخلوع
 فلكم له من سامع ومطيع
 فيروع بأساً وهو غير مروّع
 من كل صنيعة بكل نجوع
 وأعز منتسب إليه رفيع
 خير الأنام أجل كل شفيع
 فله العلى في منزل الترفيع
 فاعجب لحسن ثنائه المجموع
 والجود في طبع له مطبوع
 قسمان بين معاند ومطيع
 وحسامه نار لكل قريع
 وحمى لمن يرجوه جدّ منيع
 سهم الردى وانبت كل جميع
 لم يغن ما قد ضمّ من مجموع
 بالدرّ ثم بعسجد مطبوع
 وبمهجتي وبقلي المصدوع
 كنّا له في البرّ جدّ مطيع

حتى رمى الدهر المشتّ بسهمه
 فاحذر زمانك لا يفرّك انه
 وكذلك الدنيا فلا تأمن لها
 ولكم غدا في أسرها من ماجد
 أين الملوك وأين ما قد جمّعوا
 ساروا فلم تسمع لهم خبراً ولم
 وأبادهم صرف الزمان وخلفوا
 لم يبق منها غير فعل صالح
 أو حبّ خير المرسلين محمد
 صلى عليه الله ما لاح الضيا
 ثم السلام عليه من مستعصم
 موسى بن يوسف مرتجيه في غد

في شملنا المنظوم والمجموع
 في شهنه ياتي بكل فظيع
 فلكم تغرّ بوصلها المقطوع
 ولكم لها من ضيغم مصروع
 من كل دخر في الحياة رفيع
 ترّ منهم أثراً يالوح بريع
 ما جمّعوا من جنة وزروع
 يلا الصحيفة أو ثنا مسموع
 شرف البرية درة الترصيع
 أو حطّت الركبان بالينبوع
 بحماه خير حمى بخير شفيع
 للفوز من هول هناك فظيع

9 - صب تذکر عهداً (1)

صب تذکر عهداً بالحمى سلفاً
 وبات من شدة الاشراف في قلق
 وهيجته الصبا يوماً بهم فصبا
 وظل يركض في ميدان مرته
 والدهر منقلب والعمر منصرف
 بانث شواهد من كل جارحة
 وكم حمامة وصل بيننا صدحت
 لا تأمن الدهر والدنيا وزينتها
 وكم خليل تخلى عن أخلته
 قد كان لي في الدنى أب يساعدي
 مددت في ظل نعماء يدي زمناً
 فظل يسكب دمعاً هاطلاً وكفا
 وخامرت عقله الأفكار فاختلفا
 وصاح من وهج التبريح وأسفا
 ولا درى أن ناعي الموت قد هتفا
 والعبد مقترف للذنب زاد جفا
 والدمع أفصح ما قد كان قبل خفى
 وكم غراب النوى في غصنها وقفا
 إن الزمان ولو يدنيك منصرفا
 وكم خليل صفا في وده وصفا
 فصار تحت الثرى في لحده اكتنفا
 ونلت من رفده في دهره التحفا

(1) أورد صاحب زهر البستان (ورقة 84و) هذه القصيدة ، وذكر أن
 أيا حو رثى بها أباه أبا يعقوب يوسف بعد وفاته في شعبان (763هـ)
 ولم ترد هذه القصيدة في غيرها من المصادر التاريخية ، وهي من بحر
 البسيط .

رعى جناني وليد غير مضطجر
 وكلما قد رأي صرت يافعة
 يا كابد الدهر في الثرى ليكسبني
 يسره إن رأي سرت في ترف
 وإن عراني ما أخشاه من دنف
 كان ذاك الذي قد ذقت من وجل
 لا غرو أنا رجال لا نفى بما
 مولاي يوسف أفجعت البنين وقد
 لو كنت تفدى ببال أو بنفس فتى
 لاهلن دموعي ما حييت وان
 يا فقد يوسف ما أبقيت لي جلدا
 ما مثل يوسف مفقود لفاقده
 أصيب بالعضل الادمى بوالده
 يا قبر يوسف لا تهدوك هامية
 حتى ترعرعت في ظل له ورفا
 لهاوسر وأسدى لي منه عرفا (1)
 ويبتني لي في نيل العلى عرفا
 ويستزيد على الأعداء بي صلفا
 بكى ورق وأضحى يشبكي لهفا
 أصابه (2) فهو يشكو ذلك الدنفا
 للوالدين علينا بالحقوق وفا
 أضحى وليدك موسى ناحبا تحفا
 فدتك نفسي ومالي كي أبي نصفاً (3)
 أبقاني العمر ترفت الدما ترفا
 يا فقد يوسف ان الصبر عنك عفا
 ولا كموسى أخو فقد اذا وصفا
 كفقد يوسف لكن حتف ذا جحفا
 من الغمام ولا زال الثرى رعفا

(1) كذا في الأصل . وهو غل بالوزن . ولعل الصواب أن يقال :
 وأسدى منه لي عرفا .

(2) لا يمكن أن يستقيم الوزن الا بزيادة كلمة في أول هذا المصراع ،
 مثل التي اثبتناها .

(3) كذا في الأصل .

يادهر⁽¹⁾ كم لك في الأحباب تفجعني
فرقتنا بعدما كنت تجمعنا
أفجعني يا زمان اليوم في خلدي
صارت مساكنهم تحت التراب وقد
الماء والنار مجموعان في كبدي
نار تشب وأكباد تذوب بها
أين الذين بنوا من قبلنا وناوا
وظنهم أن هذي الدار باقية
كم من قرين مع الأحباب مبهج
وكم غريب بعيد الدار ذي حزن
الموت باب وكل الناس داخله
والله مطلع فوق العباد وقد
وهكذا الدهر ما أوفى ولا نصفا
وقد نثرت نظاما إذ وهى الصدف⁽²⁾
ما أسرع الموت في الأحباب حين وفى
تمزق الدود ما قد كان مؤتلفا
فأعجب لضدين في قلب قد اتلفا
ويح المعذب بالجنسين يا لهفا
وشيدوا أطما واستوطنوا غرفا
ولم يظنوا بأن الدهر ساء صفا
أمسى فريدا وأضحى بدره كسفا
أضحى من الغرب يحكي اللام والألفا
والعبد يجرى بما جرى وما اقترفا
يواخذ العبد في الدنيا بما سلفا

(1) في الأصل : يادار . وهو غير مطابق لما بعده ولعل الصواب ما أثبتنا .

(2) كذا في الأصل .

الشَّعْرُ الدِّينِي
المولديات

10 — نام الأحباب ولم تنم⁽¹⁾

نام الأحباب ولم تنم عيني بمصارعة الندم
والدمع تحدر كالديم جرح الخدين فوا ألمي
وزجرت النفس فما ازدجرت⁽²⁾ ونهيت القلب فلم يرم
وندير الشيب لقد وافى وحلول الشيب من⁽³⁾ الهرم
والعمر توّلى منصرما آه للعمر المنصرم
وكذا الأيام لها عبر⁽⁴⁾ وليالي الدهر كما الحلم
والدار تفرّ بساكنها ويح المغرور بها النهم
يا نفس خدعت بزخرفها كم تفتري⁽⁵⁾ بها وكم

(1) أنشدت هذه القصيدة بمناسبة مولد سنة (760 هـ) . وقد وردت في كتاب بغية الرواد ج 2 ، ص 41 - 42 ، وفي واسطة السلوك ، ص 10 - 11 . وهي من بحر المتدارك .

(2) وفي واسطة السلوك : فما انزجرت .

(3) نفسه : مع .

(4) وفي بغية الرواد : دول .

(5) نفسه : كم ذا تفتري .

يا ربّ ذنوبي قد عظمت فـأـمـن بالعفو المجترم
فالعفو إلهي منك وان الذنب وحقك من شيمي
شأن المملوك الذنب وشا ن المولى العفو عن الخدم
اني بذنوبي معترف والخوف أشد من الألم
يا رب إذا لم تعصمني ما لي بذنوبي من عصم
كم أجني الذنب وتهلني وتقابل ذلك بالنعيم
ولكم أعصيك وتسترني يا ذا الأفضال وذا الكرم
ما زلت بفضلك ترحمني وتجود عليّ على القدم
والعبد بيباك ملتزم وبغير جنابك لم يحم
يارب أنلني منك رضى ⁽¹⁾ فرضاك الفوز لمغتئم
يا رب سألتك تغفر لي بشفيع الخلق من الأمم ⁽²⁾
أدعوك إلهي معتذراً في ضوء الصبح وفي الظلم
قلبي انفطرا والدمع جرى والركب سرى نحو العلم ⁽³⁾
قلبي بنواه ⁽⁴⁾ أسير هواه فيا شوقاه إلى الخيم ⁽⁵⁾
سرت الإبل لما ارتحلوا قلبي حملوا في ركبهم

(1) وفي بغية الرواد : ورضى المحبوب له أرب .

(2) وفي واسطة السلوك (النسخة المطبوعة) : بشفيع الخلق وكهفهم .

(3) وفي بغية الرواد : نحو الخيم .

(4) نفسه : بهواه .

(5) نفسه : الى العلم .

حملوا خلدي أفنوا جلدي تركوا جسدي رهن السقم
 حطَّ العشاق ركائبهم بين العلمين وبالحرَم
 وغدا (1) المشتاق بزفرته في مغربه يبيكي بدم
 قد قيَّدني ما قلَّدني من أمر (2) حكيم ذي حكم
 وصروف الدهر تعارضني عما أبغيه من القسم
 ساروا وذنوبي تقعدني (3) فقرعت السنَّ من الندم
 وبكيت الدمع على زللي ومزجت الدمع بفيض دم
 بدت الأنوار على السَّمار (4) من الأقدار بذِي سلم
 زاروا الهادي بهوى بادي وحدا الحادي عزمًا بهم
 شدَّوا عزموا فازوا غنموا لما قدّموا لحمى الحرَم
 طافوا بالبيت وقد وقفوا ودعوا إذ ذاك لرَّبِّهم
 غفرت بالبيت ذنوبهم عند الإقرار بذنوبهم
 جسمي بتلمسات دنف والقلب رهين بالحرَم
 ولاني أمير الخلق فلم أسطع سَيْرًا (5) من أجلهم
 فاقمت أصلح ما أفسدت (6) بالغرب الفستن الدهم

(1) وفي واسطة السلوك : وبقي .

(2) نفسه : من حكم .

(3) نفسه : والذنب قد أقعدني .

(4) وفي بغية الرواد : الزوار .

(5) وفي واسطة السلوك : سفرا .

(6) وفي بغية الرواد : ما خرقت .

وبعثت رسالة مكتتب
أرجو في الحشر جوائزها
ندمي إن⁽¹⁾ لم أعمل قدمي
بدعا عيسى وبادريسا
ويخصك⁽³⁾ يا أسنى قر
وسلام يفضح كل شذى
لشفيح العرب مع العجم
من خير وفي بالذمم
عوض القرطاس أو⁽²⁾ القلم
يرجو موسى كشف الألم
بصلاة فائقة العظم
يزري بالزهر المبتسم⁽⁴⁾

(1) وفي واسطة السلوك : اذ .

(2) نفسه : مع .

(3) نفسه (النسخة المطبوعة) : ونخصك .

(4) وفي بغية الرواد : ما دار لسان بالكلم .

11- قفا بين أرجاء القباب (1)

قفا بين أرجاء القباب وبالحيّ وحي دياراً للحبيب بها حيّ
وعرج على نجد وسلع ورامة وسائل فدتك النفس في الحي عن مَيّ
وقل ذلك المضى المعذب بالهوى يموت ويحيى فارث للميت الحيّ
وبث لهم وجدي وفرط صابتي ورو⁽²⁾ حديثي فهو أغرب مروي
يعذبني شوقي ويضعفني الهوى وقلبي على جمر من الشوق عمي
لبست ثياب السقم في دوحة الهوى وقد صبغت في حبهم لون عودي
تحلّيت في أهل الهوى بهوهم فما لي سوى زيّ الحبة من زيّ
وصرت اذا هبت نسيات أرضهم على شجرات البان أو فضب نسري
أميل بها شوقا اليهم وأنثني كما ينثني قدّ الحسام الفرندي
وأصبو الى أرض الحبيب ومن بها متى ماسرى عرف النسيم الحجازي
رعى الله داراً بالحي قد عهدتها وسقى⁽³⁾ ثراها صوب مزن سماوي

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة بمناسبة الاحتفال بمولد سنة (761هـ) ،

وهي من بحر الطويل .

(2) كذا في الأصل .

(3) وفي بعض النسخ : ويسقي .

وكم نفحة تحيي الفؤاد بنشرها
أعلل نفسي بالنسيم اذا سرى
أحبة قلبي ما امرت فراقكم
حياتي وموتي في هواكم وانني
لقد اعدتني عن حماكم قلائد
فيا أهل نجد أنجدوني على الهوى
مقيم بأقصى الغرب أشكو به الجوى
ويا حاديا يحدو الركاب اليهم
وأخبرهم اني أراعي ذمامهم
تناسيتهم عهدي وطول مودتي
فيا ليت شعري والديار قصيدة
عسى الدهر يدنيني ويسمح باللقاء
فقد طال هجراني وأعيا تعللي
وقد قطعت قلبي القطيعة والنوى
وثالله مالي غيركم ان هجرتم
سلام على الدنيا اذا لم أراكم⁽¹⁾
ويا أسفي يوم الحساب ويا أسى
وما أرتجي الا شفاعته خير من
به يرتجي العاصون غفران ذنبهم

اتت بنسيم عاطر النشر مسكي
وبالبرق إذ يسري وسجع القماري
على قلب صب لا يطيق على شي
أعلل نفسي فيكم بالاماني
وليس عناني عن هواكم بمثني
فأنني في بحر من الشوق لجتي
وحالي على حكم النوى غير مخفي
أنخ بربي نجد وسلم على طسي
فما لزامي عندهم غير مرعي
وحبكم في القلب ليس بمنسي
متى تسمح الأيام لي بلقا الحبي
فيشفي غليل القلب من ذلك الرَي
وأذكي أوار الشوق لاعج جري
بأبيض هندي واسمر خطي
فهجركم يردي ووصلكم يحبي
فمرآكم في الحسن أبدع مرثي
اذا كان سعبي عندكم غير مرضي
أتى بالهدى يهدي لدين حنيفي
وما عملوا في الدهر من عمل سي

(1) كذا في الأصل .

فولده قد أشرق الكون كله
 سلام على من بالبقيع وبالحمى
 سلام من المشتاق موسى بن يوسف
 سلام مشوق أثقلت ذنوبه
 بيثرب قلبي والحجاز مودتي
 بنفسي وروحي أهل طيبة أنها
 فيا ليت شعري هل أزور محمدا
 لئن أخرتني عن زيارة أحمد
 فربي أرجو أن يمن بقربه
 عليه سلام الله ما حن شيق
 وكل سنى شمس وبدر ودري
 سلام على البدر المنير التهامي
 على خير خلق الله هاد ومهدي
 وأخر عن سير وقيد عن سعي
 وإن عاقني عن كل رشد به غيبي
 شفاء عن الآثام والزيف والبغي
 وأمنح ما أهواه من منزل الوحي
 قلائد أمر قيدتني عن السعي
 قريبا وشوقي لا يقابل بالنأي
 إلى قبره يطوي الفلا أيا طي

12 - نزلتم من فؤادي منزلاً حسناً⁽¹⁾

نزلتم من فؤادي منزلاً حسناً وكل ما ساءني في حبيكم حسناً
بنتم فلم أأخذ من بعدكم سكناً وحبيكم في صميم القلب قد سكناً
وَبَعْدُكم صار عندي ساعة بسناً

سرتم ولم تعلموا بالبين ما فعلاً بهائم مدنف لا يبتغي بدلاً
هلا رحمتكم محباً بالنوى قتلاً متيماً صار في أهل الهوى مثلاً
لم يتخذ بعدكم خلاً ولا وطناً

يا راحلين وللتوديع ما عطفوا وسائلين وبالمشتاق ما عرفوا
قفوا قليلاً على مضى الغرام قفوا خذوا فؤاد المعنى الصبّ وانصرفوا
لا أبتغي منكم رهناً ولا ثناً

(1) اعتاد أبو حمو أن ينظم قصيدة بمناسبة الاحتفال بالمولد الشريف ،
في كل سنة فنظم هذه القصيدة في مولد سنة (762 هـ) . وقد
وردت في بغية الرواد ، ج 2 ، ص 84 - 87 : وهي من بحر
البسيط .

هجرتم دون ذنب لا ولا سبب قطعتم القلب بالتبريح والوصب
فظلت⁽¹⁾ من حرّ نار الشوق في لهب أعاتب الدهر فيما جر من نوب
يا دهر أفجعت قلبي بالنوى زمنا

لو أنصف الدهر ما فارقتكم أبدا ولا رضيت سواكم في الهوى أحدا
لم يبق لي بعدكم صبرا ولا جلدا والنوم عن مقلتي من بعدكم شردا
وقد حرمت لذيق العيش والوسنا

هلا كفوني أهيل الحب هجرهم ما ضرّ لو أنهم جادوا بوصلهم
ما كنت أدري الهوى حتى عرفتهم وعبرتي ما رقت من بعدُ بعدهم
والقلب في حبهم ما زال مرتها

يا حاديي ظعنهم نحو الديار قفا نشد فؤادا بذاك الجي قد تلقا
وسائلا بربي نجد لمن عرفا قولاهم ذلك المشتاق قد شغفا
وقلبه بألم الشوق قد طعنا

هل مخبر كيف أحبابي وما صنعوا أبا لحمى خيموا أم عنه قدرجعوا
ساروا بقلبي وشملي بالنوى صدعوا ياليت شعري بذاك القلب هل قنعوا
أم هل أبشر في نجد بالفتنا

يا هاجرين وهجر الصب ما وجبا أبعدتوني ولم أدر لذا سببا
وصرت في حيكم من جملة الغربا وقلت يا دهر جدي لي بالرضى فأبى
يا دهر هلا كفتك اليوم فرقتنا

(1) كذا في الأصل ، أي ظلت .

شدوا عشية يوم البين وارتحلوا ولا درى الصب بعد البين ما فعلوا
هل بالنقا خيموا ام بالحمى نزلوا ناديت من شدة الاشواق يا رجل
ردوا الركاب فان القلب قد ظعنا

أنا المشرق فهل خل يساعدي على البكاء مدى الأيام والزمن
قد خانتني فيكم من كان يالفني لعل دهري بكم حيناً سيجمعني
فيشتفي قلب صب بالغرام فنى

لقد أضرب قلبي لأعج الوهج وقد مزجت بدمعي كل ممتزج
والشوق اثر في الاحشاء والمهج فالله يعقب بعد العسر بالفرج
فيسعد السعد والأيام تجمعنا

ما كان احسن عهد بالحمى سلفاً وطيب عيش حلالي ورده وصفا
ضيّعت عمري في التسويّف وأسفا فها أنا بعد شمل كان مؤتلفا
أبكي الربوع وطورا أندب الدمنا

كم ذا أكابد حر الشوق في كبدي وكل شيء بعين الواحد الصمد
يانفس لا ترج غير الله من أحد يغنيك عن عدد في الحرب أو عدد
فلم يزل بجميل اللطف ينصرنا

رحماك يارب ان الذنب من قبلي فوفق العبد للاخلاص في العمل
وهب له فرجا يأتي على عجل بحق أحمد خير الخلق والرسل
من في غد من عظيم الذنب ينقذنا

يا نفس لا تقنطى يا نفس واصطبرى ولازمى الجد فى ورد وفى صدر
لزورة المصطفى المختار من مضر فان ختمت بهذا منتهى عمرى
فقد ظفرت بعزّ دائم وهنا

وهبت نفسى للحادي اذا قبلا كي أبلغ القلب من ذاك الحمى أملا
وأبصر البيت والأركان والحللا أطوف سبعة أشواط به رملا
وانثنى لمنسى قد حزت كل منى

يا أكرم الخلق عند الله منزلة كم لي أروم الى مغناك مرحلة
لكن أمور عدتني عنك معضلة منها ذنوب غدت للظهر مثقلة
وما من الحكم رب العرش قلّدا

يا رب عبدك موسى ذنبه عظما فهب له العفو جودا والرضى كرما
وارحم ضراعتة يا خير من رحا يا رب لا تبعد الجاني بما اجترما
أنت الغنيّ وما للخلق عنك غنى

أهلا بمولد خير الخلق حين بدا وفاض منه على الآفاق نور هدى
أرجو شفاعته يوم الحساب غدا يا رب صل عليه دائما أبدا
ما صافح الريح روضا أو ثنى غصنا

13 — مشوق تزيًا بالغرام (1)

مشوق تزيًا بالغرام وشاحا
 تعذّبه أشجائه وهو صابر
 محب مشوق قيّده يد الهوى
 عذابي صلاح في رضاكم فانكم
 رميتم بأكبادي سهام نولكم
 فتكتم بالحافظ مراض فواتر
 تقطّع ما بين الحشا وبمقلتي
 ركبت لَكُمْ مركبَ الشوق رائضا

كما قد ركبتم للصدود جماحا
 مزحتم بهجري يوم جدّت بي النوى
 وسلت سيوف البين بيني وبينكم
 فعاد النوى جدّا وكان مزاحا
 فلم يغن عني ما اتخذت سلاحا

(1) انشدت هذه القصيدة في الاحتفال الذي أقيم أثناء مولد سنة (763هـ)

ولم ترد هذه القصيدة الا في كتاب بنية الرواد ، ج 2 ، ص 97

— 99 ، وهي من بحر الطويل .

اهِم بِمَغْنَاكُمْ وَأَنْدَب رُبْعَكُمْ
 أَكْفَحْ دَهْرِي بِالْتَجَلْدِ فِيكُمْ
 فَلَا تَنْكُرُوا مِنِّي التَّهْدِي فِي الْهُوَى
 لِكُلِّ مَحَبٍّ فِي التَّأَوُّهِ رَاحَةً
 فَكَمْ زَفْرَةً فِي الْقَلْبِ أَحْرَقَتْ الْحِشَا
 أُنْجِمْ صُدُودِي فِي الْغَرَامِ وَلَمْ تَرَوْا
 وَحَرَمَةً وَجَدِي لِاسْلُوتِ سِوَاكُمْ
 أَجُودُ بِنَفْسِي فِي رِضَاكُمْ صَبَابَةً
 يَخْطُ كِتَابُ الشُّوقِ دَمْعِي بِوَجْنَتِي
 جَفَوْنِي بِمَاءِ الدَّمْعِ جَادَتْ وَأَضْلَعِي
 وَكَمْ قَدْ شَجَانِي بَارِقُ مِنْ جَنَابِكُمْ
 الْإِلَيْتُ شَعْرِي هَلْ أَزُورُ بِطِيبَةِ
 اسْكُنْ أَشْوَاقِي بِقَرَبِ لِقَائِهِمْ
 لِعَمْرِي لَقَدْ قَضَيْتُ عَمْرِي فِي الصَّبَا
 وَوَلِي شَبَابِي فِي التَّصَايِي وَلا حَ لِي
 فَيَا حَادِيَا يَحْدُو الرِّكَابُ لَطِيبَةً
 إِذَا جِئْتَ نَجْدًا أَوْ نَشَقْتَ نَسِيمَهَا
 فَصَرِّحْ بِذِكْرِي فِي الْخِيَامِ وَأَهْلُهَا
 وَبَلِّغْ إِلَى خَيْرِ الْإِنَامِ تَحِيَّتِي
 نَبِي لَهُ فَضْلٌ عَلَى كُلِّ مَرْسَلٍ

وَيَشْتَاقُكُمْ قَلْبِي مَسَاءَ صَبَاحَا
 وَأَفْنِي زَمَانِي بِالْغَرَامِ كِفَاحَا
 فَلَمْ يَرِ أَهْلُ الْحُبِّ فِيهِ جَنَاحَا
 إِذَا أَنْ مِنْ فَرَطِ الْغَرَامِ وَنَاحَا
 كُنَّارَ تَلَاقِي فِي الْهَبُوبِ رِيَاحَا
 وَصَالِي فِي شَرَعِ الْغَرَامِ مَبَاحَا
 وَلَا رَمَتْ عَنْهُ مَا حَيَّتْ بِرَاحَا
 فَهَلَا مَنَنْتُمْ بِالْوَصَالِ سَمَاحَا
 وَيُرْوِي أَحَادِيثَ الْغَرَامِ صَحَاحَا
 بَنَارُ غَرَامِي لَمْ يَزَلْنَ شَحَاحَا
 يَذْكُرُ دَهْرًا بِالْأَحْبَةِ رَاحَا
 رُبُوعًا بِهَا حَلَّ الْهُدَى وَبَطَاحَا
 وَأَنْشَدَ قَلْبًا بِالْإِبْيَاطِ طَاحَا
 وَأُجْرِيَتْ خَيْلُ اللَّهْوِ فِيهِ مَرَااحَا
 مَشِيبٌ بِهِ عَادَ الْمَسَاءُ صَبَاحَا
 يَجُوبُ بِهَا بَحْرُ الْفَلَائِ طَاحَا
 وَشَمْتُ عَرَارًا رُبُوعًا وَبَطَاحَا
 وَنَاشَدُهُمْ شَوْقِي هُنَاكَ صَرَااحَا
 كَمَا نَمَّ زَهْرٌ فِي الرِّيَاضِ وَفَاحَا
 أَتَى أَلْسَنَ الذِّكْرِ بِذَلِكَ فَصَاحَا

سرى فسما بالقرب من ربه إلى
وشقّ له البدر المنير وقد غدوا
إذا ظمىء الأقوام يوما سقاهم
بمولده صبح الهداية قد بدا
وأشرقت الآفاق بالنور عندما
الايارسول الله دعوة شيق
مقيم بغرب⁽¹⁾ كاد من فرط حبه
ومالي سوى حيي اليك وسيلة
عَبَيْتُكَ موسى منك يرجو شفاعة
عليك سلام طيب النشر عاطر

مقام رأى الاملاك عنه نزاحا
له لا إلى البدر المنير طهاحا
بماء معين بالانامل ساحا
فزال به ليل الضلال وزاحا
بدا وجه خير المرسلين ولاحا
يؤمل آمالا لديك فساحا
يطير اشتياقاً لو أعير جناحا
أمدُّ بها نحو الشفاعة راحا
ينال بها يوم الحساب نجاحا
يروح ويغدو بكرة ورواحا

(1) كذا في الأصل : يعني : في المغرب .

14- ذرفت لتذكار العقيق دموعي⁽¹⁾

ذرفت لتذكار العقيق دموعي وازداد شوقي للحمى وولوعي
والحب شب أواره بضلوعي من لي بشمل بالحمى بمجموع
ويجبر قلب بالنوى⁽²⁾ مصدوع

هب النسيم من أرض نجد شاقني والبرق أرقني بنه وراقني
والذنب عن وصل الأحبة عاقني وجرت دموعي كالعقيق وخانني
صبري وكان الشوق أصل⁽³⁾ خضوعي

حي شفيح للحبيب إن أعرضاً والحب باب للشفاعة والرضى
لاكنني ضيعت فيما قد مضى رمت المسير فلم يساعدي القضا
ولكم نشرت إلى الرحيل قلوعي

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة الخمسة بمناسبة الاحتفال بمولد سنة (764 هـ)، وقد وردت في بغية الرواد، ج 2 ص 125 - 127 ، وفي واسطة السلوك مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، وهي من بحر الكامل .

(2) وفي واسطة السلوك : بالهوى .

(3) نفسه : باب .

قضيت عمري في لعل وفي عسى والعبد يرغب في الصباح وفي المساء
في زورة تمحو له ما قد أساء والقلب منقطر يذوب له أسى
والدمع منحدر كما الينبوع

شان الحب على زيادة حبه عزم المسير إلى زيارة حبه
لو كان ساعدني الزمان بقربه لخططت رحلي في مقدس تربه
وهجرت خلاني له وربوعي

أخطأت مرباي⁽¹⁾ وغيري ماخطأ وتبعث غيبي في الذنوب وفي الخطأ
والشيب وافى والشباب تفرطاً يأسعد ساعدني على زمن سطا
هل للزمان مساعد برجوع

أسقي الثرى من مدمعي لا همى والقلب هام وثار شوقي أضرم⁽²⁾
شوقا لمحبوبي منامي قد حمى ولقد شغفت بحب من سكن الحمى
وحرمت لذاتي به وهجوعي

قد زاد شوقي للعقيق وللصفا ولروضة الهادي النبي⁽³⁾ المصطفى
يا أهل ودّي انتم أهل الوفا وأنا الحب لكم وقد برح الخفا
واليكم دوت الأثام رجوعي

صب صبا⁽⁴⁾ قلبي ودمعي قد جرى وهجرت سلواني ولذات الكرى

(1) المربأ هو المراقبة ، يريد الرشاد والصلاح .

(2) كذا في واسطة السلوك . وفي بنية الرواد : ضرما .

(3) وفي واسطة السلوك : الشفيح .

(4) كذا في الأصل ، وفي طبعة الفرد بيل لبغية الرواد : سبي .

وبجالتى من شوق نجد ما ترى شوقاً لمن ركب البراق وقد سرى
لمقام عزٍّ في السماء رفيع

يا ليلة الاثنين نورك قد سما وانجابت الظلماء عن افق السما
وانهد ايوان لكسرى عندما خلق⁽¹⁾ النبي الهاشمي معظمها⁽²⁾
في ليلة غرا بشهر ربيع

والبدر شقّ بغير إفك يفتري لمحمد المختار من خير الورى
والجذع حنّ اليه من غير امتيرا والماء نبعا من أنامله جرى
من غير ممنون ولا ممنوع

سعد الزمان بخير من وطىء الثرى في ليلة الاثنين لاح وأقرا
يا حاديا يطوي الفلا بيد السرى رفقاً علي فما أطيعق تصبرا
عن تحكّم حبه بضلوعي

يهدى رسول الله أمته اهتدت بظهوره الأصنام خرت وارتدت
وبنوره نيران فارس أخذت ودلائل⁽³⁾ بانته وآيات بدت
وشفاعة جاءت لكل مطيع

يا رب كم لي بالذنوب أنوسا ولكم أطلت مع العصاة جلوسا

(1) وفي واسطة السلوك : ولد .

(2) نفسه : الأكرما .

(3) نفسه : وعجائب .

وسقيت من فقد الحبيب كؤوسا يا رب يرجو منك عبدك موسى
عفوا يبلغ منزل الترفيع
أدعوك دعوة مستهام واله أوليتني الاحسان منك فواله
واسمح لعبدك عن قبيح فعاله فوسيلتي حب النبي وآله
خير البرية وهو خير شفيع

15 — هوينَا الظُّبَا (1)

هوينَا الظُّبَا وألفنَا الظُّبَا	وكم من فؤاد اليهـَا صبا
إلى أن بدا الشيب في مفرقي	وأجريت من خيله أشهبَا
فأيقظني الشيب من غفلتي	ففي لمتي من حديثي نبا
وقد عاد غضّ شبابي به	محيلا ولوني غدا مذهبَا
فوا أسفي من ذنوب مضت	تقضيتها في زمان الصبا
وكم لمت نفسي فما أقلت	وعاتبت قلبي فما أعتبا
وكم قد بكيت لذنـب جنيت	وقلبي نهيت ولاكن أبي
مسيء قسا قلبه إذ أسا	فذاب أسي عندما أذنبَا
لقد حق أبكي على زلتي	فذنبي لهجري قد أوجبَا
وليس لخطي وتمحيص ذنبي	سوى فرط حي لأهل العبا
فيا أهل ودّي لقد زاد وجدي	إلى أهل نجد وأهل قبا
فذكرهم عاد لي عادة	وحبهم صار لي مذهبَا

(1) أنشدت هذه القصيدة بمناسبة الاحتفال بمولد سنة (765 هـ) ، ولم ترد إلا في كتاب بغية الرواد (ج 2 ، ص 137 - 138) . وهي من بحر المتقارب .

وحسنهم كم محبّ صبا
 فان يرحموني فمن فضلهم
 وإن هم يحدون لي بالرضى
 فيا حادي الركب نحو الحمى
 فأبلغ سلامي لسكانها
 وقل لهم يرحموت المحب
 فرقوا لقلب غدا مشرقا
 فواكف أجفانه ما رقا (1)
 حمى النوم عني برق الحمى
 فجدّوا السرى لشفيع الورى
 فالتمجح النور من أرضها
 بلاد مقدّسة حلّها
 فشهري ربيع أتى برفيع
 فاهلا وسهلا لمولى أحلا
 نبيّ أتى رحمة للعباد
 ونيران فارس قد أخذت
 وكسرى تساقط إيوانه
 وخرت قواعد إيوانه
 وكلّمت الوحش للمصطفى
 اليه وكم من فؤاد سبى
 وان يهجروني فيا مرحبا
 فيا ما ألدّ وما أعذبا
 إذا جئت نجدا وتلك الربى
 ذكيّ الشذا عاطرا طيّبا
 فما اختار غيرهم مطلبها
 وحنّوا لصبّ ثوى مغربا
 ولاعج أشواقه ما خبا
 وشاق فؤادي نسيم الصبا
 عسى أن ترى مقلتي يثربا
 واستنشق المسك بل أطيبا
 نبيّ الهدى المصطفى المجتبى
 نبيّ شفيّع لمن أذنبنا
 وبدر تجلّى جلا غيبتها
 وأظهر للحقّ نورا خبا
 فله ذلك ما أعجبا
 وذاق من الرعب كاس الظبا
 وصارت رميا كمثل الهبا
 ونطق الذراع له أعجبا

(1) كذا في الأصل (ورقا الدمع اذا جف وانقطع) .

وكلّمه الطيّب مستغرباً	وحنّ له الجذع مستوحشاً
وردّت له الشمس أن تغرباً	وشقّ له البدر عند التمام
تجلّ عن الوصف أن تحسباً	وأسرى به ليلة الارتقا
على الخلق طرّاً بما قد حبا	فيما سيّداً قد حباه الإله
ويا من علا في العلى منصبا	ويا من سما قدره رفعة
يروق النفوس كنشر الكبا	يخصّك موسى بازكى سلام
بروض شريق حوته الربى	ومسك فتيق وزهر أنيق
وما لي لذني سوى المجتبى	فربّي حسي لوجدي وكربي

16- يا من يجيب ندا المضطر (I)

يا من يجيب ندا المضطر في الدّيج ويكشف الضر عند الضيق والهوج⁽²⁾
ولطف رحمته يأتي على قنط اذا القنوط دعا يا أزمة انفرجي
ومن اذا حل خطب واعترت نوب أبدى من اللطف ما لم يجر في المهج
اننى دعوتك جنح الليل يا أملي دعاء مبتهل بالعفو منتهب
يا كاشف الضر عن أيوب حين دعا قدمسني الضر فاكشف كرب كل شجي
انت المنجي لنوح في سفينته ومخرج يونس من ظلمة اللجج
يا من وقى يوسف الصديق كل أذى لما رموه رجباً ضيق حرج
أجاب يعقوب لما أن بكى وشكا وجاءه منه لطف لم يخله يحجي
وعاد بعد بصيرا حين هب له نسيم نشر القميص الطيب الأرج
أنجى من النار إبراهيم حين رمي فيها وعادت سلاما دون ما وهج
يا من تكفل موسى وهو منتبذ باليم في جوف تابوت على لجج

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة بمناسبة الاحتفال بمولد سنة (766 هـ) .

وقد أوردها صاحب بغية الرواد (ج 2 ، ص 152 - 153) .

وهي من بحر البسيط .

(2) وفي نسخة : والهرج .

وأمه من أليم الشوق والهة فؤادها فارغ من شدة الوهج
يا من أعاد لها من بعد ما يئست موسى وقربه في المرسلين نجى
يا من كفى المصطفى كيد الأولى كفروا

اذ جاءهم بكتاب غير ذي عرج
يا من وقاه الردى في الغار إذ نسجت

ببابه عنكبوت خير منتسج
وكلما حاولوا مكرًا به انقلبوا
بالرعب ما بين مكبوت ومنزعج
من قد أتى رحمة للعالمين وقد
أحيا القلوب بوحى واضح الحجج
من عطر الكون طيباً عند مولده
من أنزلت فيه آيات مطهرة
يبلى الجديدان اخلاقاً وجدتها
في طيها كل علم ظل مُندرجاً
وأيّ علم لديها غير مندرج
وكم له معجزات مالها عدد
جلت عن الحصر من فرد ومزدوج
عمت شفاعته للخلق كلهم
وبالوسيلة يرقى أرفع الدرج
نور الهدى وامام الرسل والسرّج
محمد خير خلق الله قاطبة
بالله عجب بي على ذاك المحل عجب
يا حادي العيس عرج نحو أربعه
بالعزم إذ وصلوا الروحات بالدلج
لله قوم الى مغناه قد وصلوا
وقد مزجت بدمعي كل ممتزج
ساروا فزاروا وفرط الذنب أقعدني
والقلب مشتعل من حرّه الوهج
فالجسم منتحل والدمع منهمل

وقد تقلدت ما لا يستطيع له
 يارب عبدك موسى قد دعاك عسى
 فكن نصيري فقد أصبحت مكتئبا
 قد ضقت ذرعا بزلاتي وكثرتها
 وكم قطعت من الايام في لعب
 وفي البطالة لهوا قد مضى عمري
 وكم عصيتك جهلا ثم تسترني
 مني الاساءة والاحسان منك بدا
 كم جدت بالفضل والاحسان منك وكم

سرت بالفضل من أفعالي السمج
 اني سالتك بالسر الذي ارتفعت
 اصلح بفضلك ما قد كان من خلل
 واجعل لنا مخرجا في اثره فرج
 وصل صلاة على المختار من مضر
 سرت بالفضل من أفعالي السمج
 به السماوات والأرضون لم تمج
 واجبر بحلمك ما قد بان من عوج
 فكم تعامل بعد الضيق بالفرج
 ما لاحت الشهب في الآفاق كالسرج

(1) ارتجج الباب : أغلِيق .

17 — ألفت الضنى (1)

ألفت الضنى وألفت النحيبا	وشبّ الأسى في فؤادي لهيبا
وحقّ لنفسي أسى أن تذوبا	وللدمع من مقلتي أن يصوبا
وقد كنت بالوصل منكم قريبا	فأصبحت بالهجر منكم غريبا ⁽²⁾
جفاني الحبيب فسرّ الحسود	وأدنى البعيد وأقصى القريبا
وذني أوجب هجري فما	جفاني حتى جنيت الذنوبا ⁽³⁾
فيا ليت شعري هل عطفة	يكون بها الدهر عيشي خصيبا ⁽⁴⁾
فإلي على الهجر من قدرة	فقد آدّ جسمي وأفنى القلوبا ⁽⁵⁾
وقفت رجائي بكم فارحوا	وقوفي على بابكم مستريبا
غريب فريد أنا بينكم	وحاشاكم تفردون الغريبا

-
- (1) نظمت هذه القصيدة بمناسبة مولد سنة (767 هـ) ، وقد وردت في
 بنية الرواد وكذلك في واسطة السلوك ، وهي من بحر المتقارب .
- (2) وفي واسطة السلوك : بالهجرة أخشى الرقبا .
- (3) هذا البيت ساقط في واسطة السلوك .
- (4) وفي واسطة السلوك : بوصل وعيش يكون خصيبا .
- (5) نفسه : يذيب النفوس ويغشي القلوبا .

وما لي ذنب سوى حبكم
 فإن تقتلونني حلال لكم
 وإن تبعذوني على زلّتي
 وإن ترحموا ترحموا صّبكم
 أسير هواكم قتل نواكم
 فؤادي عليل وجسمي نخيل
 هجرت الهجوع نثرت الدموع
 أبكي الرسوم وأرعى النجوم
 أعاتب نفسي على زلّتي
 مسيء ألمّ بذنب أذمّ
 سالتك يا خالقي توبة
 خشيت المعاصي بيوم القصاص
 وأنت رقيب يوم الحساب
 فكم قد لهوت وكم قد سهوت
 علياً بخطي يفرّج كربى
 مضى العمر يا حسرتي في الظلا

وثالله عن حبكم لن أتوبا
 أنا أرتضي ما يرتضي الحبيب⁽¹⁾
 فشيمتكم⁽²⁾ تغفرون الذنوبا
 فظل رضاكم يغطي العيوبا
 لعلّ رضاكم يكون قريبا
 وسقمي طويل قد أعى الطيبيا
 فسرتي أذيع وقلبي أذيا
 أقاسي⁽³⁾ الهموم معاً والخطوبا
 فيزداد جسمي ضنى وشحوبا
 وأجمع لما أسا أن يتوبا
 فما زلت للسائلين مجيبا
 إذا ما النواصي تشيب مشيبا
 كفى بك يوم الحساب رقبيا
 ولكن دعوت سميعاً مجيبا
 فما زال ربي يزيل الكروبا
 ل واشتعل الرأس منه مشيبا

(1) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .

(2) وفي بغية الرواد : فشأنكم .

(3) نفسه : أداري .

وأضحى من الشوق جسمي عليلا
أحن إلى الفجر عند الطلوع
إذا هبت الريح من طيبة
فأصبو إليها ومن أجلها
تهبّ النواصم من أرضها
حينئذٍ وشوقاً إلى المصطفى
إلى خير هادٍ هدى للرشاد
أجل⁽⁴⁾ شفيع مكين رفيع
فأكرم بشهر حوى كل فخر
كريم السجايا عظيم المزاي
فيا حادي العيس⁽⁶⁾ نحو الحمى
وزاد الهوى حين زال النوى
لقبر التهامي لبدر التام⁽⁷⁾

وأمسى من الهجر قلبي كثيباً⁽¹⁾
وللشمس حين تروم الغروباً
تعطّرت الأرض مسكاً وطيباً
أحبّ الصّبا وأحبّ الجنوباً
فيزداد نار اشتياقي لهيباً⁽²⁾
إلى من به الله يحو الذنوباً⁽³⁾
جميع العباد وجلى الخطوباً
أتى في ربيع فأحيا القلوباً
بمِلاد⁽⁵⁾ بدر بدا لن يغيباً
جزيل العطايا جيلاً مهيباً
إذا جئت ذاك الجنب الرحيباً
وجئت اللوى واعتمدت الكثيباً
لخير الأنام⁽⁸⁾ شفيعاً حبيباً

(1) هاذان البيتان ساقطان في بغية الرواد .

(2) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .

(3) وفي واسطة السلوك : آثار الغليل وأذكى الوجيبا .

(4) وفي بغية الرواد : لخير .

(5) وفي واسطة السلوك : بمولد .

(6) وفي بغية الرواد : الركب .

(7) نفسه : وغير الأنام .

(8) نفسه : وبدر التام

فبلغ إليه سلامي عليه
 وإن جئت نجداً وأعلامها
 فقبر الرسول مناي وسؤلي
 فيا سعد قوم حدوا كل يوم
 حدوا بالتيق فزاد اشتياقي
 تسنى لهم قصدم عندما
 وزموا الحمول وآموا الرسول
 سروا في الدجون⁽⁴⁾ ففاضت جفوني

وقد خلفوني مشوقاً كثيباً
 قلبي من الشوق في مشرق

وجسمي في الغرب أمسى غريباً⁽⁵⁾
 وسقوني كؤوساً تذيب النفوسا
 ويرجوك موسى تزيل الكروباً
 بجرمة أحمد خير الورى
 رجائي وطني به لن يخيباً
 فمحنى ومحنى عنا الذنوباً
 نبي أنى رحمة للعباد

(1) هاذان البيتان ساقطان في بغية الرواد .

(2) هاذان البيتان ساقطان في بغية الرواد .

(3) كذا في واسطة السلوك (المخطوط المذكور سابقاً) وفي النسخة المطبوعة منه : نعم والشهوبا ، وفي بغية الرواد : له والشهوب والمعاد بالشعوب الشعاب وهي الطرق في الجبال).

(4) وفي بغية الرواد : بالدجون (والدجون هو سواد الليل) .

(5) وفي واسطة السلوك : وجسمي بالغرب اضحى غريباً .

وسنّ الشريعة للمؤمنين	وشنّ على الكافرين الحروباً ⁽¹⁾
بمولده أشرق الأفق نوراً	وألبست الأرض حسناً قشيباً
وكسرى تساقط إيوانه	وكاد من الرعب يلقى شغباً ⁽²⁾
ونيران فارس قد أخذت	وإخمادها كان سرّاً ⁽³⁾ عجباً
وجفت موارد أنهارهم	وقد أعقبت بعد ريّ نضوباً ⁽⁴⁾
وحنّ له الجذع مستانساً ⁽⁵⁾	وأبدى إليه الأسى والنحيباً
دعا بالعباد لسقي البلاد	فاخصب ما كان منها جديباً ⁽⁶⁾
وشق له البدر عند الستام	وكلمه الظبي يشكو الخطوباً

(1) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .

(2) كذا في مخطوط واسطة السلوك ، وفي النسخة المطبوعة : شعوباً
(وكذلك في بغية الرواد) .

(3) كذا في مخطوط واسطة السلوك ، وفي النسخة المطبوعة : أمراً ،
(وكذلك في بغية الرواد) .

(4) في الأصل : نضوباً ، وقد سقط هذا البيت في بغية الرواد .

(5) وفي بغية الرواد : مستوحشاً .

(6) هذا البيت لم يرد إلا في مخطوط واسطة السلوك ، وقد سقط في
النسخة المطبوعة وفي بغية الرواد .

وكم معجزات له أعجزت جميع الورى شاعراً أو خطيباً
عليه السلام ⁽¹⁾ ما تبكى حمام
وما أضحك الروض ثغراً شنيباً ⁽²⁾

(1) لا يستقيم الوزن الا بتسكين الميم .
(2) وفي النسخة المطبوعة من واسطة السلوك : قشيبا .

18- الحب أضعف جسمي⁽¹⁾

والشوق ردّ خيالي بالسقام هبا	الحب أضعف جسمي فوق ما وجبا
والدمع يضرهما في القلب واعجبا	والبين أشعل نار الوجد في كبدي
والقلب بينها قد ذاب والتهبا	ماء ونار وأكباد لها شعل
لكن عذابي بها في الحب قد عذبا	ضدان قد أجمعا عونا على سهري
كرها وقد يكره الانسان من صحبا	ما كنت أدريها حتى صحبتها
وبعض خطبها للصب قد صعبا	احداها قاتلي آه اذا اجتمعا
وكلها لعذابي قد غدا سيبا	سهد وبعثد وأشواق تلازمي
ولا أبالي به إن طال أو قربا	أكابد الليل بالتسهد مفتكرا

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة بمناسبة احتفاله بمولد سنة 768 هـ ، وقد وردت في بغية الرواد، ج 2 ، ص 186 - 189 ، وفي واسطة السلوك (النسخة المطبوعة) ، ص 169 - 171 ، أما مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، فإنه لا يحتوي على هذه القصيدة ، وقد عوضت بالقصيدة الخمسة التي نظمت بمناسبة مولد سنة 764 هـ ، وهذه القصيدة من بحر البسيط .

ليلي نهار⁽¹⁾ ويومسي كله فكر
 وقد شغلت بقلبي كل مشتغل
 وكلها لعذابي في الهوى سبب
 أكفكف الدمع من عيني فيغمرها
 من بعد ما كان دهر الانس يجمعنا
 ولا رقيب ولا واش بحضرتنا
 ما كنت بالوصل قبل اليوم مقتنعا
 كانوا وكنا وحكم الدهر فرقنا
 وهكذا الدهر ما زالت عوائده
 يدني ويبعد في أحكامه أبدا
 كم نفحة بعد قطع الياس نافحة
 وكم أعلل قلبي بعد فرقتهم
 وقد تعلمت من حبي لهم خيبا
 ما للمحب دواء غير وصلهم
 وقد تقطع قلبي بعدم قطعنا
 سار الاحبة نحو الرقمتين ضحى
 ساروا على البزل والحادي يجد بهم

والنوم عن مقلتي من بعدهم سلبا
 وقد مزجت دما بالدمع منسكبا
 ولم أجد لوصالي بالنوى سببا
 كم بين من بات مسرورا ومنتحبا
 والسعد يسعدنا والوصل قد عذبا
 واليوم بالبين حالت بيننا الرقبا
 واليوم أقنع إن هبت نسيم صبا
 وكم عسى يبلغ الانسان ما طلبا
 فلا تثق بزمان بان أو قربا
 هذا بذاك ولا عتب لمن عتبا
 تهدي لنا عاطرا من ثغره شبا
 ان التعلل للاحباب فيه نبا
 وخيل راحتنا تجرى بنا خيبا
 يبري له السقم والتبريح والوصبا
 لما ناوا وقصوا في سيرهم اربا
 وخلفوني رهين القلب مكتئبا
 والقلب مني إلى أرض الحجاز صبا

(1) وفي واسطة السلوك : نهاري .

هذي الأجابة قد شدوا مطيهم
ولا رضيت لنفسي غيرهم بدلا
ولا سلوت ولا أسلو لبعدهم
زموا إلى زمزم والقلب يتبعهم
وخلفوني بغرب مغرماً بهم
فقلت يا حادياً والركب يسمعي
مزجت دمعي دماً من بعد رحلتهم
وكم سحبت ذيولي في الهوى مرحاً
لا تنكروا حال قيس في محبته
يا حادي العيس قف بالله تخبرني
في كل عام يسير الركب مرتحلاً
لولا الخلافة شدتني قلاندها
الا يجدد السرى والسير نحو ربي
لو كان لي قدرة ما كنت أتركهم
فليس يطفئ لهيب الشوق من كبدي

إلا بما زمزم يا سعد من شرباً
مني السلام على أهل الحطيم ومن أم المقام وطاف البيت مرتقباً

(1) وفي واسطة السلوك : الحب .

(2) نفسه صعباً .

(3) وفي نسخة من بغية الرواد : دموعاً .

من مدنف هائم في الغرب مسكنه موسى بن يوسف أفنى عمره لعبا
لكنني أرتجي يوم الحساب غداً شفاعة لشفيع جلّ ذا طلبها
فهو الحبيب بأقصى الشرق شوقي

والقلب من أجله في الركب قد نسبنا

صلى عليه إله العرش خالقنا ما غنت الطير في أفنانها طربنا
ثم السلام عليه دائماً أبداً ما أطلع الأفق من أنواره شهبنا

19- قفا خبراني (1)

قفا خبراني عن رسوم نواهج وعن معلمات طيبات الارائج
وعن أرض نجد والعذيب وبارق ولا تخبراني عن ذوات الدمالج
وجوبا الفياقي والمهامه واستعن على قطع أسباب النوى باللواعج
وعوجا⁽²⁾ بوادي الطلح من أرض رامة

وزفّا الهوادي عند رملة عالج
وان جئت نجدا فانتشق من ترابها كعرف عير أو كطيب النوافج
وان أبصرت عيناك أرض تهامة فبشراك قد وافيت أسنى المناهج
فسرح بطرف فوق طرف مضمّر وحط حول البزل بين الغوانج

(1) لم ترد هذه القصيدة الا في واسطة السلوك ، وقد جاءت تامة في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر . أما النسخة المطبوعة ، فينقصها الأبيات السبعة الأولى منها ، وأما عن تاريخ نظمها ، فليس لدينا من النصوص ما يثبتها . وقد يكون ذلك في مولد سنة 769 هـ ، والقصيدة من بحر الطويل .

(2) وفي الأصل : عرجا ، وهو غير مناسب من ناحية الوزن . وعاج بالمثلث : أقام فيه .

وقل لسليمى لست أسلو مجبها
 وان برقت من أرض نجد بوارق
 فصرح بأذكار⁽²⁾ العقيق وحاجر
 وان جئت أرضا بالحجاز عرفتها
 وقض مناسيك الحجاز بأسرها
 وشد القوى من متن ضامرة الحشى
 نبي كريم جاء بالرشد والهدى
 جلى بالهدى والرشد كل ضلالة
 به انهد إيوان لكسرى وأخذت
 وأشرقت الأنوار من نور أحمد
 فبدر الدجى والأنجم الزهر كلها
 رسول أتى بالمعجزات فلم تدع
 له آية في الغارحين استتاره
 والله من قلب له غير نائم
 ومن نهر ماء قد جرى من بنانه
 أجل نبي في الخلائق شافع

وأن طريق الغي لست بناهج
 تذكرنا⁽¹⁾ عهد الهوى والهواج
 لأن بها يشفى غليل اللواعج
 فشق⁽³⁾ ثراها بالدموع الموارج
 وزر زورة تقض جميع الحوائج
 لخير شفيع خصصته المعارج
 الى كل قلب في الضلالة مارج
 ومحى بدين الله دين الخوارج
 لفارس تلك النار ذات الوهاج
 فمنه استفاد الكون كل المباهج
 وشمس الضحى من نوره المتبالج
 براهينها من حجة للمحاجج
 عن اعينهم بالعنكبوت النواسج
 وجسم إلى السبع السماوات عارج
 وبحر عطاء بالندى متاوج⁽⁴⁾
 وللجود بذال وللکرب فارج

(1) كذا في المخطوط . وفي النسخة المطبوعة : تذكرني .

(2) كذا في المخطوط . وفي النسخة المطبوعة : بتذكار .

(3) كذا في المخطوط . وفي النسخة المطبوعة : فسق .

(4) هذا البيت ساقط في المخطوط المذكور .

وما الرسل إلا تحت ظل لوائه
وسيلتنا لله حب نبينا
لقد شغلتنى عن حماكم قلائد
سلام كريم من محب متيم
سلام من المشتاق موسى بن يوسف
على المصطفى والآل والصحب كلهم
وكلهم عن جاهه غير خارج
بصدق قلوب للقبول محاج⁽¹⁾
شغلت بها عن قطع تلك المعارج
بحبك مشغوف بذكرك لاهج
مقيم بأقصى الغرب سدت نواهج
والانصار طراً أوسها والخزارج

(1) وفي المخطوط المذكور : محارج .

20 - الا ما لصب مشوق⁽¹⁾

الأ ما لصب مشوق صبا إذا ما تذكر عهد الصبا
غدا بالغواني يغني هوى فيا ربع أين الغواني الطبا
لقد قدّ قلبي شوقي لهم ويئنّ بينهم ما خبا
ومزّق صبري من بعدهم فما البيض ما السمر أو ما الطبا
ونوح حمام الحمى شاقه وأطربه كل ما أطربا
فيا عاذلي كف عن لومه فلم تُلّف أهلا ولا مرحبا
شجون تهيج لهيب الحشى فوقد الجوى فوّده شيبا
فكم ذا أوارى أوارى وقد تبين منّي ما قد خبا
فصبر يقدّ ووجد يجدّ وسهد يزيد وشوق ربا
فن ليّ بالصبر من بعدهم أبا الصبر في الحب أن يصحبا

(1) لم ترد هذه القصيدة الا في بغية الرواد ، ج 2 ص 208 - 209
وقد ذكر يحيى بن خلدون أنها أنشئت بمناسبة الاحتفال بالمولد
الشريف من سنة 770 هـ . وقد حضره بنفسه ، إذ كان آنذاك في
خدمة السلطان العبد الوادي . والقصيدة من بحر المتقارب .

فيا سعد من مسعدي في البكا
 ونجري دموعاً كمثل الدُّمما
 نعلم فيها لأهل الهوى
 فمن شاء يروي غريب الغرام
 لقد كنت والدهر لي مسعد
 فما باله اليوم 'مُحَلَّوْلكا'
 فخاف وأخنى وجوراً جفى
 فصرت أعاتبه إذ عتا
 فلا درّ درّك يا دهر قل
 فقال بجيباً ألت الذي
 وأرزأتهم كل ما ملكوا
 تفانوا جميعاً وما جَمَعُوا
 توالى عليهم أكف الردى
 وأنت أخوا الصبر مهلاً إذا
 ففتاحها الصبر إن ضيقت
 فكم من جواد جواد كبا
 فقال تعال بنا نندبنا
 رضى من رضى⁽¹⁾ أو أبى من أبى
 علوم جرى⁽²⁾ قلّ أن يكتبنا
 فامر غرامى ما أغربنا
 فاغضبني ليت ما أغضبا
 وما زلت أعهد مذهبنا
 وظهر المحن لنا قلبنا
 فاسلني بعدما قربنا
 أيرجع منك الذي قد بنا
 على الرغم فرقت آل سبا
 وأضحت معاهدم سببنا
 فأين سبا والذي قد سبى
 فولوا وما أن قضا مأربنا
 بساحك خطب الدنى طنبنا
 فصبراً فبالصبر يرجى الحبا
 وكم من حسام حسام نبا

(1) كذا في الأصل .

(2) كذا في الأصل ، وفي الطبعة المذكورة : علو ما جرى . ولعل الصواب أن يقال : علوم جوى (والجوى شدة الوجد من الحب) .

وأعقبه صبره بعدها
فبشراك موسى بنيل المنى
ويا نفس بشرى بما نلتـه
وبادر إلى الله مستعجلاً
نجا حافياً جلّ ما أعقبـا
بفضل الإله فما أقربـا
وإياك إياك أن ترهبـا
ووال الصلاة على المجتبى

21 - خليلي قد بان الحبيب⁽¹⁾

خليلي قد بان الحبيب الذي صدّا
وسالت دموعي فوق خدّي هواملاً
قد اصفرّ لوني بعد حسن شبّيتي
وقد مرّ عمري في عسى ولعلّما⁽²⁾
وتزري بيّ الدنيا بزور غرورها
وهذا نذير الشيب لاح بفرقي
هويت من الدنيا زخارفها التي
شغفت بها دهرها ولم أر ما مضى
تشاغلني نفسي ودنياي⁽³⁾ والهوى
ولست بسّالٍ عن هواها كأنني
وقد عاقني صبري فلم أستطع ردا
وقد صيّرت فوق الخدود لها خدا
كما ابيضّ رأسي بعد ما كان مسودا
تواصلني لبني وتهجرني سعدى
فكم نقضت عهداً وكم نثرت عقدا
يذكرني خوفاً وينجز لي وعدا
بفرط هواها لا أطيق لها ردا
وقد بذلت من بعد قربي لها بعدا
وتبعدني من بعد ما أظهرت ودا
أشابه بشرا في محبته هذا

(1) وردت هذه القصيدة في بغية الرواد (ج 2 ص 224 - 226)

وفي واسطة السلوك (ص 172 - 173) وقد أنشدت اثناء الاحتفال

الذي أقيم في مولد سنة 771 هـ ، وهي من بحر الطويل .

(2) وفي واسطة السلوك : في لعل وفي عسى .

(3) نفسه : تشاغلني الدنيا ونفسي .

لبانة دهري قد تقضت⁽¹⁾ وقد مضت

وجيش شبائي بالمشيب لقد قدا

ويا ليت شعري للزمان⁽²⁾ الذي مضى

أرجع مُرَّ العيش من بعده شهدا

وتغفر أوزاري وتمحى جرائمي وحصر ذنوبي لا أطيق لها عدا

أنا المسرف الجاني أنا المذنب الذي أشاهد باب العفو بالذنب قد سدا

لقد حق لي أبكي على فرط زلتي وأسكب دمعا كالعقيق علا الحدا

إذا ذرفت عيناى زاد تفكّري وتعظم أفكاري ووجدني لو أجدي

أعاتب نفسي في زمان بطالتي وقلبي على كسب المآثم قد جدا⁽³⁾

وجيش شبائي قد مضى بسبيله وجيش مشيبي قد تقدم لي وفدا

وحالي بين الحالتين كما ترى فتطمعني⁽⁴⁾ شوقا وتقلقني صدا

إلهي هب لي منك عفوا ورحمة فما زلت يا مولاي تبغني القصدا

وعبدك موسى لم يزل فيك راجيا ومن شيم المولى بأن يرحم العبدا

توسلت بالمختار من آل هاشم أجرفني من النار التي أضمرت وقدا

نبي أتى والكفر باد ضلاله فاهدى الهدى للخلق يا حسن ما أهدى

(1) في واسطة السلوك : نقضت .

(2) نفسه : بالزمان .

(3) نفسه (النسخة المطبوعة) حدا .

(4) نفسه : تطمعني .

هو الرحمة الهادي الشفيع لنا غدا⁽¹⁾ هو المصطفى المختار يلهمنا الرشدا
هو الذخر للهول الشديد اذا أتى ومن ذا سواه للمخاف اذا اشتدا
الا يا ربيع الخير لا زلت رائقا
لقد⁽²⁾ جئت بالرحمى وخولتنا السعدا
لك الفخر⁽³⁾ صل وافخر على الحول كله

فانت لنا عيد نوفي لك العهدا
أتيت بمن لم يات دهر بمثله⁽⁴⁾ أبر بميثاق وأزكاهم مجدا
وأعظم عند الله جاهها وحرمة⁽⁵⁾ واندى الورى كفا اذا سئل⁽⁶⁾ الرفدا
سلام عليه⁽⁷⁾ طيب النشر عاطر يفوق برياه الرياحين والرندا
سلام مشوق من بلاد بعيدة يموت ويحيا من صابته وجدا

(1) في واسطة السلوك : المشفع في غد

(2) نفسه : فقد

(3) نفسه : المجد

(4) نفسه : بمن لم تأت أنثى بمثله .

(5) نفسه : ورقة

(6) نفسه : سئلوا

(7) نفسه : عليه سلام

المراجع

- (1) الأحكام السلطانية ، للماوردي ، القاهرة 1298 هـ .
- (2) الأدب الصغير والأدب الكبير ورسالة الصحابة ، لابن المقفع ، بيروت 1960 م .
- (3) أدب الوزير ، للماوردي ، القاهرة ، 1348 هـ .
- (4) أزهار الرياض ، للمقري ، القاهرة ، 3 ج ، 1939 هـ .
- (5) الاستقصا ، للناصرى ، الدار البيضاء 9 ج ، 1954 - 1956 م
- (6) أنس الفقير وعز الحقير ، لابن قنفذ القسنطيني ، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور ، الرباط ، 1965 م .
- (7) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتدسان ، لابن مريم ، نشره محمد بن أبي شنب ، الجزائر ، 1918 م .
- (8) بغية الرواد ، ليحيى بن خلدون ، تحقيق الفرد بيل ، الجزائر ، جزآن ، 1903 - 1910 م .
- (9) بغية الرواد ، ليحيى بن خلدون ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 5031 (قسم عربي) .
- (10) التاج في أخلاق الملوك ، للجاحظ ، تحقيق أحمد زكي القاهرة 1914 م .
- (11) تاريخ الأدب الجزائري لمحمد الطمار ، الجزائر ، 1969 م .
- (12) تاريخ الدولتين للزركشي ، تونس ، 1289 هـ .

(13) تاريخ المغرب في العصر الوسيط (القسم الثالث من كتاب أعمال
الأعلام) لابن الخطيب تحقيق أحمد مختار العبادي ، وإبراهيم الكتاني
الدار البيضاء ، 1964 م .

(14) التبر المسبوك في حكايات وحكم ونصائح الملوك ، للغزالي ، القاهرة ،
مطبعة التقدم ، بدون تاريخ .

(15) التشوف إلى رجال التصوف ، للتادلي ، الرباط ، 1958 .

(16) تعريف الخلف برجال السلف ، للحفناوي ، الجزائر ، جزآن ،
1909 م .

(17) التكلة ، لابن الأبار ، مدريد ، 1887 - 1889 م

(18) جذوة الاقتباس ، لابن للقاضي ، فاس ، 1309 هـ .

(19) كتاب الجغرافيا ، للزهري ، تحقيق محمد حاج صادق ، مجلة
الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي بدمشق ، 1968 م ، ص 7 -
310 .

(20) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، لابن حجر العسقلاني حيدر
آباد ، 4 ج ، 1349 - 1350 هـ .

(21) الديباج المذهب ، لابن فرحون ، القاهرة ، 1351 هـ .

(22) الذخيرة السنية لمؤلف مجهول ، نشره محمد بن أبي شنب ، الجزائر ،
1921 م .

(23) الرحلة المغربية : للعبدري ، الجزائر ، 1964 م .

(24) الانيس المطرب بروض القرطاس ، لابن أبي زرع ، أويسال 1843
- 1846 م .

(25) روضة النسرين ، لابن الأحمر ، مطبوعات القصر الملكي ، الرباط
1962 م .

(26) ربحانة الكتاب ، لابن الخطيب ، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، رقم 2010 .

(27) زهر البستان ، مؤلف مجهول ، مخطوط مكتبة ريلاندز بمانشستر (انجلترا) رقم 283 (قسم عربي) .

(28) سراج الملوك ، للطرطوشي ، بولاق ، 1289 هـ .

(29) سلوان المطاع ، لابن ظفر الصقلي ، القاهرة ، 1278 هـ .

(30) سلوة الانفاس ، للكتاني ، فاس ، 1310 هـ .

(31) الصلة ، لابن بشكوال ، مدريد ، 1883 م .

(32) صلة الصلة لابن الزبير ، الرباط ، 1938 م .

(33) الضوء اللامع ، للسخاوي ، القاهرة ، 12 ج ، 1354 - 1355 هـ .

(34) العبر ، لعبد الرحمن بن خلدون ، بيروت ، 7 ج ، 1959 .

(35) عصر المرابطين والموحدين ، لمحمد عبدالله عنان ، القاهرة 1964 م

(36) عصر المنصور الموحيدي ، لمحمد رشيد ملين ، الرباط ، 1946 م .

(37) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية تحقيق رابع بونار ، الجزائر ، 1971 م .

(38) العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، مصر 7 ج ، 1940 .

(39) الفارسية ، لابن قنفذ القسنطيني ، تونس ، 1968 م .

(40) فوات الوفيات ، لابن شاکر ، بولاق ، 1283 - 1299 هـ

(41) كنز الملوك في كيفية السلوك ، لسبط ابن الجوزي تحقيق غورسته فيستام ، لوند (السويد) 1970 م .

(42) المؤنس ، لابن أبي دينار القيرواني ، تحقيق محمد شمام ، تونس ، 1967 م .

- (43) المسالك والممالك ، للبكري ، الجزائر ، 1911 .
- (44) مستودع العلامة ، لابن الأحمر ، تحقيق محمد التركي التونسي ومحمد بن تاويت التطواني ، تطوان ، 1964 م .
- (45) المسند ، لابن مرزوق ، مخطوط الخزانة العامة ، بالرباط ، رقم ق 111 .
- (46) المعجب ، لعبد الواحد المراكشي ، القاهرة ، 1949 م .
- (47) مفتاح الوصول في علم الأصول ، لابي عبدالله الشريف التلمساني ، الدار البيضاء بدون تاريخ .
- (48) المنتخب النفيس من شعر أبي عبدالله بن خيس ، لعبد الوهاب ابن منصور ، تلمسان 1365 هـ .
- (49) مظاهر الثقافة المغربية ، ل محمد ابن شقرون ، الرباط ، 1970 .
- (50) المعيار ، لابي العباس الونشريسي ، فاس ، 12 ج ، 1314 - 1315 هـ .
- (51) النجم الثاقب ، لابن سعد التلمساني ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط .
- (52) نخلة اللبيب ، لابن عمار الجزائر ، 1904 م .
- (53) نظم الدر والعقيان ، للتنسي ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس ، رقم 1875 (قسم عربي) .
- (54) نفاضة الجراب ، لابن الخطيب ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، القاهرة بدون تاريخ .
- (55) نفح الطيب ، للمقري ، تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد ، بيروت 10 ج ، 1949 .
- (56) نيل الابتهاج ، لأحمد بابا التنبكتي ، طبع على هامش الديباج المذهب لابن فرحون ، القاهرة ، 1351 هـ .

- (57) واسطة السلوك في سياسة الملوك ، لأبي حمو موسى العبد الوادي ،
مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر .
- (58) واسطة الملوك لأبي حمو موسى العبد الوادي ، تونس ، 1279 هـ .
- (59) ورقات من الحضارة العربية بأفريقية ، لحسن حسني عبد الوهاب
تونس ، جزآن ، 1965 م .
- (60) الوفيات ، لابن قنفذ القسنطيني ، تحقيق عادل نويهض بيروت 1971م .
- (61) وفيات الاعيان ، لابن خلكان ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ،
القاهرة ، 6 ج ، 1948 .

فهرست

5 المقدمة :

القسم الأول

9 الدولة العبد الوادية قبل إمارة أبي حمو الثاني

الباب الأول

- 11 الأوضاع السياسية
- 11 تأسيس الدولة العبد الوادية
- 13 يغمراسن بن زيان
- 14 أبو سعيد عثمان الأول
- 15 أبو زيان محمد
- 16 أبو حمو الأول
- 17 أبو تاشفين الأول
- 18 الصراع بين أبي تاشفين وأبي يحيى الحفصي
- 19 استغاثة أبي يحيى الحفصي ببني مرين
- 20 استيلاء أبي الحسن المريني على المغرب الأوسط
- 22 حركة أبي الحسن إلى الأندلس
- 23 زحف أبي الحسن إلى إفريقية

- 24 هزيمة أبي الحسن قرب القيروان
 25 إحياء الدولة المبد الوادية على يد الاميرين ابي سعيد وابي ثابت
 26 فشل هجوم ابي الحسن المريني على تاحية شلف
 28 الصراع بين ابي الحسن وابنه ابي عنان
 28 وفاة أبي الحسن المريني
 29 زحف أبي ثابت الى المنطقة الشرقية
 31 استيلاء أبي عنان المريني على المغرب الأوسط
 33 زحف أبي عنان الى إفريقية
 34 وفاة أبي عنان

الباب الثاني

- 35 الحياة الفكرية
 35 التعليم
 37 العلوم الدينية
 49 العلوم اللسانية والاجتماعية
 52 العلوم الطبيعية

الباب الثالث

- 57 الفنون والعمران

القسم الثاني

- 67 حياة أبي حنّو الثاني وآثاره

الباب الأول

- 69 حياته وسياسته

69	نسبه
71	نشأته بتلمسان
72	اقامته بفاس
73	عودته إلى وطنه
76	هجرته إلى إفريقية
86	حركة أبي حمو الثاني لاحياء الدولة العبد الوادية
91	فشل الهجوم على وهران
93	الزحف المربني إلى تلمسان وفشله
95	إخضاع المنطقة الشرقية
98	زحف أبي سالم إلى تلمسان
100	مطاردة أبي زيان القبسي حفيد أبي تاشفين
101	عقد الصلح بين أبي حمو وأبي سالم
103	فتح وهران والجزائر وتندلس
105	ثورة خالد بن عامر
106	ابتداء منافسة أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد الثاني
108	منافسة أبي زيان القبي لأبي حمو
110	وقيعة البطحاء
111	فشل محاولة أبي زيان القبي
112	نتائج هزيمة البطحاء
114	نهوض أبي حمو الى بحاية
117	منافسة أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد الثاني
126	استيلاء السلطان عبد العزيز المربني على المغرب الأوسط
131	عودة أبي حمو إلى تلمسان
131	إخضاع المنطقة الشرقية
135	الصراع بين بني عامر وسويد

- 136 اخضاع الثعالبه
137 المنافسه بين أبناء أبي حمو حول الحكم
141 استيلاء أبي العباس المريني على قلمسان ومفادرقه لها
145 ظهور العداء بين أبي حمو وابنه أبي تاشفين
1 7 خلع أبي حمو واعتقاله
149 سفر أبي حمو الى الشرق ونزوله ببجاية
150 رجوع أبي حمو الى قلمسان
152 استغاثة أبي تاشفين ببني مرين
154 وفاة أبي حمو

الباب الثاني

- 157 حضارة المغرب الأوسط في عهد أبي حمو الثاني
159 الحياة الفكرية
162 العلوم الدينية
171 العلوم اللسانية والاجتماعية
178 العلوم الطبيعية
181 الفنون والعمران

الباب الثالث

- 185 آثار أبي حمو الأدبية
187 كتاب واسطة السلوك
187 تاريخ تأليفه
189 موضوعه
191 منهج أبي حمو في معالجة الموضوع
197 مضمون الكتاب

201	قيمة الكتاب
201	قيمته التاريخية
203	قيمته الاجتماعية
206	قيمته الادبية
209	شعر أبي حمو
210	الفخر والحماسة
217	الرثاء
220	المولديات
227	الحامّة

القسم الثالث

231	مختارات من آثار أبي حمو
-----	-------------------------

الباب الأول

233	منتقيات من كتاب (واسطة السلوك)
233	1 - توصية ترشد الى حفظ الجيوش والاجناد والامراء والقواد
239	2 - مراتب أعوان السلطان
246	3 - موقف السلطان من العدو
270	4 في الشجاعة وأقسامها
271	القسم الأول وهي للشجاعة التي يصحبها الرأي
276	القسم الثاني من الشجاعة
276	القسم الثالث
277	القسم الرابع من الشجاعة

الباب الثاني : شعر أبي حمو

الشعر السياسي

حان الفراق

جرت أدمعي

دمع ينهمل من المقل

كتمت حبي

تذكرت اطلال الرسوم الطواسم

السيف أجدر والخطي من خطب

قف بالمنازل

الرثاء

دنف تذكر حسرة التوديع

صب تذكر عبداً

الشعر الديني المولديات

نام الأحباب ولم تم

قفابين ارجاء القباب

نزلتم من فؤادي منزلاً حسناً

مشوق تزيًا بالفراغ

ذرفت لتذكار العقيق دموعي

هويننا الظبا

يا من يحيب ندا الماضطر

الفت لفتي

المراجع

371	الحب أضعف جسمي
375	قفا خبراني
378	الاما لعب مشوق
381	خليلي قد بان الحبيب

ميو رقة

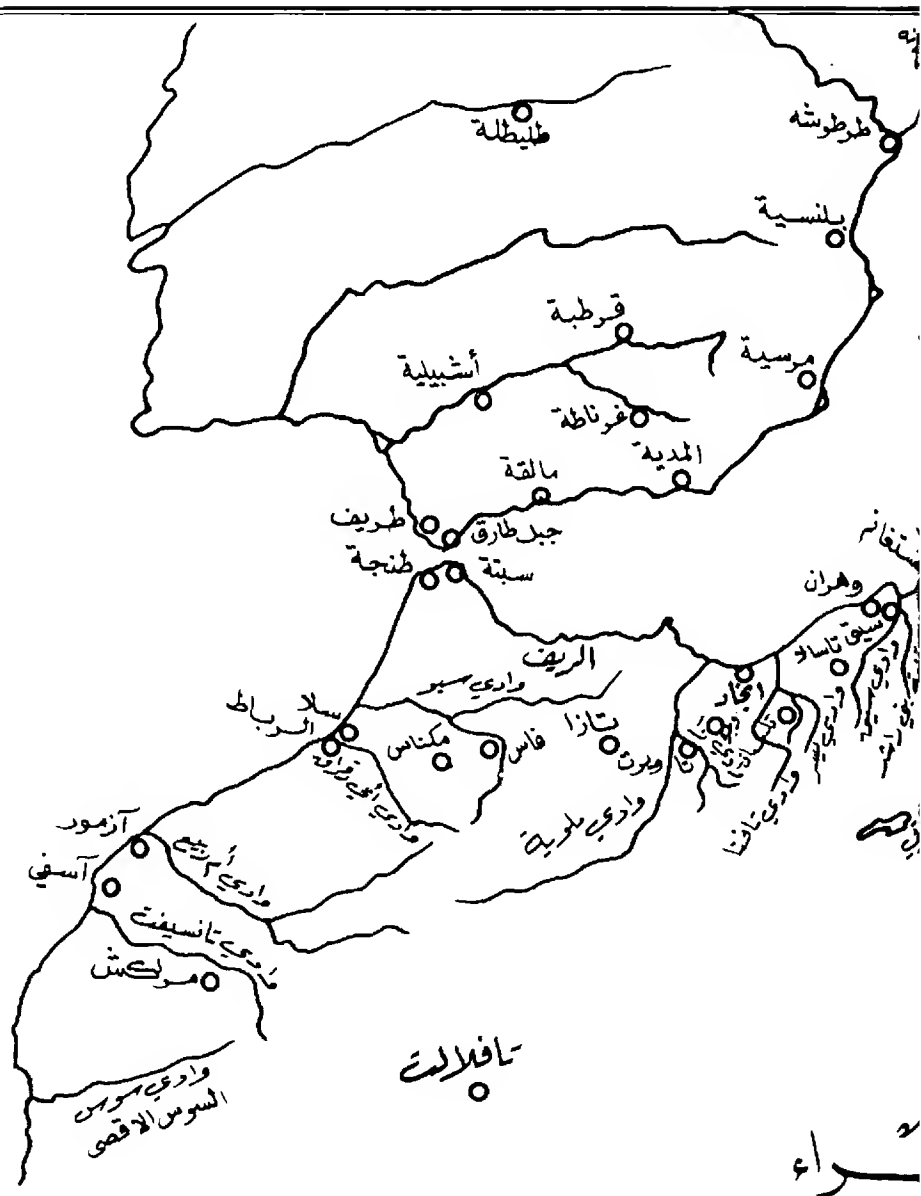
يا بسة

الصلوة

خريطة المغرب والاندلس
في القرن الثامن عشر.

300 200 100 50 0





جدول التصويب

صفحة	سطر	خطا	صواب
6	10	لا يستغنى عنها	لا يستغنى عنها
6	19	مرار	مرارا
14	4	703 هـ	(681 - 703 هـ)
28	14 - 15	الاول ربيع	ربيع الاول
43	16	بغية لرواد	بغية الرواد
44	4	المقري	المقري
44	17	لسن	عن
45	17	ص	ص 215 - 217 .
45	19	نفخ الطيب	نفخ الطيب
46	13	المقري	المقري
47	2	المقري	المقري
47	9	المقري	المقري
54	6	استعمله	استعمله
57	9 - 10	عهد يعقوب	عهد ابي يعقوب
79	8	لاحداهما	لاحدهما
87	12	الصفيف	الصلصيف
100	3	ابي زياد	ابي زيان
100	11	واخطر	واضطر
104	1	بن السلطان	ابن السلطان
114	15	عنيها	عنها
123	15	لاستقصاء	لاستقصاء
135	5	لفزم	لفزم
145	5	والمتمصم	والمتمصر
159	9	وغيرها	وغيرها
161	10	(يحب	» يحب
161	12	لدولته (لدولته » .
176	17	ص 100 - 102	ص 139 - 140
178	1	بن العطار	ابن العطار
178	2	بن محمد	ابن محمد
187	12	والتفويض له .	والتفويض له » .

صفحة	سطر	خطا	صواب
190	5	ان يتصلوا بها	ان يتحلوا بها
193	15	والحدومة	والدمومة
197	9	يريده	يريد
217	11	طيبها	وطيبها
220	17	ج 9 و ،	ج 9 ،
223	8	الظبا	الظبي
225	1	مولده	مولد
234	18	بأجمعهم	باجمعهم
235	14	عند الحق	عبد الحق
240	19	هكذا في	وفي
242	6	ومكانه	ومكانة
253	5	خدعه	خدعة
261	10	اخرج	اخرج
265	19	تواتر	تواتر
267	3	بدار لكه	بدار ملكه
268	12	لا تلي العدد	لا تلي العدد
272	13	جيش	جيشك
274	3	حاصتك	خاصتك
280	19	كذا في	كذا في المخطوط ، وفي
281	17	كذا في	كذا في المخطوط ، وفي
281	18	كذا في	كذا في المخطوط ، وفي
282	18	كذا في	كذا في المخطوط ، وفي
284	3	يكسو	يكسوه
288	11	ونشره	ونشره
288	19	النسخة	كذا في النسخة
299	14	مفاعيل	مفاعيلن
309	9	اتمي	التمي
313	2	غزمنم	عزمنم
315	2	قد اعيالك	قد اعيالك
315	9	قبل ناصرها	قبل ناصرها
324	12	قتلت	قتلت

صفحة	سطر	خطا	صواب
326	2	ملويه	ملوية
326	14	بن عريف	ابن عريف
329	10	وزنائة	وزنائة
333	5	لاكنه	لكنه
336	14	ايا حمو	ابا حمو
336	15	في غيرها	في غيره
337	6	أصابه	(أصابه)
345	9	فضب	فضب
352	3	أشجائه	اشجائه
357	9	وطيء	وطيء
359	2	والفنا الظبا	والفنا الظبي
360	17	كأس الظبا	كأس الظبي
362	5	انسي	انسي
366	16	الظلال	الضلال
372	13	تجرى	تجري
396	22	الفت لفني	الفت الفنى
397	3	لعب	لعب
400	الخريطة	القرن الثامن عشر	القرن الثامن الهجري
400	—	المرية	المدينة
401	—	المدينة	المرية
401	—	تاويرت	تاويرت